هلال زاهر الساداتي

الطباشيرة والكتاب والناس

مذكرات معلم قديم



الطباشيرة و الكتاب والناس

مذكرات معلم قديم

الطباشيرة و الكتاب والناس

مذكرات معلم قديم

هلال زاهر الساداتى

الطباشيرة و الكتاب والناس

مذكرات معلم قديم

هلال زاهر الساداتي

الإشراف العام : الشيخ عووضه

تصميم الغلاف: سامر محمود

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر / السودان

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٩١٤٦

سنة الطبع: ٢٠٠٦

العنوان: ٧ ش ممر ناصر – حدائق المعادي – القاهرة

إدارة المبيعات: ٠٠٢٠١٢٧٩١٠٤٣١ - ٠٠٢٠١٠١٢١٩٣٤٩٤

تلفاكس: ٠٠٢٠٢٦٩٨٩٥١٧

البريد الإلكتروني: elshekh@daralaloom.com

الإهداء :

الي أمي فاطمة

والي أبى زاهر رحمهما الله .



شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يـرى النـور لـولا التمويـل
المادى من الصديق العزيز الأديب شوقى بدرى ،
فله العرفان والامتنان.

والشكر ممتـد لابنـائى زاهـر ورشـا اللـذين قامـا
بطباعة الكتاب على اسطوانة مدمجة.

هلال



مقدمة

هذه قطوف من شجرة حياتي وبالأخص ما تعلق منها بمهنة التدريس والتي أنفقت فيها ثلاثا و أربعين سنة من عمري طوفت فيها في ربوع بلادي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في بلادي العظيمة ذات المساحة الشاسعة والشعوب والقبائل التي يجمع بينها كلمة السوداني ويؤلف بينها طبائع وعادات مشتركة من الوضوح والكرم والصراحة والإباء وهي صفات أصبحت دالة علي السودانيين حيثما حلوا في الأرض .

وكثير مما ستقرأه في هذا الكتاب كان مصدر متعة لي عندما عايشته ، وآمل ان تجد فيه قدرا من المتعة والمعلومة النافعة ، ولئن حدث هذا فأنه يكون داعية لسروري ، فنحن في زمن تكالبت فيه المصائب والمنغصات علي الفرد وقلت فيه البسمة والضحكة ونضب اوكاد الاستمتاع بالحياة

هلال زاهر الساداتي



كيف ولجت إلى حقل التعليم ؟

لكل امرئ و بخاصة من كان في نهاية الصبا و أول الشباب طموح وثاب لما يبتغيه أن يكون أو بالأحرى أن يمتهن من مهنة في المستقبل عندما يفرغ من تعليمه ، و ربما تكون هذا الطموح من مدارج الطفولة تأثرا بما شاهده من الرجال النابهين في مجال معين في الحياة ، أو يود أن يسير علي خطي والده أو أحد أقربائه إن كان طبيبا أو ضابطا في الجيش أو محاميا أو مهندسا ، وهذه أمثلة للتطلعات وفي العادة يرد سؤال الكبار للأطفال : ماذا تريد أن تكون في المستقبل ؟ ويجيب الطفل ببراءة الطفولة عن المهنة أو الوظيفة التي يتمناها في مستقبل أيامه .. وربما يصدق أمله في المستقبل في امتهان الوظيفة أو المهنة التي تمناها في طفولته أو في صباه ، أو ربما تأتى الرياح بغير ما يشتهى ويتغير مسار حياته في اتجاه مهني معاكس تماما لما يتمناه ، ولا ورد مثال لذلك كبرى بناتي التي كانت منذ طفولتها تقول أنها ستكون طبيبة في المستقبل ، وعندما صحبتهم إلى معرض الخرطوم الدولي وفي قسم لعب الأطفال تعلقت بلعبة تضم نماذج مصغرة للأدوات الطبية من سماعة الطبيب وميزان الحرارة وخلافه وطلبت مني أن أشتريها لها ، وفي المنزل صارت لعبها المفضل هو تمثيل دور الطبيبة وتقوم بالكشف بالسماعة على أخوتها ولداتها من أطفال الجيران أيضا ، وهي في ذلك تأثرت بعمتها الدكتورة خالدة و التي كانت أول طبيبة سودانية ، وكبرت ابنتي وكبر معها أملها حتى تحقق وصارت طبيبة .. أما أنا فقد كنت أتطلع لدراسة القانون وامتهن المحاماة ، ولكن لم يتحقق

ذلك الحلم القديم مع إنني قضيت فترة قصيرة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة . ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه : تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، و لأدراك ما حصل من المستحسن أن نلم بالظرف التعليمي و الاجتماعي في السودان في أوائل الخمسينات من القرن العشرين ، فقد كان مجموع المدارس الثانوية الحكومية في طول السودان وعرضه مدرستان فقط وهما وادى سيدنا وحنتوب وكانت إلى جانبهم مدرستان ثانويتان أهليتان هما الأحفاد الثانوية والأهلية الثانوية وكلاهما في أمدرمان ، ومؤسسة واحدة فوق الثانوي وهي كلية غردون التذكارية وسميت بعد ذلك المدارس العليا ثم صارت كلية الخرطوم الجامعية ، ثم تحولت إلى جامعة الخرطوم الحالية و كان السعيد و المحظوظ هو الذي يقبل في التعليم العالي لأن أعداد المقبولين في كل كلية كانت تعد علي الأصابع .. و كانت معظم وظائف الدولة يشغلها خريجو المدارس الثانوية و المدارس المتوسطة . و كان خريجو المدارس الثانوية يخضعون لامتحان تحريري يدعي امتحان الخدمة المدنية Civil Service Exam و يقتصر وصفه بامتحان ال C.S و يوظف الناجحون في الحكومة في درجة تسمي الدرجة J ، وتشمل الوظائف في هذه الدرجة معلمي المرحلة المتوسطة وضباط الجمارك و الكتبة و المحاسبين ، كما يلتحق الناجحون بمدرسة الصحة ليتخرجوا ضباط صحة و كذلك الكلية الحربية وكلية الشرطة و السجون.. و تخرجت من الثانوي أنا و صديقي الحميم و زميلي في الدراسة (وابن حلتي) محمد حسين ، و اخبرني أن مصلحة المعارف قد أعلنت عن طلب مدرسين في ما يسمي وليم كورس يتعين فيها الطالب في الدرجة J و تسمي (اسكيل J) و يتدرب

لمدة سنتين و بعدها يترقي إلى الدرجة أو اسكيل JH و الذي عادة ما يصله الموظف بعد أربع أو ست سنوات من الخدمة ، و كان العرض مغريا و قد عزمنا علي التقديم للعمل كمدرسين في المرحلة الوسطي ولكن صديقي بدل رأيه في آخر لحظة و التحق بكلية الصحة ليتخرج ضابط صحة بعد ذلك ، أما أنا فقد تقدمت للعمل بالتدريس علي غير رضا من والدي و الذي كان يود أن التحق بالكلية الحربية و أصير ضابطا مثله و مثل عائلته العسكرية منذ المهدية فوالده كان قائدا لمجموعة من الأنصار و يسمي رأس ميه و حارب في كرري و استشهد في أم دبيكرات مع الخليفة عبد الله و إرضاء للوالد تقدمت للالتحاق للكلية الحربية و كانت هناك ثلاث لجان للمعاينة تنظر الطالب المتقدم ، و عند اللجنة الأولى التي كانت مشكلة من ضابط إنجليزي برتبة اميرالاي (عميد) ومعه ضابطان سودانيان أحدهما برتبة قائمقام (عقيد) و الثاني برتبة بكباشي (مقدم) و عندما أجبت علي الأسئلة وكانت في مجملها أسئلة عامة ، اخبرني رئيس اللجنة الإنجليزي بان سني لا يؤهلني للالتحاق بالكلية الحربية و كان سني حينذاك ثمانية عشر عاما ، والمطلوب أن يكون عمر الطالب تسعة عشر عاما و طلب مني أن أتقدم في العام المقبل ، وخرجت من اللجنة حامدا الله في سري لأنني لم تكن لي رغبة في العمل بالجيش لاعتقاد لدي أن العسكري لا خيار له بل يطيع الأوامر طاعة عمياء مهما كانت دون تفكير أو تصرف (نفذ ثم اتظلم) ، ولكن هذه هي العسكرية و إن كانت غير ذلك لما كانت عسكرية .. و أظن أن الذي اثر في اعتقادي هذا هو الكاتب الشهير الساخر برنارد شو فقد كان مقررا علينا في الشهادة الثانوية (كمبريدج) دراسة كتابه (السلاح و الرجل) Arms & the

man ، فقد وردت فيه قصة قائدين في الحرب العالمية الأولى، فالقائد الأول لم يلتزم بالخطة و تصرف طبقا لظروف المعركة وكسبها، واما الثاني فقد التزم بالأوامر حرفيا و خسر المعركة ، وكانت النتيجة أن قدم القائد الأول للمحكمة العسكرية لمخالفته للأوامر وأما الثاني فقد قلدوه وساما !

وخرجت من لجنة الجيش و بعد حين مثلت أمام لجنة مصلحة المعارف و كان مقرها مباني وزارة الأعلام الحالية بشارع الجامعة والمقابلة لبنك الخرطوم الرئيسي و كانت اللجنة تتكون أيضا من ثلاثة أعضاء يرأسها إنجليزي من كبار موظفي مصلحة المعارف واثنان من السودانيين و كانت مهمة اللجنة فحص المتقدم من ناحية شكله ومعلوماته و نطقه في الحديث و هذه أشياء ضرورية لمن يعمل بالتدريس لانه يفترض في المعلم أن يكون قدوة لتلاميذه فأن كان ذا عاهة في الكلام أو السمع أو الهيئة فلن يستطيع الإبانة و ربما صار مدعاة للهزؤ بين التلاميذ و يطلقون عليه ألقابا مسيئة ، و أجبت علي أسئلة اللجنة و ختم رئيس اللجنة بسؤال عن المدينة التي ارغب في العمل بها فقد كانت المدارس المتوسطة في ذلك الوقت توجد في المدن الكبيرة فقط كالخرطوم و امدرمان و مدني و عطبرة و بربر وبورتسودان والابيض و الفاشر و كسلا و شندي و ابوحمد و حلفا و مدرسة عطار في الجنوب ، و أخبرته بأنني افضل العمل بالمدارس الأهلية و مدرسة الأحفاد بالذات . فقد كان يتم اختيار المدرسين للمدارس الحكومية و الأهلية عن طريق لجنة القبول بمصلحة المعارف و تتحمل رواتبهم المصلحة كإعانة للمدارس الأهلية و تتم معاملتهم من حيث الرواتب

والعلاوات كمدرسي الحكومة و يخضعون فنيا في التدريب والتفتيش كرصفائهم في الحكومة و يختلفون في شئ واحد و هو النقل و شئ آخر و هو الخدمة المعاشية ، وكان اختياري نابعا من أمرين أولهما أنني ما كنت أتصور العمل خارج العاصمة بل خارج امدرمان ، وثانيهما إن لمدارس الأحفاد معزة خاصة في نفسي فقد درست فيها ابتداء من الروضة و انتهاء بالمرحلة الثانوية ، أي قضيت اثنتا عشرة سنة من عمري الذي كان حينئذ ثمانية عشرة سنة ، وكان الناظر إبراهيم إدريس و العميد يوسف بدري يقولان لي بان أدعو كل واحد منهما بعمي .. و هكذا اعتمدتني اللجنة مدرسا تحت التمرين و بعثت بأوراق تعيني إلى مدرسة الأحفاد بامدرمان .. هنا بدأت صفحة جديدة في كتاب حياتي تلتها صفحات و صفحات حتى صارت مجلدا ضخما في رحلة امتدت لامد طوله ثلاث ه أربعون سنة ...

في الأحفاد

لم استشعر وحشة عندما ذهبت إلى مدرسة الأحفاد و قابلت صاحبها و ناظرها الشيخ الجليل بابكر بدري فقد أنفقت طفولتي وبداية شبابي بها و لم أفارقها إلا منذ وقت قريب و هو الفرق بين زمن التخرج و زمن الالتحاق بالعمل فيها و هو عدة اشهر ، ومدارس الأحفاد دنيا بحالها ضمت بين جدرانها حينئذ ثلاث مراحل دراسية بداية من الروضة وكانت تلك أول روضة للأطفال في السودان ثم تليها المرحلة الأولية و مدتها أربع سنوات ، ثم المرحلة الوسطى ومدتها أربع سنوات أيضا ، فالثانوية ومدتها أربع سنوات ، والآن أصبحت هذه

المنارة التعليمية الشامخة جامعة فريدة للبنات ، ولكن ألغيت المرحلة الثانوية وأبقى على المرحلتين الأولية والمتوسطة واللتان أدمجتا في مرحلة واحدة سميت بمرحلة الأساس وحلت في المبنى الرئيسي القديم للمدرسة بجوار مبنى بلدية أمدرمان ومركز أمدرمان القديم ، وهذا المبنى نفسه هو الذى تلقيت فيه تعليمي من الروضة و المرحلة الأولية والمرحلة المتوسطة وها أنا أعود أليه الآن مدرسا. وكان الشيخ بابكر بدرى ناظرا للمرحلة المتوسطة و الشيخ ميرغنى السنجك ناظرا للمرحلة الأولية وتشرف على الروضة الأستاذة فاطمة دكة، ورحب بى الشيخ وكان لديهم نقص مدرسين اثنين في هيئة التدريس, وكانت الفترة بداية العام الدراسي ، وكان هناك جدولان للحصص من نصيب المدرسين الذين سيعينان بالمدرسة ولما كانا مجهولين فقد أطلق على أحدهما الحرف الإنجليزي X وعلى الثاني الحرف الإنجليزي Y وكان من نصيبي الجدول X ، وكان نصابه أربعة وعشرين حصة في الأسبوع وبه مواد الإنجليزي و الجغرافيا والتاريخ و الرياضيات، ولما كنت أكره الرياضيات ولا أجيدها حتى أنني حذفتها من شهادة كيمبردج الثانوية ، وحدثت الشيخ بذلك ولكنه أصر على تدريسي لها وقال لي أن أذاكرها ثم أدرسها ، وقبلت على مضض وأنا مشفق من الدخول في هذه التجربة الصعبة ، والشيء الآخر الذي أشعرني ببعض الحرج أنني وجدت نفسي زميلا لأساتذتي الذين تتلمذت عليهم في نفس المرحلة أو التي قبلها كالأساتذة العم عبد الكريم بدري ولو أنه أنتقل للعمل كأمين للمخزن ومسئول عن الحسابات والمصاريف .ومن أساتذتي الآخرين عبد الحفيظ هاشم وعبد الخالق حمدتو.وسيد أحمد عبد الرحمن وحسنين عبد الهادى وحسن حامد البدوى وأحمد

عمـر الشـيخ وميرغنـى السـنجك ،كمـا أنـني كنـت أصـغرهم سـنا ، وكان المدرسون خليطا من كل الأعمار فمنهم الشيوخ المسنون الذين يعملون بعـد إحـالتهم للمعـاش وهـؤلاء يدرسـون الـدين والعربـي وجلـهم خريجـو المعهـد العلمـي بأمـدرمان وربمـا واحـد أو أثـنين مـن خريجـي الأزهر بمصر، أما فئة الأساتذة الأفندية كما كان يسمونهم فكلهم مـن الشـبان وغـالبيتهم مـن خريجـي كليـة غـردون ، وهنـاك فئـة ثالثـة قليلـة تتكـون مـن خريجـي كليـة الحقـوق بجامعـة القـاهرة وهـؤلاء يقضون في الغالب سنة أو اثنتين يعملون فيها بالتدريس إلى أن يجلسوا لامتحان معادلة القانون وهذا الامتحان يختص بالمتخرجين من كليات الحقـوق بمصـر ، ومـن يجتـاز الامتحـان يحصـل علـى رخصـة مزاولـة المحاماة وأذكر من هؤلاء المرحوم الدكتور الصائم محمد إبراهيم و المرحوم الأستاذ الفاتح عبود و الأستاذ صادق عبدالله عبدالماجد و الذي آثر العمل في السياسة و تبوأ فيما بعد منصب المرشد للإخوان المسلمين و سأعود للحديث عن المدرسين فيما بعد ، و دلفت إلى حجرة المدرسـين الرئيسـية متهيبـا الموقـف و مستشـعرا الحـرج ، فقـد كـان للمدرس في زماننا في الخمسينات مكانة كبيرة و له منزلة عالية و كل المدرسين نالوا هذه المرتبة البعض عن محبة و البعض عن رهبة و لكن كان الاحترام لهم لزاما علينا استنادا علي تربية المجتمع و تقاليده السائدة . و كانت حجرة المدرسين واسعة تحتل بطولها طاولة طويلة بها أدراج واسعة من الجانبين و يواجه كل درج كرسي و تسع الطاولة لعشرة مدرسين كل خمسة منهم في جانب ، و احتللت واحدا مـن الأدراج و الـذي سيصـير مكـتبي لعـدة شـهور قادمـة ، و كانـت أكوام الكراسات تنتشر فوق الطاولة من أولها إلى آخرها و التلاميذ

داخلين خارجين حاملين الكراسات . و كان الناظر قد زودني بملف لكل مادة سأدرسها و هذه عبارة عن دليل للمعلم فيه المادة موزعة علي زمن كل حصة ، و مادة كل حصة موزعة علي زمن الحصة و هو أربعون دقيقة ، و اعد هذه الملفات معهد التربية ببخت الرضا و الذي كان منوط به إعداد المناهج و تدريب المعلمين ، و كان ملف الجغرافيا باللغة الإنجليزية ، و كانت اللغة الإنجليزية في عهد الاستعمار هي السائدة و كانت كل المراسلات الحكومية والمحررات تتم بها و لم تكن تشكل لنا أي مشكلة فقد كان مستوي أي خريج من الثانوي عاليا فيها لانه كانت تدرس كلاسيكيات اللغة من الأدب و شكسبير و كانت كل المواد تدرس باللغة الإنجليزية عدا بالطبع التربية الدينية .

كانت المشكلة بالنسبة إلى هي الرياضيات و الحساب بصفة خاصة فقد كنت كل ليلة اسهر حتى منتصف الليل في تحضير الحصص و تأخذ مني الرياضيات وقتا طويلا ، و في هذا الصدد كنت استعين بشقيقتي زاهية و التي كانت متفوقة فيها ، و اذكر وأنا اضحك انه كان فى بداية كل حصة حساب ما يعرف بالعمل الذهني الشفهي و هو أن يقول المدرس بسرعة عددا و يضربه في عدد ثم يقسمه علي عدد و يطرح منه عددا و ينتظر الجواب علي الفور ، وكنت ولا أزال أدوِّر حاصل العملية في ذهني أجد بعض التلاميذ النابهين و قد ارتفعت أصابعهم صائحين (فندي –فندي) أي أفندي وهذه تعادل (أستاذ - أستاذ) اليوم ، للإجابة ! ولما دام الحال علي هذا المنوال ذهبت إلى الشيخ و أخبرته بما أعانيه و طلبت منه أن يخفف

جدول حصصي بان يحذف منه مادة الرياضيات أو يعطيني مادة أخرى بدلا منها ، فاخبرني انه لا مناص من تدريس الرياضيات لانه لا يوجد مدرس آخر يقوم بتدريسها ، و لا يمكن أن يقلل حصصي و إن فعل ذلك فلا بد من تخفيض راتبي في المقابل ، وإزاء ذلك رضيت مرغما بالواقع مرددا في نفسي (بلآء أخف من بلآء) .

و لما لم اكن قد تلقيت تدريبا علي فنون التدريس فقد حاولت أن أقلد أساتذتي و هؤلاء رغم كفاءتهم العالية الأكاديمية و تمكنهم من المواد التي يدرسونها إلا انهم لم يتدربوا علي أساليب التربية و طرق التدريس الحديثة ، و كان أسلوب الضرب هو السائد في التربية والضرب يتم بأدوات عدة منها السوط و البسطونة و بالمسطرة علي باطن و ظاهر اليد و بالصفع (الكف) علي جانب الوجه ، ولا يجد أحد غضاضة في أسلوب التأديب بالضرب فهكذا كانت ثقافة الناس وتنشأ الممارسة من البيت فالأب يضرب و الام تضرب و الاخوان الكبار يضربون اخوتهم الصغار ، حتى انه كان الكبار في الحي يضربون صغار الجيران عندمًا يبدر منهم من سلوك يستوجب ذلك ، وتعود بي الذاكرة إلى الوراء عشرات السنين عندما أتى بي جدي لوالدتي و أنا ابن الست سنوات ليلحقني بروضة الأحفاد عندما رفض ناظر مدرسة الموردة الأولية قبولي لأنني دون السن القانونية للقبول وهي سبع سنوات ، وجاء بي إلى الشيخ بابكر بدري و في نفس المكتب الذي يجلس عليه الآن ، وقال الشيخ بابكر لجدي ((لينا اللحم و ليكم العضم)) و ثار جدي و كان ضابطا متقاعدا و فيه حدة في الطبع و رد علي الشيخ ((انت درويش و ده كلام دراويش))

ولم يكن جدي يضربنا و ينهي أخوالي عن ضربنا أنا و اخوتي، وكنا في كنفه لأن والدي كان يعمل في الجنوب و تركنا مع جدي لاجل الدراسة . و معروف أن الشيخ بابكر من كبار الأنصار و من المجاهدين في كرري و عطبرة و توشكي و تم أسره بعد هزيمة جيش الأمير عبد الرحمن النجومي فاتح الخرطوم و استشهاده في توشكي ذلك الجيش الذي أرسله الخليفة عبدالله لفتح مصر ، و ارجع للتأديب بالضرب فقد كنت لا اضرب لعدم الفهم و لكن اضرب المهملين والمشاغبين و كنت حريصا علي أن اشرح و أعيد حتى يفهم الجميع ولكن رغم ذلك أسرفت في مرة في عقوبة معظم الفصل ، فقد عقدت للصف الأول اختبار الشهر في التاريخ و كان مقررا عليهم تاريخ الفراعنة و اذكر من أسماء ملوكهم و ملكاتهم (حتشبسوت ومنقرع .. الخ) و كانت أسماء ثقيلة علي اللسان و أحداث بعيدة عن الذهن وكانت نتيجة الاختبار أن رسب اكثر من نصف الفصل وأعدت أوراق الامتحان ومعي السوط و جلدت الراسبين.. و صدف إن كان الشيخ بابكر مارا و شاهدني اجلد التلاميذ ، فارسل الفرّاش يستدعيني بعد انتهاء الحصة ، و لما ذهبت إليه سألني عماذا ارتكب التلاميذ ، و لما أخبرته برسوبهم في الاختبار ، قال لي انه لا يعقل أن يكون كل هذا العدد الكبير مهملين أو أغبياء و لكن علي أن أراجع تفهيمي لهم و أن أراجع طريقتي في الشرح ، و عقلت هذا الدرس و استفدت منه في قابل أيامي و كان أن تحسن أدائي و تحسن مستوي فهم تلاميذي ، وهنا وعيت حكمة الدعاء ((اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه)) .

كانت للمدرسة قوانين صارمة ليس فيها تسامح و هناك قاعدة ذهبية و هي ((ما تجيب الوصل ما تخش الفصل)) و ((الفلوس قبل الدروس)) و هذه تعني أن من لا يدفع المصاريف المدرسية من التلاميذ لا يسمح له بتلقي الدروس و يطرد من المدرسة و لا يرجع للدراسة إلا بعد دفع المصروفات و لا يدخل الفصل إلا بعد إبراز الإيصال للمدرس فقد كانت الدراسة في المدارس الحكومية و الأهلية بمصروفات ولكنها كانت اعلي في المدارس الأهلية عنها في المدارس الحكومية وإذا لم تخني الذاكرة فان المصروفات الكاملة للتلميذ كانت اثنتا عشر جنيها في العام تدفع علي أربع أقساط ، هذا في المرحلة المتوسطة وثمانية عشر جنيها في العام للمرحلة الثانوية .. و كانت (حفلة) الطرد من اجل المصروفات المدرسية تتم في الطابور الصباحي في اليوم الثالث من مطلع كل شهر ، وينبه ضابط المدرسة أن علي التلاميذ الذين لم يدفعوا المصروفات أن يخرجوا من الطابور ، ويقف مدينو المصروفات كل أمام صفه ، و يأمرهم الضابط بالذهاب إلى منازلهم مشددا علي التنبيه أن لا يعودوا بدون المصروفات . و للحق فانه رغم هذا التشدد فان إدارة المدرسة كانت تقبل بعض أبناء الفقراء مجانا و البعض بنصف المصاريف و البعض الآخر بربع المصروفات كما كان التلاميذ من أبناء الأنصار تدفع مصروفاتهم دائرة المهدي .

كان بالمدرسة ثلاثة انهر و كل نهر يتكون من أربعة صفوف من الأول إلى الرابع أي اثنا عشر صفا ، فقد كانت المرحلة الوسطي أربع سنوات وكان عدد التلاميذ في كل صف أربعين تلميذا ، أي كان مجموع التلاميذ أربعمائة و ثمانين تلميذا و قد أطلق علي الفصول

أسماء المشاهير في العالم في العلوم أو الفلسفة أو الأدب و الشعر ، واذكر منها ، ابن رشد والغزالي ، و الجاحظ و من الذين ارسوا التعليم في السودان مثل يودال وهدايت . وكان هناك طابوران أحدهما في الصباح و الثاني بعد انتهاء الدروس وهذا الأخير تقرأ فيه التعليمات و أسماء التلاميذ المستحقين للعقاب و الذين بلغ عنهم المدرسون لضابط المدرسة ويقرأ رئيس (الألفوات) الأسماء ، ولكل صف (ألفة) وهو رئيس الفصل المسؤول عن شئون الصف من حفظ النظام وجمع الكراسات وخلافه ، ويوقع عقوبة الجلد بالسوط ضابط المدرسة بنفسه ، وكانت عدد الجلدات يتراوح من خمس إلى عشر ، أما (عتاة) المشاغبين فربما يحكم عليهم بعشرين وأحيانا خمسين جلدة يأخذونها على أقساط .. وسوط الضابط هو السوط الرئيسي وهو خاص به وأنا أسميه السوط المركزي وهو طويل غليظ ويجرى شراءه قبل بداية العام الدراسي مثله مثل الكراسات والأدوات المدرسية الأخرى ، وتوجد إلى جانبه سياط فرعية أخرى صغيرة عند بعض المدرسين وهذه للتأديب داخل الفصول .. وكلنا ذقنا طعم هذه السياط عندما كنا تلاميذا ..

وكانت النظافة والنظام قاعدة في المدرسة فكنت ترى الفراشين ينظفون أرضية البرندات طيلة اليوم تقريبا وهم يرتدون زيا واحدا مكونا من (بردلوبة) وعمامة من الكاكى .

وكان تلاميذ كل صف يقومون بنظافة حجرتهم الدراسية ويوزعون أنفسهم على جماعات كل واحدة منها تؤدى النظافة يوما في الأسبوع وتسمى (نبطشية) . النشاط الرياضي كان له عناية خاصة

فقد قسمت المدرسة إلى أربعة منازل رياضية ، وخصص لكل منزل يوم يزاول فيه كل أنواع الرياضة ، وكانت هناك ألعاب القوى كالجري بأنواعه والوثب والقفز بالزانة والجمباز على الأجهزة كالحصان والمتوازيين وكرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة ، ولقد وفرت المدرسة كل هذه الأجهزة والمعدات الرياضية .

واهتمت المدرسة كذلك بالنشاط الثقافي فقد كانت هناك الجمعية الأدبية والتي كانت تنعقد كل أسبوع ويقدم فيها التلاميذ مختاراتهم من النثر والشعر والمناظرات الأدبية . كما كانت هناك الجمعية العمومية للمدرسة وهى تدار كبرلمان مصغر ويتعلم فيها التلاميذ ممارسة الديمقراطية من نقاش ومصطلحات كالاقتراح والتثنية ونقطة النظام ويناقش فيها مختلف الأمور المتعلقة بالمدرسة .

ومن الأنشطة الهامة كانت هناك جمعيات للمسرح والإصلاحات والعلوم .

وكانت هذه النشاطات المتعددة تتيح لكل تلميذ إشباع هوايته وميله إلى أي نوع أو أي نشاط يرغب فيه .

وإلى جانب هذه الأنشطة المتنوعة والمتعددة كان هناك الفريق الأول المدرسي لكرة القدم وفريق الجمباز المخصوص وفريق كرة السلة الأول هذه الفرق كانت تتبارى مع نظرائها من المدارس الأخرى .

وكانت المنازل تتبارى فيما بينهما في مباريات تنافسية ، كما كانت حصيلة هذه الأنشطة المختلفة تصب في يوم الآباء والذي تحشد له المدرسة أجمل ما عندها في كل لون من الرياضة والمعارض والمسرح

ويكون تتويجا لمجهودات عام كامل وكان يوم الآباء ينعقد في نهاية العام الدراسي ويدعى له آباء وأولياء أمور التلاميذ ليروا ثمرات إنتاج أبنائهم ، ويحتوى صباح اليوم على معارض الفنون والعلوم ويكون اليوم الرياضي في العصر ، ويضم منافسات في كل الألعاب وكان هذا يتم في الميدان الواسع غرب مركز أمدرمان القريب من المدرسة .أما اليوم الثاني ويخصص مساءه للعرض المسرحي وعادة ما تقدم فيه مسرحية طويلة من ثلاثة فصول من التراث أو المسرح العالمي ويشارك في التمثيل بعض المدرسين ويقوم بالمكياج والإخراج والديكورات والتمثيل أيضا الأستاذ الفنان القدير سيد أحمد عبد الرحمن والذي كنا نناديه بشيخ سيد أحمد وهو مدرس الرسم والفنون بالمدرسة ، ولما كنا تلاميذا تعلمنا منه فنونا عديدة منها عمل التريكو بالإبر لعمل فنلات من الصوف وجوارب كما انشأ جمعية للحدادة وأذكر أن مدرسة الأحفاد الثانوية المجاورة كانت تحت التشييد وقمنا بعمل المفصلات للشبابيك في الجمعية لأن الوقت كان في الحرب العالمية الثانية في الأربعينات وتوقف الاستيراد والشيء بالشيء يذكر فقد كنا نصنع الطباشير بإشراف الأستاذ حسن عبد الحفيظ فكان يذهب معنا إلى شاطئ النهر حيث كنا نجمع الحجارة الجيرية البيضاء .. ومن مآثر الشيخ الجليل بابكر بدرى أنه أول من أدخل التمثيل والمسرح في الأنشطة المدرسية ، فإنه في ذلك الزمن أدخل العملية التعليمية التربوية المتكاملة لبناء الشخصية المتعلمة الفنية الرياضية مما يشبع حاجات المتلقي..

ومن الأشياء المتميزة هي تنظيم المذاكرة المسائية من السادسة إلى

الثامنة مساء طيلة أيام الأسبوع للفصول الروابع النهائية والتي سيجلس طلابها لامتحان الدخول للمدارس الثانوية وشهادة المرحلة المتوسطة ويخصص كل مساء لمادة من المواد ويكون مدرسو المادة حاضرين لمساعدة أي من الطلاب فيما يغمض عليه أو يستعصي عليه فهمه ويجدر بالذكر أن هذه تتم بلا مقابل ويحرص كل معلم على أن يحرز تلاميذه أحسن النتائج .

وشيء أسميه أبوي وأن شئت تسميته إنساني لمسته لمخالطتي معلمي بالأمس وزملائي اليوم وهو حدبهم وعطفهم على تلاميذهم وحرصهم على تربيتهم التربية الصالحة وتنشئتهم على الأخلاق القويمة برغم وسيلتهم لبلوغ ذلك عن طريق الموعظة الحسنة والعنف المتمثل في الجلد ، وارى أنه لا تثريب عليهم في ذلك لأن هذا الأسلوب في التربية كان هو السائد والمقبول عند الناس كما ذكرت آنفا ، وإذا وضعنا في الحسبان أن أولئك المدرسين لم يدخلوا معهدا

للتربية الحديثة لوضعنا عنهم كثيرا من اللوم ولم تخل دنيا الأحفاد مما يحدث بين البشر في كل مكان وزمان من احتكاك وعدم استلطاف وخلاف ربما يؤدى أحيانا إلى شجار وتعدى بالأيدي إذا طفح الكيل بأحد المختلفين عن التحمل ، أو أعوزته الحجة ، أو أوجعته الإهانة ، وهذا ما حدث من الأستاذ (س) والشيخ (س) أيضا ، فعندما هم الأستاذ (س) بالدخول على الناظر سمع الشيخ (س) يقول له : الأستاذ (س) فعل كذا وكذا وكان كلامه يحط من قدر الأستاذ أخلاقيا وتراجع الأستاذ وتربص للشيخ حتى خرج ، فأخذ بخناقه وضربه برأسه وكنا نقول على الضربة ((ضربه روسية

أو ضربة هد)) ، وأنهار الشيخ وهو يرغى ويزبد ، وتدافع المدرسون والفراشون يحجزون بينهم ، وأخذ الشيخ يقول ويكرر ((أتنطحنى برأسك يا ... ؟)) ، وصارت العبارة بعدئذ مزحة يرددها المدرسون وتناقلها التلاميذ نكاية في الشيخ (س) الذى لم يكن محبوبا .. أما العراك الثاني فقد كان بين الأستاذ (ح) والأستاذين (ع) و(ح) وكان الأول رجلا ريفيا قح يلبس جلابية وعمامة كبيرة ويحمل على ذراعه عصا غليظة يطلق عليها أسم (كريز) وكان مدرسا فاضلا محبوبا من تلاميذه ، وكان الآخران من أبناء أمدرمان المرفهين وكان الأستاذ الريفي يقف في فسحة الفطور ، ولم يكن يفطر مع المدرسين ، ويطلق عقيرته بالدوبيت ، ويشرع المدرسان في الضحك منه، والتندر عليه باللغة الإنجليزية ظانين أنه لا يعرف الإنجليزية ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك ، ولما طفح الكيل بالأستاذ (ح) هرع إلى المكتب وتناول عكازه ، وانهال عليهما ضربا وهما يستغيثان ويصرخان ، وأسرع إلى نجدتهما بقية المدرسين ..

قضيت سنة بالمدرسة أخبرني بعدها الناظر أنني سأبتعث إلى معهد بخت الرضا للتدريب وكان من المفترض أن أنفق سنتين كمدرس تحت التمرين قبل ذهابي لبخت الرضا ولكن الوزارة وافقت على طلب الشيخ بابكر لابتعاثى وكان هذا في بداية عام ١٩٥٢ م .. كنت أود أن أقصر حديثي عن الفترات العديدة في المدن والنواحي البعيدة من سوداننا الطويل العريض والتي عملت فيها مدرسا وناظرا وعميدا ومديرا وموجها وكبير موجهين ولكن لا يجوز أن أغفل فترة التدريب بكلية المعلمين الوسطى ببخت الرضا وهى فترة خصيبة ممتعة في

حياتي المهنية وكانت لها أبلغ الأثر في مهنتي ، ولذلك لابد من أن أورد لمحات عن الفترة التي قضيتها في كلية المعلمين الوسطى بمعهد التربية ببخت الرضا ، وكان معهد التربية ببخت الرضا يختص بتدريب معلمي المرحلة الأولية والمتوسطة والمدرسين المتخرجين من المدارس العليا أي الجامعة فيما بعد وكانت فترة التدريب لهم ستة أشهر يتدربون فيها نظريا وعمليا على طرق التدريس . واختار مؤسس المعهد المستر قريفث بقعة موحشة بعيدا عن العمران ومن مدينة الدويم وكانت المباني في أول عهدها القش ، وكان نائبه الأستاذ عبد الرحمن على طه والذي اصبح بعد ذلك أول وزير للمعارف في السودان في عهد الجمعية التشريعية عام ١٩٤٨ م ، واختار هذه البقعة الموحشة عن قصد لأن المتخرجين من المدرسين سيخدمون في بقاع السودان المختلفة المتخلفة المحرومة من كل مظاهر المدنية ، ولما جئنا بخت الرضا وجدناها مدينة علمية متكاملة مبانيها من الطوب والحجر وسقوفها من الزنك ومبطنة من الداخل بقماش سميك وتضم مباني الإدارة في منتصف المعهد وبه مكتبة المعهد ويحف بها مبنى كلية المعلمين الوسطى والمسرح وورشة الفنون ومدرسة التدريب الأولية ، ثم على مسافة تقع مباني كلية المعلمين الأولية وقاعة محاضرات ويوجد مستوصف طبي (شفخانة) به مساعد طبيب ومكتب بريد والمسجد ونادى الأساتذة ونادى السنتين ودكان حلاق وبركة السباحة والغطس وملاعب خضراء للألعاب المختلفة كالتنس والسلة والجمباز والطائرة وهناك صالة ألعاب مغطاة فيها ميدان لكرة الريشة وللملاكمة والجمباز .. وهناك منازل فخمة لهيئة التدريس وداخليات للطلبة المدرسين وبيوت لبعض المتزوجين منهم .

ويسكن المدرسون المتدربون في كلية المعلمين الوسطى في داخليات مكونة الواحدة منها من عدة حجرات يسكن كل أثنين في واحدة منها ، وكذلك هناك منازل صغيرة بها حجرتان بينهما صالة بها طاولة طويلة حولها كراسي وتستخدم كحجرة للمائدة وكذلك يوجد حمام ومرحاض وكل حجرة مؤثثة بسريرين خشبيين نسيجهما من الحبال وبكل سرير مرتبة ومخدة وملاءة وبطانية وناموسية ، ويوجد مكتبان صغيران وكرسيان وفانوسان للإضاءة ، وأما الداخليات فبكل داخلية الأثاث نفسه في كل حجرة والحجرات تفتح على برندة بطول الداخلية ومحاطة بسلك النملية لكي لا يدخل الناموس ، والناموس هنا عذاب مقيم وبخاصة في الخريف وكذلك لابد أن تنصب فوق كل سرير ناموسية لاتقاء شره ، ولقد شاهدت كل طلبة مبروكة وهي كلية المعلمين الأولية يغطون سيقانهم بقماش يشبه الجوارب وهي تصرف لهم اتقاء للسعات الناموس لأنهم يلبسون أردية قصيرة short وتوجد في كل داخلية حجرة واسعة common room تستخدم لتناول الطعام وهناك أيضا صفان من الحمامات والمراحيض في كل داخلية . واللافت للنظر أن كل هيئة التدريس بدءا من العميد ونزولا إلى الطلبة والمدرسين المتدربين يرتدون زيا واحدا مكونا من رداء short من الكاكي وقميص ابيض نصف كم من الدبلان ويحتذون صندلا ، وأما الإنجليز فيلبسون شرابات طويلة وأحذية أثناء ساعات العمل ، وأما في المساء فيلبس الواحد ما يشاء من بنطلون او جلابية وعمامة ..

و لقد جئت بخت الرضا من مدينة امدرمان في عام ١٩٥٢ ضمن

الفرقة الرابعة او الكورس الرابع Course4 كما يقال للتدريب في كلية المعلمين الوسطي ، وأتيت من المدينة حيث الحياة هينة سهلة وتضجرت في أول الأمر وتعجبت ماذا أراد مؤسس المعهد المستر قريفث من اختيار هذه البقعة الموحشة مكانا لاقامة المعهد ، ولكن تعودنا بعد حين علي هذه الحياة الخشنة التي لم نألفها من قبل وأولها سكني الداخليات والإضاءة بفوانيس الجاز ، وثانيهما تحمل لسعات البعوض الذي لم أرى مثله من قبل وهو بعوض عملاق الواحدة منه طويلة لها خرطوم طويل حاد تخترق به الجسد ، وثالثهما الخوض في وحل الخريف، فالتربة هنا طينية تصير وحلا إذا انهمر عليها المطر واخشوشنا.

كان يدرس بكلية المعلمين الوسطي أساتذة اجلاء من السودانيين والبريطانيين ، وكان علي كل متدرب أن يختار مادتين ليتخصص فيتدريسهما إلى جانب لون واحد من الأنشطة المتمثلة في التربية البدنية والفنون والمسرح ، واخترت اللغة الإنجليزية والجغرافيا والتربية البدنية وإلى جانب ذلك كان المتدرب يدرس طرق التدريس وعلم النفس التربوي والتعليم المقارن ، وتشتمل الدروس علي محاضرات نظرية ومعاينات للمدرسين في مدارس المعهد وتحضير وإعداد حصص يدرسها أفراد الفرقة من المتدربين ويحضرها زملاءه وأي من أساتذة المعهد بما فيهم العميد إذا وجدوا فسحة من الوقت ، وفي اللغة العربية كان هناك الدكتور عبد الله الطيب ولم يسعدني الحظ بالتتلمذ علي يديه لأنني اخترت اللغة الإنجليزية كمادة تخصص وكان بالشعبة الأستاذ صلاح المليك ، وفي شعبة اللغة الإنجليزية الأستاذ الفذ المستر برايت

ومعه المستر درم والذي كان يبدأ محاضرته عندما يضع قدميه علي عتبة الحجرة والذي ادخل الرعب فينا باختباراته الفجائية والتي لا يترك فيها شاردة او واردة مما ألقاه علينا في محاضراته ولذلك كان الواحد منا يبذل أقصى اليقظة والانتباه في محاضراته ، وكان بالشعبة أيضا المستر جورج الايرلندي الأصل والذي كان يدرس لنا علم الصوتيات Phonetics والذي اخبر عنه زميل وقال انه أثناء مروره بمكتب شعبة اللغة الإنجليزية سمع صوتا أو أصواتا (او – آى – آه – يو – وآى) فاسترق النظر ووجد مستر جورج يصدر هذه الأصوات ، فقد كان يحضر لدرسه .. أما رئيس الشعبة المستر برايت وهو عالم في طرق تدريس الإنجليزية وعمل بعد ذهابه من السودان مع شركة لونقمانز الشهيرة للنشر وألف العديد من الكتب والمناهج لتدريس اللغة لدول العالم الثالث وهو الذي أدخل الطريقة الحديثة لتدريس اللغة الإنجليزية (Direct method الطريقة المباشرة) ودربنا عليها ، كما أنه أدخل كتاب الخط الإنجليزي الحديث الذي أستبدل فيه طريقة رسم الحروف الهجائية القديمة بأخرى جديدة سهلة الكتابة وأقرب إلى حروف الطباعة في الكتب ، وجعلنا نخط الكتاب أى ننقله من الغلاف إلى الغلاف لأننا سنقوم بتدريسه بعد تخرجنا . وقد كان لا يتسامح في الخطأ ويصوبه في لحظته وربما بشيء من القسوة ، ومن ذلك أننا كنا نشاهد حصة معاينة لمعالجة كتابة الإنشاء composition في الصف الرابع في مدرسة الدويم الريفية الوسطى يدرسها مدرس الفصل في تلك المدرسة ، وكانت حصة الإنشاء مزدوجة يناقش المدرس في الحصة الأولى الموضوع وعناصره مع التلاميذ شفويا ويشرح الكلمات الصعبة ثم يكتب التلاميذ الموضوع

في الحصة التي تليها وخلط المدرس في تبيان كلمتي Sink و Drown ، فصاح فيه مستر برايت من آخر الفصل قائلا Don't spoil our language لا تفسد لغتنا ، وكنا ولفيف من مدرسي المعهد نجلس في المدرجات في نهاية الفصل . وكان في شعبة الجغرافيا الأستاذ متوكل احمد أمين ومستر ماكبين الذي هددنا بأنه سيرسبنا لأننا تقاعسنا في عمل مشروع أعطاه لنا ، وكان في شعبة التاريخ الأساتذة رحمة الله عبد الله ومحمد خوجلي ومندور المهدي ، وكان في شعبة العلوم الأستاذ احمد محمد سعد وفي الرياضيات المستر هوبسون وفي المناشط كان الطاهر شبيكة في المسرح ، وفي الفنون مستر كولستوك والذي كان يحيي كل من يلقاه بقوله ((أهلا وسهلا)) ولو كان الواحد علي بعد ميل ، وفي التربية البدنية مستر وليامز وبدر الدين عبد الرحيم وعبد الحميد الجمل ، ومستر وليامز هذا إنجليزي الأب مصري ألام ولكنه لا يتحدث إلا الإنجليزية وكان يجعلنا نكرر الحركة الواحدة عديد المرات حتى نتقنها تماما ثم ينتقل إلى الحركة التي تليها ، وفي أول عهده بالمعهد كان لديه حصة مع طلبة مبروكة - معهد تدريس مدرسي المرحلة الأولية - وأجهدهم وبلغ منهم التعب والضيق مبلغا عظيما فقال أحد الطلبة: (الخواجة ابن الكلب ده عايز يموتنا ولا شنو) ، فرد عليه مستر وليلمز بعربية فصيحة بلهجة مصرية (أولا أنا مش ابن كلب ، ثانيا انت ابن ستين كلب . ده أنا أضربك واضرب معاك مبروكة كلها) وبهت الطالب ومعه كل الفصل ، وكان يعلمنا القفز والغطس في الحوض وبعد الشرح النظري كان التطبيق العملي ، وشاء حظي أن أكون أول من يقفز واعتليت ال Board (عارضة القفز) العليا كأمره وهو يصيح

في بالعربية (شد نفسك، عينك علي أبو حبيلة (حبيرة)) وكان ينطق الراء لاما وأبو حبيرة هذه قرية في الجانب الآخر من النهر ومن حوض السباحة، ثم امرني بالقفز وقفزت وبدلا من ادخل الماء برأسي ضربت الماء ببطني وشعرت كأن بطني تتمزق ، وتحاملت علي نفسي من الألم وسبحت إلى طرف الحوض وكاد أن يغمي علي . وكان هناك بدر الدين عبد الرحيم في الشعبة والذي كان متفوقا في الأداء علي أجهزة المتوازيين والعقلة والمصارعة والملاكمة وقد دربنا عليها جميعا . أما عبد الحميد الجمل فقد أعطانا دروسا في التنس وكرة السلة والفولي بول وكرة القاعدة وقوانين كرة القدم والعاب القوي . وكانت منطقة ال Pool (حوض السباحة) كلها مساحات مخضرة بالنجيلة وبها ملاعب لجميع الألعاب من تنس وكرة سلة وطائرة وكانت تموج بالنشاط في العصريات وكانت تغشاها عائلات المدرسين وزوارهم من الدويم للفسحة والترويح عن النفس . أما التربية الإسلامية فكان علي رأسها شيخ الجيلي ، وبذكر الشيوخ كان إمام مسجد المعهد أحد الشيوخ من المدرسين وكان مغرما بلعبة الكنكان المعروفة في لعب الورق ، وفي صلاة الجمعة اعتلي الشيخ المنبر ، وبعد حمد الله والثناء عليه ادخل يده في جيبه ليخرج الخطبة المكتوبة وإذا به يخرج كرت الجوكر – يعني توجد شبهة غش مولانا في اللعب – ولكن مولانا ببديهة حاضرة وسريعة امسك بالجوكر ورفعه عاليا وجعل موضوع الخطبة عن الميسر وحرمته ومضاره . وكانت هناك حصص المعاينات التي يتعين علي كل واحد منا أن يعدها ويدرسها في أحد مدارس المعهد علي أعين زملاء الدفعة وأساتذة المعهد وربما يحضرها العميد ، فكانت بحق اختبارا صعبا ، فالعيون

مركزة علي الواحد وكل واحد من الحضور ممسك بنوتة وقلم ليسجل ما يبدر من المدرس منذ دخوله الفصل وإلقاء التحية علي التلاميذ الي انتهاء الحصة بقرع الجرس وكان يتبع حصة المعاينة مباشرة حصة لمناقشة أداء المدرس وتقويم الحصة. ومن طريف ما حدث أن أحد زملائنا كان يدرس حصة معاينة جغرافيا وكان موضوع الدرس اليونان ، وذكر محاصيل القطر الزراعية ولما وصل الي العنب سأل التلاميذ (يا أولاد انتو عارفين العنب ده بيصنعوا منه شنو ، ده بيعملوا منه الخمرة حمانا الله – الخمرة دي بطالة ورجس من عمل الشيطان) وكدنا في مؤخرة الفصل نقهقه بضحكنا المكتوم لان صاحبنا كان من عشاق بنت الحان والباذل من اجلها الكثير.
وقصدت أن يكون حديثي أخيرا عن الأستاذ عبد الحليم علي طه وكان مراقب كلية المعلمين الوسطي وعن المستر هودجكن عميد المعهد ، والأول كانت له معنا حصة واحدة في الأسبوع : ويدخل ويجلس ويخرج نظارته ويمسحها ويلبسها ثم يخلعها ويلبسها ثانية ويفعل ذلك عدة مرات ، ويتنحنح ثم يتكلم بأسلوبه الشيق الساخر اللاذع عما اجترحه البعض منا من حماقات صغيرة خلال الأسبوع ومن ذلك قوله (الواحد فيكم يجي نص الليل جاري ساكنو صعاليك الدويم ولما يصل جوه بخت الرضا يشعر بأنه at home ويشعر بالأمان ويقوم يغني بصوت عالي ويزعج النايمين) وبرغم ذلك كنا نجد متعة خالصة في حصصه ، ولا انسي الرجل المهذب الهادئ حسن احمد يوسف وكانت له حصة واحدة معنا تسمي (تدريب الأخلاق) Character training.

أما المستر هودجكن فانه كان يأسر المرء ببساطته وتواضعه ولطفه وعلمه ، وكان يزورنا في نادينا ويجلس ويتجاذب معنا أطراف الحديث وكأنه واحد منا . وذات مرة كنا في الجمنيزيم (صالة الألعاب) ، وكنا نؤدي حركة جمباز أرضية صعبة ، وجاء مستر هودجكن وبدون مقدمات أدى الحركة بطريقة أدهشتنا جميعا وهو ما هو في أواخر الخمسينات من عمره ، وفاتني أن اذكر انه فقد جميع (عُقَل) أصابع يديه عندما تجمدت وانفصلت من الصقيع عندما كان يتسلق قمة جبل افرست ولم يتبق إلا الإبهام في كل يد ومع ذلك كان خطه جميلا ، وهذا الرجل بعد سودنة وظائف البريطانيين عند الاستقلال تبرع بمكافأته عن خدمته للسودان ، واذكر انه بعد الاستقلال جمعت الحكومة من الشعب تبرعات أسموها مال الفداء لتعويض ومكافأة المستخدمين الإنجليز الذين انهوا خدماتهم وحل محلهم سودانيون .

و يحلو لي في ذكري تلك الأيام العذبة أن اذكر زميلا لنا في الدفعة الرابعة سيكون له شأن عظيم فيما بعد وهو الأخ الطيب محمد صالح الذي شرُفت الرواية العربية به بل شّرف الأدب السوداني وشرُف السودان به، واذكر عنه انه كان كما يقول الإنجليز Gentleman هادئ الطبع ، وودود ، سمح النفس ، عميق الصوت في موسيقية محببة أهلته فيما بعد لان يكون المع مذيع في ال BBC هيئة الإذاعة البريطانية ، وكان كثير الاطلاع ، وكان متدينا في غير غلو أو مراء ولم يكن يشاركنا حماقاتنا ومشاويرنا الليلية الي الدويم .

و كنا في فترة الاستراحة بين المحاضرة والتي تليها نقضي الوقت

في الراكوبة الشهيرة الملحقة بمبني الكلية نشرب فيها الشاي والقهوة وصاحب القهوة هو العم محمد والذي ظل يديرها منذ إنشاء الكلية وعاصر جميع الكورسات ويتذكر أسماء معظم المتدربين السابقين، وكنا في هذه الفسحة نتحلق حول زميلنا عصام والذي أعطيناه لقب العميد لانه كان الأكبر سنا في الدفعة وربما كان في منتصف الأربعينات من العمر، وطوف في الدنيا وذهب الي عدن والحبشة وعمل موظفا هناك وهو شخصية لطيفة ودود خالي القلب من الهم، ضاحكاً أبداً ، واستقر به التطواف أخيراً في مهنة التدريس وكان يسرد علينا كل يوم جزءاً من مشاهداته ومغامراته وكنت أقدمه كل يوم قائلاً مثلاً نقدم لكم اليوم الحلقة العشرون من مغامرات العميد عصام في غابر الأيام ، وكانت حكاياته شيقة تشدنا إليها كحكايات ألف ليلة وليلة أو رحلات السندباد .. وكانت سكناي في بادئ الأمر في بيت مع ثلاثة من الزملاء ، وكان زميلي في الحجرة الأخ عبد الحميد من عائلة الضرير المشهورة في أمدرمان ، وكان شاباً فاضلاً متديناً جاداً في التحصيل مما أهله ليكون أول الدفعة في الرياضيات واللغة العربية ، وأبتلى بداء الأزمة الشعبية فكانت لديه بخاخة يبخ بها حلقه عندما تداهمه نوبة الأزمة مراراً أثناء الليل ، وكان ينجدني عند حاجتي لاقتراض نقود فهو ليس مثلنا ينفق نقوده في تدخين أو شراب أو غيره .. أما الزميلان الآخران فهما من أبناء الشمالية ، أحدهما فيه شيء من غرابة الأطوار يتمثل في بعض التصرفات ، ولديه عصا قصيرة (دقلة) يحملها وأطلق عليها أسم المريخ وهذا الاسم أطلقناه عليه وصرنا نناديه به فهو يهتاج أحياناً دون سبب ظاهر ويضرب تربيزة المائدة (بالمريخ) عدة ضربات ولكنه لا يؤذي أحداً ، أما الزميل الآخر

فأنه كان طويلاً ضخماً ذو كرش أحمر اللون (حمريطى) كما نقول وكان مهزاراً مهرجاً خفيف الظل وكان يتولى طهى الطعام لنا وهو ماهر في الطهى ، وكان ماهراً أيضاً في الدراسة .. ومن دعاباته السمجة أنه كان بعد أن نتهيأ للنوم يصدر أصواتاً كصوت النساء في الفراش (يتجلع) ، ونسبه وننهاه وهو يضحك .. وارتحلنا من المنزل إلى داخلية واسعة وكان رفيق الحجرة متدرب قبطي من عطبرة وكان شاباً مهذباً هادئاً بشوشاً ، وكان عددنا في الداخلية ثلاثة عشر متدرباً ننتظم جميعاً في ما نسميه (ميز) ، أي نتشارك في نفقات المعيشة فيدفع كل واحد منا نصيبه في الأكل والشراب شهرياً إضافة إلى أجر الطباخ والخادم لغسيل وكي الملابس والنظافة وكان يتولى رئاسة الميز واحد منا ، وكان رئيس الميز زميل من أمدرمان أحمر ضخم الجثة يغطى وجهه شارب كثيف حتى أننا كنا نناديه باب شنب وكانت هناك حجرة صغيرة في مدخل الداخلية كان يشغلها وكان لا يشارك أحداً في الحجرة لأنه كان ينام عرياناً كما خلقته أمه ، وكان شخصية محبوبة ، وكان من المتزوجين كبعض أبناء الدفعة وله أبناء ، وكان لديه موترسايكل يسافر به أخر الأسبوع إلى أمدرمان وهى رحلة تستغرق نحو أربع أو خمس ساعات .. وكان حريصاً جداً في الإنفاق والاقتصاد و(قرّط) علينا في المعيشة وإفطارنا ، وعشاءنا لا يخرج من العدس والفول رغم احتجاجاتنا القوية وانقلبنا عليه في ثورة مضرية وأقلناه من رئاسة الميز ، وكنا قد صرنا مادة للسخرية من الميزات الأخرى ومن تندرهم كانوا يقولون عن ميزنا أنه توضع في الصحن قطعة لحم واحدة وتكون في كل يوم من نصيب واحد من الميز .. وعلى النقيض من صاحبنا الرئيس المخلوع كان رئيس

ميز آخر مغاير تماماً ، فإنه (بهلها) ، وكان يحضر أطايب الطعام ومعها زجاجة كونياك مارتل فاخرة ، والصحاب يأكلون ويشربون ولا يسألون ، ولما جاءهم حساب الميز في أول الشهر وكان عشر جنيهات للواحد (راحت السكرة وجاءت الفكرة) وأعلنوها ثورة غاضبة أطاحوا فيها برئيس الميز وكان نصيب الفرد في الميزات لا يتجاوز الخمس جنيهات .. ومن الشخصيات التي ارتبطت ببخت الرضا منذ البداية الحلاق محمد وهو يمتلك دكانا للحلاقة في مدينة الدويم يعمل فيه بالنهار ويأتي في المساء ليعمل في دكانه ببخت الرضا وقد تأثر بجو العلم هنا مما انعكس على حديثه واستخدامه كلمات عربية كبيرة ولا يخلو حديثه من تفلسف وهو ككل الحلاقين لا ينجو من خصلة الثرثرة _ لا أدرى لماذا _ وهم يتحدثون فى كل موضوع من الرياضة والفن والسياسية ، ولكن عم محمد الحلاق كان ينهمك في الثرثرة اكثر من انهماكه في الحلاقة ، وكان يحلق بطريقة مسرحية _ إن صح التعبير _ تبث الرعب في من سلمه رأسه للمرة الأولى فإنه كان يمسك بالمقص ويتمعن في رأس الزبون ثم يتراجع إلى الخلف ويجئ مندفعاً شاهراً مقصه كالسيف ثم ينقض على الرأس ليقص عدة شعيرات ويكرر هذا الكر والفر عن يمين وشمال والوراء ولسانه لا يسكت عن الكلام ! ومن إحدى حكاياته التي لا تنضب انه كان راجعا من بخت الرضا ليلاً في طريقه للدويم في طريقه إلى منزله ممتطياً حماره وكانت السماء مثقلة بالغيوم السوداء والليلة حالكة السواد ، واخذ المطر في الهطول ، وقال إن الحمار توقف فجأة وحرن وتحير في أمره ولكن عرف السبب لما رأى أمامه ثعباناً ، وسأله الزبون عن كيفية رؤيته للثعبان في الظلام

الأسود ، ورفع الحلاق المقص عالياً وقال بنبرة مسرحية (ظهر برق) فرأيت الثعبان .. ومن الشخصيات الطريفة زميل لنا أسود اللون لا يميل كثيراً للاختلاط بالآخرين وكان يكثر من الاستحمام في اليوم الواحد مرة واثنان وثلاث وأربع كنصاب الزواج من النساء ، وخلته يريد أن يبيض جلده الأسود ولكن ربما يعاني من فوبيا Phobia النظافة إن كان هناك شئ كهذا .. ولا يفوتني أن أذكر الأخ قاسبرى خميس ريدى وهو أول مدرس متدرب من جنوب السودان جاء إلى كلية المعلمين الوسطى وجاء ومعه زوجته وأعطى منزلاً لسكنه ، وكان نافراً متحفظاً في أول أمره وكان لا يخلع الصليب من عنقه ولعله أتى بفكرة سيئة عن الشماليين ولكنه بعد حين بعشرتنا ومعاملتنا ذاب الجليد وصار واحداً منا وكان العمل في بخت الرضا يتميز بالجدية والنظام والإتقان وترى الكل يعملون بهمة ونشاط كالنحل في الخلية أثناء ساعات العمل ، وبعد العصر تعج منطقة ال Pool _ البركة بالأنشطة الرياضية ، وفي المساء تعمر الأندية المختلفة بروادها حيث ألعاب الورق المختلفة والطاولة والضمنة وألعاب أخرى للتسلية إضافة إلى حجرة القراءة في كل نادى ونجد فيها الصحف بالإضافة إلى تنس الطاولة ، وتنظم محاضرات ثقافية أو ليالي شعرية وادبية من حين لآخر بنادي السنتين واذكر أن الدكتور عبد الله الطيب قدم لنا في عدة محاضرات كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، واذكر أيضاً محاضرة قدمتها السيدة جنة زوجة الأستاذ متوكل أحمد أمين وهى إنجليزية مسلمة من أصل هندي وحاضرتنا عن الإسلام في إنجلترا ومما علق بذهني أنها عند حضورها الي السودان بالقطار من حلفا أثار عجبها واستنكارها تقديم الخمور في

الباخرة والقطار ، وكانت تعتقد أن السودان كبلد إسلامي لا تقدم فيه الخمر علناً .

و كانت رسالة بخت الرضا ممتدة الي ما بعد تخريج متدربيها وذلك بمتابعتهم أينما كانوا بالسودان بإمدادهم بالنشرات التربوية وبالجديد في ميدان التعليم ، وبمتابعتهم ميدانيا بذهاب رؤساء شعب المواد المختلفة الي حواضر السودان وزيارة مدارسها والعاملين فيها من خريجي بخت الرضا ومعاينة أداءهم ، كما كان في المعهد بعد كورسات تجديدية Refresher Courses لقدامى الخريجين يفدون فيها الي المعهد لعدة أسابيع ، ولذلك كان خريجو المعهد دوما مواكبين الجديد في حقل التعليم والتربية ولا (تتحنط) معرفتهم عند الذي تلقوه في المعهد خلال تدريبهم.. وقد أتاحت لنا هذه الكورسات لقاء ومعرفة الكثير من قدامي المعلمين من أنحاء السودان .

و كُرست الأشهر الست الأخيرة لنا في المعهد لدراسة فنون وطرق التعليم نظريا والتطبيق عمليا بتدريسنا في مدارس المعهد والدويم، وانضم الي الدفعة في هذه الفترة سبعة مدرسين من خريجي كلية الآداب بالمدارس العليا (جامعة الخرطوم فيما بعد) ، ليعملوا فيما بعد بالمدارس الثانوية أو لتدريس الصف الرابع بالمدارس الوسطي قبل التحاقهم بالمرحلة الثانوية ، كما كان المتميزون من كلية المعلمين الوسطي يدرسون بالمدارس الثانوية . وانقضت فترة التدريب ببخت الرضا كسحابات حبلي بالماء روت ارض معرفتنا المجدبة فانبتت قمحاً وزهراً ووروداً ، ورسخت أقدامنا وطولت قاماتنا علي ارض التعليم، وأرسلونا الي مدارس مختارة في العاصمة في الخرطوم وأمدرمان

والخرطوم بحري لنكمل تدريبنا بها لمدة شهر وبعدها يحصل الناجحون علي شهاداتهم ويعتمدون كمدرسين .. وحان وقت الفراق وشعرت بانقباض في صدري وحزن تخلل شغاف قلبي وتمثلت قول الشاعر

خلقت الوفاً لو رجعت الي الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

واخترت أن اكمل تدريبي بمدرستي التي جئت منها وهي الأحفاد وعدت إليها ولكن وجدتها قد انتقلت الي مبانيها الجديدة بحي العرضة غرب أمدرمان وبجوارها ثانوية الأحفاد بشارع العرضة الرئيسي ، وصار مبني المدرسة القديم بشارع الموردة مدرسة الأحفاد الوسطي للبنات . ولتشييد هذه المباني الجديدة قصة خليق بها أن تروي فقد بنيت بمال الشعب وقد جاب الشيخ الجليل بابكر بدري السودان مدنه وقراه بالسيارة وهو في سنه تلك المتقدمة ولعله كان قد شارف التسعين من العمر جامعا للمال والتبرعات من بيع كتابه (قصة حياتي) المكون من جزئين ، فضرب مثلا رائعا لسمو الهمة وعلو المقصد ومثلا للتحمل والصبر للشباب ، ولا عجب فقد انشأ الشعب بعطائه المدرسة الأهلية الشهيرة بامدرمان ومعهد القرش في البداية وتمم مؤتمر الخريجين هذا الصنيع فيما بعد بفتحه مئات المدارس في السودان في عهد الاستعمار .

خصص لي ناظر المدرسة ، ناظري وأستاذي القديم عندما كنت طالبا في نفس المدرسة إبراهيم إدريس جدولا للحصص في الصف الأول

لمادة الإنجليزي والصف الثاني والثالث لمادة الجغرافيا ، وزارني وحضر معي بعض الحصص رئيس شعبة الجغرافيا المستر ماكبين ومستر درم من شعبة اللغة الإنجليزية والذي قال للناظر أمامي أنني أقود الفصل مثل المايسترو في قيادة الأوركسترا مبديا إعجابه وسألني ماذا اطلب ليحققه وارتج عليّ وشكرته فحسب . وبعد انقضاء الشهر في التدريب جمعت الدفعة كلها في مدرسة أمدرمان الأميرية بحضور رؤساء الشعب لإعلان النتيجة النهائية وتأهيلنا رسميا كمدرسين ، وكان الراسبون يفصلون ولا تمنح لهم فرصة أخرى للإعادة أو عمل ملحق لهم ، وللأسف فصل اثنان من الدفعة واثنان من المتدربين خريجي المدارس العليا وقد رسبا في الطريقة ويعتقد أن أحدهما رسبوه عن قصد لانه كان شيوعيا ، ورب ضارة نافعة فانهما التحقا بوزارة المالية كمفتشين وتوليا ارفع المناصب بينما كان زملاؤهم من المدرسين ((يتسكعون)) في السلم الوظيفي التعليمي ، وهكذا المعلمون يتواتر عليهم الظلم ، ولكن هذا موضوع آخر ، واما واحد من مفصولي الدفعة فقد التحق بمصلحة الجوازات ووصل فيها إلى مرتبة عالية وظيفياً والثاني التحق بأحد المدارس الأهلية التجارية. ونجحت وأصبحت معلماً وكتب أسمى بالحبر في سجل المدرسين، لأنهم أخبرونا عندما التحقنا بالتدريس أن أسمائنا مكتوبة بقلم الرصاص ونحن تحت التمرين ولا يعترف بنا كمعلمين حتى يتم تدريبنا ونجاحنا . ودخلت إلى مكتب المدرسين بمدرسة الأحفاد هذه المرة بخطى واثقة وثقة في النفس متسلحاً بمعرفة مقدرة في فنون التعليم وشؤون التربية ووجدت الطاولة العتيقة ذات الأدراج والتي انتقلت من المبنى القديم إلى المبنى الحديث كأثر من الماضي ولكنها أثر معمور واتخذت لي

موضعاً منها ولكن إلى حين فقد انتقلت إلى مكتب صغير تقاسمته مع الشيخ سليمان عبد الماجد وهو شيخ من خريجي المعهد العلمي وفي المعاش وهو رجل كما نقول (صباح خير) فيه من الفضل كثير خفيف على النفس والقلب معاً وهو من عائلة مشهورة بالفقه والصلاح في أمدرمان ، وسرعان ما تم الانسجام بيننا ولم أجد جديداً قد تغير في السياسة التي اختطها الشيخ الجليل بابكر بدري وسار علي نهجها ابنه العميد يوسف بدري وهي تعيين الشيوخ المتقاعدين الأكفاء لتدريس اللغة العربية والدين وهؤلاء الي جانب علمهم وخبرتهم الثرة كانوا ينافسوننا نحن الشباب في النشاط والبذل واذكر علي سبيل المثال من هؤلاء الشيخ النوراني والشيخ سليمان عبد الماجد والشيخ محمد إبراهيم مدني رحمهم الله واحسن إليهم، ومن السياسة الرشيدة للشيخ الجليل انه كان يوظف في مدارسه المفصولين من المدرسين من وزارة المعارف لنشاطهم السياسي الوطني عندما كان الاستعمار في أوج جبروته واذكر من هؤلاء أساتذتي المعلم عبد الرحيم الأمين والذي فصل من مدرسة وادي سيدنا الثانوية ، واحمد عبد الله المغربي وزميلي محمد الحبيب مدثر واحمد محجوب شورة وكلهم كانوا من خيرة المعلمين ، ومن سياسة الشيخ الرشيدة انه كان يوظف شباب المحامين المتخرجين من مصر الي أن يتأهلوا لمزاولة المحاماة ولقد ذكرت أسماء بعضا منهم فيما سبق من صفحات ، ومن سياسته أيضا قبول أبناء الفقراء مجانا أو بمصروفات مخفضة مع إن المصروفات لم يكن مبالغا فيها .. وكان الشيخ بابكر رأي في تدريس العلوم وهي طريقة الحفظ ونظم المادة شعراً كما في ألفية ابن مالك في تدريس قواعد اللغة العربية وقد ألف الشيخ منظومة خاصة به لتدريس النحو

والزم بعض الشيوخ بحفظها وكان يجمعهم كل يوم ليسمع لهم ما كلفهم به من أبيات للحفظ ، وكانت تلك عملية شاقة علي هؤلاء الشيوخ – أكل العيش مر – فكان شيخ (ع) يكتب الأبيات في باطن كفه يعني يجعلها (بخرة) كما نسميها ، ويجتاز اختبار التسميع اليومي بهذه الطريقة ! واستدعاني الشيخ بابكر أنا وزميلي محمد الحبيب مدثر _ رحمه الله _ وكنا نحن الاثنين ندرس الجغرافيا في المدرسة ، واخبرنا الشيخ بأنه نظم دروس الجغرافيا وطلب منا أن ندرسها على هذا النحو وتكلمت أنا وتكلم حبيب بأننا درسنا أحدث طريقة لتدريس الجغرافيا في بخت الرضا ولها كتب وخرائط وإن الجغرافيا لا يمكن أن تدرس بهذه الطريقة ، وكانت ردة فعل الشيخ عنيفة وقال لنا أن بخت الرضا إنجليزية وأننا لسنا إنجليزاً وأصر على تدريس الجغرافيا بطريقته ، وسكتنا على غير اقتناع ، وخرجنا من عنده واختلينا مع بعضنا نتفاكر في كيفية مقابلة هذه المصيبة التي حطت علينا ، وقد كان هذا الاجتماع قبل بدء العام الدراسي الجديد بأيام . ولكن إنتقل الشيخ إلى رحمة الله في نفس اليوم _ رحمه الله رحمة واسعة _ ونجانا الله من منظومة ابن بدرى في تدريس الجغرافيا ! ومع الطاولة العتيقة بقيت الكنبة القديمة في المكتب الجديد وهذه يشغلها بصفة دائمة أستاذنا القديم سيد أحمد والذي ما فتئ يفاجئنا بأشياء لطيفة ومنها أنه يطلب منا في كل يوم أن يدفع الواحد مبلغ قرشين ، وهذا في أيام الصيف القائظة ، ويرسل الفراش ليشترى ليمون وسكر وثلج ويصنع لنا شربات يملأ به زير الماء الصغير ونشرب شربات مثلجاً بالكوز طيلة النهار.

ومن ألطف من صادفت من الشيوخ الشيخ محمد وكان فوق الستين من العمر ولكنه يتمتع بصحة جيدة ولياقة بدنية عالية وقد توطدت بيننا صداقة برغم فارق السن الكبير بيننا ، ولكن كان يميز شيخ محمد (سقطة) لا إرادية في النوم في أوضاع عجيبة فمرة ينام ممسكاً بالقلم الأحمر وهو يصحح الكراسات ، وتارة ينام وهو ممسكاً بصحيفة أو كتاب يتصفحه وفي أحد المرات وهو في الفصل يلقى درسه وكان عن الأسماء الخمسة دخل عليه شيخ بابكر بدرى وكانت عادته أن يمر على فصول المدرسة وراق له موضوع الدرس وطلب من شيخ محمد أن يتنحى ليقوم هو بتدريس الموضوع وجلس شيخ محمد جانباً على الكرسي ولم تمض دقائق وإلا وقع الشيخ في نومة من نوماته المعهودة ولكنه انتبه وصحا فزعاً وأراد أن يشعر شيخ بابكر بأنه متابع للدرس ، وخاطب التلاميذ قائلاً ((اها يا أولاد فهمتو الأفعال الخمسة)) ورد عليه شيخ بابكر بقوله ((لكن يا شيخ محمد هي الاسماء الخمسة)) وخاطبه الشيخ محمد بقوله بانزعاج ((عليك الرسول ؟)) ، ومن يومها أطلقنا عليه هذه المقولة !

وصديقي الشيخ محمد رقيق الإحساس مولع بالجمال وكنت بعد انتهاء العمل أسير معه راجلاً إلى أن ابلغه منزله في حى العباسية ومن هناك استقل دراجتي إلى منزلنا بحى الموردة ، وكان انتهاء اليوم الدراسي يتزامن مع انتهاء الدراسة في مدارس البنات ، فكانت ارتال الطالبات يسرن في الشارع إلى منازلهن ، فكان شيخ محمد يلكزني قائلاً ((يا هلال شوف لى ديك)) أو ((يا هلال عاين لى ديك))، وذلك عندما يستدعى انتباهه بنتاً جميلة ..

وانقضت فترة عملي أو بالأحرى حقبة من حياتي في مدارس الأحفاد بانضمامنا نحن مدرسي الأهليات إلى الخدمة الحكومية بعد الإضراب الشهير في ١٩٥٥ م الذي دخل فيه كل معلمي المدارس الأهلية في السودان من أجل ضمنا للخدمة الحكومية حتى نضمن لأنفسنا وأبنائنا معاشاً بعد تقاعدنا لأن الخدمة في المدارس الأهلية بغير معاش ولابد هنا من وقفة عند ذلك الإضراب الشهير الذي كان معلما تاريخيا غيّر حياة المعلمين ، فقد طالبت نقابتنا بضمنا الي خدمة الحكومة وطالت المفاوضات والمماطلة وفي اجتماع مشهود لكل معلمي العاصمة بالمدرسة الأهلية بامدرمان اتخذنا قرارا بالإضراب عن العمل الي أن تستجيب الوزارة لمطلبنا ، وعارض الإضراب أربعة فقط من المعلمين وثلاثة منهم لم يلتزموا بالإضراب بينما قدم واحد استقالته من النقابة ومن ثم لم يضرب . وكان اكبر تجمع لمدرسي الاهليات بامدرمان والخرطوم والخرطوم بحري تليه مدني والجزيرة وكان يتم الاتصال بهم عن طريق التلفون ، ونجح الإضراب مائة بالمائة عدا الفرسان الأربعة الذين لم يضربوا ، وكنا قد اتفقنا علي أن نجتمع في كل يوم من أيام الإضراب في مواقيت العمل من الصباح وإلى انتهاء اليوم الدراسي بالمدرسة الأهلية بأمدرمان ، ولخوفنا من أن يزاول بعض المدرسين الذين كنا لا نطمئن إلى صمودهم أوكلنا بكل واجد منهم مدرساً يذهب إلى منزله في الصباح الباكر ويصحبه إلى مقر التجمع بالمدرسة الأهلية ووكلت بزميل شيخ يسكن في حى بيت المال وكنت اركب دراجتي من حى الموردة واطرق عليه داره في الساعة السادسة صباحاً واصحبه من هناك إلى المدرسة ، واستمر الإضراب نحو أسبوعين ونجح نجاحا باهراً في جميع أنحاء السودان ووجدنا

تأييداً من الرأي العام وانهينا الإضراب نهاية سعيدة بأن قبلت الوزارة ضمنا إلى الخدمة الحكومية .

وكذلك انضمت معظم المدارس الأهلية إلى الحكومة ، وانتقلت من الأحفاد إلى مدرسة ودنوباوى الأهلية الوسطى والتي ضمت إلى وزارة التربية والتعليم ، وانتقل من المدرسة الأهلية بأمدرمان ناظراً للمدرسة الأستاذ مبارك بابكر من قدامى المعلمين وصرت أنا ضابطا للمدرسة ونائباً للناظر وكان الأستاذ مبارك رجلاً فاضلاً ظريفاً له ولع بفريق الهلال الرياضي إلى درجة الهوس وكان من أقطاب هذا النادي الشهير ، وترك لى مقاليد المدرسة أديرها كما أشاء وقبل أن استرسل أود أن أذكر أنني بعد أن أكملت تدريبي وتخرجي في كلية المعلمين الوسطى ترقيت إلى درجة جى أتش JH وكنت قبلها في الدرجة J وهى الدرجة التي يعين عليها كل خريجي الثانوي براتب شهري قدرة سبعة جنيهات زائداً علاوة غلاء سبعة جنيهات أيضاً وقد كانت هذه العلاوة تتغير من حين إلى آخر حسب ارتفاع تكاليف المعيشة ويحسبون ذلك بنقاط تعلو وتنخفض ويعلن عن ذلك في كل الصحف اليومية وازداد راتبي تبعاً للترقية إلى ثمانية عشر جنيهاً في الشهر زائداً علاوة الغلاء التي تتراوح بين خمسة عشر إلى ثمانية عشر جنيهاً في الشهر أي تكون جملة الراتب أكثر من ثلاثين جنيهاً وكان هذا راتب محترم في ذلك الوقت نسبة لقوة الجنيه الشرائية ورخص المعيشة ويكفى أن أذكر أن مهر العروس كان يتراوح من خمسين إلى مائة جنيهاً ، وكانت للمليم قيمة شرائية فيمكن أن نعطيها للطفل ليشترى بها فول مدمس أو حلوى أو تسالي أو تمر وكان الجنيه

يتكون من مائة قرش وألف مليماً !

و لنعد الي مدرسة ودنوباوي الوسطي الأهلية والتي صارت حكومية الآن فكانت تقع على شارع الدومة الشهير بحي ودنوباوي في بيت عتيق مبني من الطين اللبن كثير الحجرات الواسعة وبه حوش واسع وكان أصلاً للسيدة والدة السيد عبد الرحمن المهدى . ووهبوه ليكون مقراً للمدرسة الأهلية الوسطى ، ومن الطريف أن حجرة الناظر كانت مطبخاً وحجرة مكتبي كانت (أوضة) للحمام ! ولكن أجرى على المنزل تصليحات وتحسينات ، ونقلت المدرسة بعد ذلك إلى مباني مدرسة أمدرمان الأميرية الوسطى ثم انتقلت إلى مبنى شيد لها في شمال أمدرمان بالقرب من معهد المعلمين العالي .. ولقيت المدرسة في حالة من انفلات النظام فعملت أول ما عملت على توطيد النظام وربما استخدمت في ذلك بعض القسوة، فقد كان التلاميذ في الفصول في فسحة الخمس دقائق بين الحصة والأخرى يصيحون ويهرجون ويسببون إزعاجاً شديداً ، فكنت أعاقب كل الفصل بالجلد إذا لم يدلوني على المتسببين في الإزعاج ، وكنت في طابور الصباح أتفقد النظافة الشخصية لكل تلميذ في ملابسه الداخلية وجلبابه وعمامته وأسنانه وأظافر يديه وكانت هذه العملية تتم مرتين في الأسبوع في يومي السبت والثلاثاء ، كما كنت احرص على أن يكون كل مدرس في فصله عند بدء الحصة ، وجدير بالذكر أنه كان بالمدرسة ثمان فصول أي مدرسة ذات نهرين .. وبتعضيد من الناظر أثمر هذا الجهد فصارت المدرسة منتظمة في كل شيء .. وقضيت عاماً بها ..

في أبقيق

وكان أن اطلعت على إعلان في الصحف عن طلب معلمين للعمل مع شركة ارامكو للزيت في المملكة العربية السعودية بمرتبات عالية وكان للشركة مكتب للاستخدام بالخرطوم ، وقدمت طلبي للعمل ومعي زميل الدراسة وصديقي حسن العبد ، وقبلنا ومعنا مدرسان آخران ، واستقلنا من الوزارة وسافرنا إلى المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية حيث مقر الشركة وآبار النفط في السعودية وكان أن جاء مندوب أمريكي من الشركة واجري لنا معاينة وعيننا بعدها للعمل في منطقة أبقيق ، وهى واحدة من ثلاث مناطق تشكل الشركة وهى الظهران وبها رئاسة الشركة الإدارية ومدينة راس تنورة وبها ميناء تصدير الزيت وأبقيق وبها آبار الزيت ، وللشركة في كل من هذه المناطق مركز تعليمي Training Centre ، ويخصص لعمال وموظفي الشركة ساعتان أثناء العمل للدراسة في المركز وبعد الخامسة مساء يحضرون للمركز في أوقات فراغهم بعد انقضاء ساعات العمل وكان المركز يعمل إلى التاسعة مساءً وكانوا يدرسون في المركز اللغة العربية واللغة الإنجليزية والحساب والآلة الكاتبة ، وكان العميد ونائبه في كل مركز أمريكان والمدرسون من الأمريكان والسودانيين واللبنانيين ، وكنا نحن من أوائل المدرسين السودانيين العاملين بالشركة ووجدنا في أبقيق مدرس سوداني سبقنا جميعاً وهو الأستاذ بابكر الشيخ عبد الرحمن وكان لنا نعم العون في تلمس موقع أقدامنا في المكان والعمل الجديدين وكنا نسميه عمدة السودانيين وكان هناك أيضاً اثنان من الموظفين السودانيين وفي بداية

عمل الشركة كانت تعج بالسودانيين من العمال والموظفين واستعيض عنهم فيما بعد بالعمالة السعودية ولما كان هؤلاء من البدو الأميين أنشأت الشركة هذه المراكز لتعليمهم وتأهيلهم أثناء الخدمة وكان العمل في الشركة يبدأ في الثامنة صباحاً وحتى الخامسة مساءً تتخللها فترة ساعة في الثانية عشرة ظهراً لتناول الغداء ويستمر العمل بالمركز حتى التاسعة مساءً ، ويحسب العمل بعد الخامسة عملاً إضافياً بأجر overtime ، وكان نصاب كل مدرس ست حصص في اليوم زائداً حصة أو أكثر إضافية لمن يرغب ، واكتفيت وزملائي السودانيين بحصة واحدة إضافية لأنه بعد تدريس الحصص الست كنت أشعر بتعب وإرهاق ، وبخاصة أن طلبتنا كانوا بطيئي الفهم بشكل مزعج وكنت في بعض الأوقات ألعن اليوم الذي أمسكت فيه بالطباشيرة أي اتخاذي التعليم مهنة ! ومن الأشياء المؤسفة والتي تثير غضب الواحد أن هؤلاء الطلبة الراشدين يتصرفون كالأطفال من التحدث ومشاغلتهم بعضهم البعض أثناء الدرس عندما تدير لهم ظهرك لتكتب على السبورة وفي أول حصة لي ادرسها وأنا أكتب على السبورة سمعت ضجة وضحك ، وألتفت ووجدتهم (يهمزون) بعضهم ويتضاحكون ، (والهمز) هذا لدينا نحن السودانيين لا يجوز إلا مع النساء، وثرت فيهم قائلاً أن ما يفعلونه عيب ، واستعجبوا لقولي أجابوني ((يا أستاذ هادى ما فيها شيء ، هادى قشمرة))، وقلت لهم أن يعملوا هذه (القشمرة) خارج الفصل ولا يفعلونها في حصتي مرة أخرى ، فقالوا لي ((والله أنت جبار يا أستاذ))، وعرفت فيما بعد أن معنى (القشمرة) هو المزح البريء ! ، ولكنهم انتظموا بعد ذلك وصاروا يثنون على تدريسي بقولهم ((والله تدريسك زين يا

أستاذ)) ومن طريف ما حدث أنني وبعد أسبوع من تدريسي لهم سألني أحدهم : ((يا أستاذ ، أيش أسمك ، نقول لك السوداني ولا نقولك العبد ولا أيش))، وضحكت وأجبته أن أسمي هلال ، وقال ((والله أسم عربي زين)) ..

ووقعت في مأزق مادة الحساب مرة أخرى فقد كلفت بتدريس الحساب والعربي والإنجليزي رغم احتجاجي بأنني لا أعرف الحساب وقبلت إزاء إصرار العميد ، وساعدني على اجتياز هذه المحنة الأخ بابكر والذي كلن متخصصاً في الرياضيات ، وبعد حين اقتنع العميد بأنني لا أصلح لتدريس الرياضيات بعد أن حضر نائب العميد حصتين معي ، واستبدلوا حصص الحساب بحصص إنجليزي ، وتنفست الصعداء ..

وكنا نبدأ حياتنا الاجتماعية بعد التاسعة مساءً ، وقد أفردت الشركة مصلحة خاصة للترفيه عن الموظفين أسمتها Recreation Department وتشرف على ملاعب الكرة والسلة وحوض السباحة والبلياردو والتنس وهى كلها مضاءة ، وهناك دار للسينما يعرض فيها احدث الأفلام الأمريكية . فكنا نذهب للسينما ، وبالنسبة لي اسبح في الحوض وصديقي حسن يزاول لعب كرة القدم وهو لاعب كرة ممتاز وقد حدث لبس ظريف فان اسمه تطابق مع اسم حسن العبد لاعب الفريق القومي المشهور في السودان في ذلك الوقت ، ولذلك كانت كل منطقة في الشركة تحاول أن يعمل عندها لأنه كان هناك كأس الشركة وكأس آخر للأمير تتنافس عليه المناطق الثلاث ولذلك كانت كل منطقة تريد أن تفوز بهذا اللاعب المتميز ،

ولكن منطقة أبقيق أصرت على استبقائه عندها بحجة أنه تعين من السودان لمنطقتهم وسكت و(طنش) الصديق حسن على سوء الفهم هذا ولم يفصح عن هويته وشخصيته الأصلية واستمتع بالإعجاب والاحترام من الكل ولحسن الحظ أنه كان لاعباً ممتازاً مما مكنه لعب الدور بتفوق ولم يكتشف أمره ..

ومدينة أبقيق مدينة عاملين من مهندسي بترول وفنيين وعمال وموظفين وتوجد بها كل آبار السعودية من النفط ، ويسكن المستخدمون في ثلاث مستعمرات طبقاً لمستواهم الوظيفي ، وهو ثلاث مستويات الأول هو السينير استاف Senior Staff وهذا يشمل كل الأمريكيين العاملين ولو كان الواحد منهم سمكرياً ، ويسكنون في حي أو مستعمرة تسمى المدينة الأمريكية American City وهي قطعة من كاليفورنيا الأميركية انتقلت إلى قلب الصحراء بفيلاتها الأنيقة وحدائقها الغناء وبمرافقها المتعددة ، وربما يسكن بها واحد أو اثنان من الموظفين من الجنسيات الأخرى الذين قضوا زمناً طويلاً واظهروا كفاءة في خدمة الشركة ، وأما الحي الثاني ويسمى المتوسط ويسمى Intermediate حيث كنا نسكن وهو خاص بالموظفين من الجنسيات الأخرى وقلة من السعوديين والسكن مكون من صفين من الحجرات الخشبية وفي وسطها ميدان من النجيلة وبينهما حمامات ومغسلة للملابس ومطبخ وصالة للأكل وكل حجرة مؤثثة بسريرين مفروشين ودولاب للملابس ، وبالحي كنتين للبقالة ومكتب بريد وصندوق بريد لكل ساكن ودكان حلاق وسوق صغير للسلع المختلفة ، وهناك سينما وملاعب رياضية وحوض سباحة وكل

الحجرات بها التكييف المركزي ، وأما الحي الثالث ويسمونه
Generalوهو خاص بالعمال ومعظمهم من السعوديين وكل حي أو
مستعمرة من هذه الأحياء محاط بسياج عال ومدخل واحد عليه رجل
أمن Security وينطقونها سُكُرتي . ولكل مستخدم في الشرطة رقم
مكتوب على بادج يشبكه على حزام الخصر ، ولا يسمح لسكاني
الجنرال بارتياد واستخدام مرافق الأنترميديت والسينيّر Intermediate
Senior & ، ولذلك ربما يطلب رجل الأمن من الغرباء أن يبرز الواحد
البادج فلكل حي لون بادج مختلف خاص به .

كانت الدراسة تتعطل في المركز خلال شهر رمضان ولكن
الإدارة نظمت لنا برنامجاً شغل كل وقتنا خلال الشهر الكريم ، فقد
أعطانا مدرس الآلة الكاتبة الأمريكي دروسا عملية في الكتابة علي
الآلة الكاتبة وأجدنا الكتابة عليها بطريقة اللمس Touch ، وكان
المدرس شخصية ظريفة ، وقال لنا انه يأمل ينشئ عمارة من أربعة
طوابق يفتح بارا في الطابق الأول ومطعما في الطابق الثاني وصالة
للقمار في الطابق الثالث ويخصص الأخير للدعارة .. وأعطانا العميد
دروسا في النطق علي الطريقة الأمريكية بدلا من طريقة نطقنا
الإنجليزية وكان معنا زميل لبناني متعثر في النطق ونال كثيرا من
تبكيت العميد ، وكان هذا العميد فوق الخمسين من العمر مشبوه
الرجولة وكان يعجب بالأخ حسن إعجابا مريبا وكنا نمزح ونغيظ
حسن بقولنا ((يا خي ما تريح الزول)) فكان يثور ويلعن العميد
وأجداده وملته .. أما نائبه فهو رجل عجوز من اصل ايرلندي وما كنا
نري له عملا معظم الوقت وربما يدخل الفصول في بعض الأحيان ،

ونراه رائحا غاديا في الدهليز وهو يضرط بلا حياء !

و أخذنا دورة في السلامة Safety وفي إطفاء الحرائق نظريا وعمليا ، ولما كانت الكتب المدرسية تعد في المركز كان يصور من كل كتاب مئات الصفحات ونجلس نحن المدرسين حول طاولة طويلة وأمام كل واحد كومة من صفحات الكتاب فيبدأ الجالس الأول بجمع الصفحات الأولى ويمررها إلى الثاني فيضيف إليها ثلاث أو أربع صفحات وتستمر العملية هكذا إلى أن تصل الجالس الأخير الذي يقوم بتدبيس الصفحات ويضع الكتاب جانبا ، وتستمر العملية إلى أن ينجز العدد المطلوب من الكتاب . وقد أوفدت أنا وزميل لي إلى الظهران لحضور كورس في الإسعافات الأولية لمدة أسبوع مع موفدين من راس تنورة والظهران . وانقضى الشهر ومنحنا شهادات أنيقة في إطفاء الحرائق والإسعافات الأولية ، وقلت لزملائي متندرا أنني أستطيع بهذه الشهادة أن اعمل ضابط إطفاء في السودان !

كنت قد أتيت إلى ابقيق مع آخرين ببص الشركة من مطار الظهران والمسافة تستغرق ساعتين في طريق إسفلتي جيد تحفه الصحراء والرمال من كل جانب ولا حياة هناك من أي نوع لبشر أو نبات أو حيوان ، ودخل الليل ونحن سائرين ، ولاحت لنا من علي البعد نيران مشتعلة إلى عنان السماء في حزم حمراء اللون في صافات من اللهب ، وعرفنا فيما بعد أنها الفائض من الغاز من الآبار المقفولة والذي يتركوه مشتعلا في الهواء ، وهو العلم الذي صّير السراب بالنهار الذي هو متاهة للسائر في الصحراء إلى سراب ضوئي بالليل يهدي السائر من بعيد إلى الملاذ الآمن .

و أول مـا اسـترعي انتبـاهي هـو الصـهاريج الضـخمة الكـثيرة والأنابيب العديدة الممتدة بعضها فوق بعض ، ولفت نظري منـزل كبير مـن طـابق واحـد يحيط بـه سياج فوقـه لمبـات كهربائيـة مضيئة لـيلا ونهارا ، وعرفت انه منـزل أمير المنطقـة أو الحـاكم وهـو عنـدنا اقـرب إلى مفتش الحكومـة أو المحـافظ حاليـا ، واخبرنـا الزميـل بـابكـر أن التقليـد أن يـزور القـادمون الجـدد الأمـير للسـلام عليـه وخاصـة إن هـذا الأمير يحب السودانيين والأخ بابكر مقرب إليه ، وذهبنا لمقابلـة الأمـير وأول مـا دخلنـا علـي صـالون طويـل واسـع تحفـه كراسـي جلـوس مـن الجانبين يشغلها الزائرون وفي صدر المجلس يجلس الأمير وكـان رجـلا اسود اللون ضخم الجثة ماردًا وقام مرحبا بنـا في حفـاوة بالغـة ، وأشـار لاحـد الحـراس الـذي فـتح بابـا جانبيـا ودخـل أمامنـا ودعانـا للـدخول، ووجدنا صالون اصغر حجما فـاخر التأثيـث وأظنـه للخاصـة مـن زواره، واخـذ الرجـل يرحـب بنـا ويسـألنا عـن السـودان والخـادم يطـوف علينـا بـالقهوة العربيـة وكـان يصـب كميـة قليلـة في قعـر الفنجـان وعنـدما يشـفطها الشـخص يأخـذ الفنجـان ويصـب لـه مـرة أخـرى وتكـرر ذلـك معـي عـدة مـرات ، واكتفيـت مـن القهـوة وملـت علـي بـابكـر بجـانبي وهمست له بذلك ، وقال لي هز الفنجان من جانب إلى جانب ، وفعلت فتوقف الساقي من صب القهوة في فنجاني وتناول الفنجان مني ووضعه فـوق الفنـاجين الفارغـة الـتي يحملـها بيسـراه ، وعرفـت (بروتوكـول) شراب القهوة ! وكنت قد شاهدت في الصالون الكبير هـراوة ضـخمة معلقة بسير من الجلد علي الجدار ، وقلت في نفسـي هـل هـذه الهـراوة تـذكير دائـم للرعيـة (العصـا لمـن عصـي) ، أم إن الأمـير بسـبب هـذا العصا التي فعل بها الأفاعيل نـال الإمـارة ؟ فقـد كـان ((خـوي)) وهـي

وظيفة كالشرطي أو الحرس الخاص ولكنه يعمل مع الأمراء ..
وحذرت ميل الأمير للسودانيين فالسواد يجمعنا والسودانيون هنا
بمختلف درجات الوانهم التي تعارفنا عليها في السودان من اصفر
واخضر وازرق كلهم في عرفهم سود أو اقل من ذلك ولا يعتبروننا عربا
، وكانت هذه الحقيقة صدمة كبيرة لمن يقولون انهم أبناء العباس أو
ينتمون للعرب من السودانيين ! وفي هذا الصدد العنصري المتعالي ما
كان من أمر أخ لنا من جنوب السودان الذي امضي عدة سنوات في
السعودية ، ولما سأله زملائه من السودانيين لماذا لا يرجع إلى الوطن
بعد طول غياب ، فرد عليهم جون وهذا اسمه ((لماذا ارجع إلى هناك
لتقولوا لي عبد ؟ نحن هنا كلنا عبيد !))

و مجتمع ابقيق رجالي لا وجود فيه لامرأة وقد تجد النساء من
زوجات الموظفين الأمريكان في المدينة الأمريكية ، وان كنت اسمع
صوت إحداهن عبر التلفون عندما أرد عليه في المكتب وهي زوجة
لزميل امريكاني .

في بورتسودان

و أذنت حياتنا في ابقيق بالانقضاء وتضافر علي ذلك رهق في العمل
شديد ، وحنين إلى الأهل والوطن عميق ، وكانت الأحوال في الوطن
حينذاك هنيئة رضية حتى أن السودان كان يعتبر من دول الاغتراب
للرزق لبعض دَول الجوار ! وما كانت هجرتنا للعمل إلا طمعا في دخل
وفير فقد كان راتب الواحد منا يعادل ما يتقاضاه وكيل الوزارة في
السودان في ذلك الوقت واستقلت ومعي اثنان من الزملاء هما حسن

والأمين وبقي ثلاثة ثم لحق بنا أحدهم وهو عبد الرحيم والذي درس القانون بعد ذلك واشتغل بالمحاماة ، ورجعنا إلى قواعدنا للعمل بالوزارة، وعينت في بورتسودان بالمدرسة الحكومية الوسطي ، وحزمت متاعي وكان شيئا يسيرا يتكون من شنطة وفيها ملابسي وبعض كتبي وسرير حديدي ومرتبة ومخدة وبطانية وأخذت القطار بالدرجة الثانية وهي المخصصة لدرجتي الوظيفية متوجها إلى بورتسودان والرحلة بالقطار إليها تستغرق نحوا من أربعة وعشرين ساعة ، ووجدت في استقبالي ناظر المدرسة ونائبه واحد المدرسين وخلص المدرس عفشي المتواضع ووضعه في سيارة تاكسي واصطحبوني إلى داخلية المدرسة حيث خصصت لي حجرة في الطابق الثاني ، ومدرسة بورتسودان الأميرية الوسطى من المدارس القديمة والعريقة في السودان ومبناها فخم وبها نهران أي ٨ فصول وبها داخلية حديثة من طابقين وزودت بمرافق حديثة من حمامات ومراحيض سيفون وأحواض غسيل للوجه وقال لي زميلي نائب الناظر وضابط الداخلية أنهم جمعوا التلاميذ أعطوهم درساً في كيفية استعمال المراحيض فكلهم أتوا من البدو ويسكنون بيوتاً من الشعر ويقضون حاجتهم في العراء .. واسند إلى الناظر وظيفة ضابط للداخلية ومسئول عن استلام الغذاءات من المتعهد ومشرف على الطباخ والسفرجي والمطبخ ، كما يشرف زميلي نائب الناظر على النظام وحل المشاكل بالداخلية .. واسند إلى في جدول الحصص تدريس الإنجليزي لصف من الفصول الروابع وصف من الثواني.. وكانت تجربة أولية لي في العمل بمدرسة داخلية وكان من واجباتي كضابط داخلية أن اعد (الراجعة) وهي بيان بكمية الغذاءات اليومية من طازجة كالخضروات والخبز

واللبن واللحم والبهارات والزيت والسمن يقوم بتوريدها المتعهد ، وغذاءات جافة كالفول المصري والعدس والرز والشاي والسكر والصابون وهذه نأخذها من مخزن الغذاءات بالمدرسة والذي يشرف عليه أحد المدرسين ، والمقادير من كل صنف من الغذاءات محدد بالجرام لكل فرد من التلاميذ وقامت بهذا التحديد وزارة الصحة كي تضمن للفرد غذاءً صحياً متوازناً ، وتأتينا الغذاءات الجافة من مصلحة المخازن والمهمات بالخرطوم بحري وهي التي تمد كل المدارس الداخلية في السودان ، وأما الغذاءات الطازجة فتطرح في عطاءات ومن يفوز بالعطاء يتعهد بتوريدها ، وعملية الراجعة عملية حسابية مرهقة وهى ضرب نصيب كل فرد من كل صنف في عدد التلاميذ الداخلية ليعطينا الكمية المطلوبة ، وهذه الراجعة كمياتها ثابتة ولكن تتغير في يومي الخميس والجمعة حيث يذهب بعض التلاميذ إلى ذويهم ، فنخصم نصيبهم من الراجعة التي تحتوي على عشرين صنفاً ، وتتم العملية الحسابية بالورقة والقلم ولم تكن الآلة الحاسبة قد استعملت عندئذ ، ووقعت في شر كراهيتي للحساب مكرهاً ! وقد أعانني في فهم الراجعة وإعدادها ناظر المدرسة الأستاذ مصطفى حميدة وهو طراز نادر من البشر فهو إنسان بمعنى الكلمة بشوش ومتواضع صبور ومتفهم عالي الكفاية في إدارته ، وكانت لحظة الحساب العسير عليّ هي في نهاية كل شهر حين نجلس الناظر وشخصي والمتعهد لنعد الحساب لما ورده المتعهد بالنقود فنقوم بضرب الكمية اليومية من كل صنف في ثلاثين يوماً ومن ثم نضرب الحاصل في السعر المبين في العطاء وبعد ذلك نجمع الناتج ليكون استحقاق المتعهد من النقود ونوقع نحن الثلاثة على دفتر الراجعة ، ويقوم الناظر بكتابة إذن

صرف بالمبلغ ليصرفه المتعهد من خزينة البلدية ، وكنت وأنا اتعثر في عملية الضرب والجمع أجدهما يفرغان بسرعة ويقارنان الناتج مع بعضهما .. وجدير بالذكر أن دفاتر الراجعة المنتهية تحفظ لدي الناظر لعرضها على المراجعين الذين يأتون من مكتب المراجع العام من الخرطوم في كل عام لمراجعة حسابات جميع الوحدات الحكومية .

أما في التدريس فقد كانت الإنشاء Composition معضلة بالنسبة للتلاميذ وبالنسبة لي ، فتلاميذي من شعب البجة وهؤلاء لغتهم الأصلية ليست العربية ولهم لغتهم الخاصة (رطانة) ، فالواحد منهم يفكر بلغته ويصوغ أفكاره بها ، ويترجمها إلى عربية مكسرة ، ثم ينقلها إلى الإنجليزية ، ولذلك كان تصحيح كراسات الإنشاء يأخذ مني وقتا طويلا وجهدا مضنيا لفك طلاسم الكتابة ومع العلم أن موضوع الإنشاء نعده شفويا في الحصة السابقة لكتابته .. وأمر آخر حدث لي فقد شاهدت تلميذا من الصف الثاني وهو يبصق سفة التنباك (سفة الصعوط) في حوض غسيل الوجه ، واستدعيته وصفعته علي وجهه وأنا أقول له مستنكرا ((بتسف صعوط يا ولد)) ، أجابني بثبات ((ايوه ، نسف صعوط)) ، وغضبت وقلت له ((كمان بتصر علي كلامك)) ، وصفعته مرة أخرى ، وقال لي: ((يا أستاذ ! أبوي بنفسه يسف ، أمي بنفسها تسف ، اخوي بنفسه يسف ، أختي بنفسها تسف)) ، وإزاء هذا السيل العائلي من تعاطي (السفة) ، سكت وقلت له ((خلاص ! سف)) ، وبعد ذلك علمت من الناظر ومن الزملاء ان تعاطي التنباك شئ عادي لديهم . ومما سبب استنكاري انه لدينا من حيث جئت تعاطي التنباك أو التدخين للصغار مستهجن وعيب خاصة

إذا كان المتعاطي تلميذا أو طالبا ، هكذا كانت المعايير الخلقية والسلوكية .

مدرسة بورتسودان الحكومية مدرسة ممتازة بها ناظر مقتدر ومجموعة ممتازة من المعلمين وان كانوا جميعا من الوسط والشمال والعاصمة ولم يكن بينهم من أبناء البجة إلا واحدا تعين حديثا .. ومخازن المدرسة تكتظ بالكتب والأدوات والأثاثات والغذاءات مما يمكن من فتح مدرسة جديدة . والعمل في غاية الدقة والانتظام والجودة ، ولم يشذ من هذه المجموعة إلا واحدا فقط أفلحنا كلنا في تقويمه فقد كنا حريصين علي سمعة مدرستنا .. وتفتح المدرسة ليلا من السادسة إلى الثامنة مساء للمذاكرة للتلاميذ الداخليين ولطلبة الروابع ويحضر معظم الأساتذة كي يحضروا دروسهم للغد أو لتصحيح الكراسات .

و من طريف ما حدث هو أن المدرسة كانت مقرا لقبول التلاميذ الجدد بالصف الأول وكانت هناك مدرسة أهلية وسطي في بورتسودان وضمت للحكومة ، وكانت تشكل لجنة القبول من مندوب من مكتب التعليم ببورتسودان وناظري المدرستين الحكومية والأهلية وعضوين من المدرستين ، وكنت عضوا في اللجنة ، ويتم القبول من كشف الناجحين في امتحان الدخول للمدارس المتوسطة ويؤخذ الأول للحكومة والثاني للأهلية وهكذا نزولا في الكشف حتى يكتمل العدد المطلوب وكان ابن ناظر الأهلية من الناجحين ولما جاء دوره كان نصيبه ان يذهب إلى الأهلية ، ولكن والده والذي هو ناظر الأهلية أصر أن يكون ابنه بالمدرسة الحكومية ، وقد كان . وحدث

في لجنة القبول شئ من هذا القبيل ولكن في اتجاه مغاير فقد أصر والد أحد التلاميذ ان نقبل ابنه بالداخلية ولما كان القبول للداخلية مكرسًا للتلاميذ الذين يأتون من خارج المدينة ولا يقبل بها من كان أهله من سكان مدينة بورتسودان ، وحاولت اللجنة إفهام ذلك الرجل ولكنه أصر إصرارا عنيفا علي قبول ابنه بالداخلية ، وقلنا له انه لا يوجد سبب وجيه يستدعي قبول ابنه داخليا ، وبعد جدال القي (بقنبلته) وقال انه يسكن في بيت يتكون من حجرة واحدة هو وزوجته وابنهما وأن الولد الآن قد كبر وأدرك مما يهدد خصوصية علاقته الزوجية ، ورغم وجاهة السبب لم يقبل ابنه فليس في أسباب القبول انفراد والد التلميذ بزوجته ! وتركت اللجنة الرجل ليحل مشكلته بنفسه !

كانت بورتسودان مدينة جميلة نظيفة وكان يطلق عليها لقب عروس البحر الأحمر ، وكانت الميناء تكتظ بالسفن وتلاقي البحارة يتجولون في سوق المدينة وهو عامر بالبضائع كما كانت هناك الحديقة الرائعة وتطل على صف من المطاعم والبارات الأنيقة وفيها المشروبات الروحية والمشروبات الغازية والعصائر ، وكان بالمدينة حوض سباحة فخم ، وكانت هناك أندية اجتماعية راقية إضافة إلى الأندية الرياضية وهناك أيضاً فندق البحر الأحمر Red Sea Hotel العريق الفخم ، وهناك نادي الخريجين العظيم الذي يضاهي نادي الخريجين بأمدرمان شيخ الأندية ، وفي أول ليلة لي في بورتسودان اصطحبني زميل لي إلى نادي الخريجين ووجدنا النادي عامراً بالرواد ومعظمهم منهمكين في لعب الورق أو الطاولة والضمنة وآخرين

جالسين على الكراسي الوثيرة يتسامرون أو يستمعون للراديو .
ودعوني للعب لعبة الورق المسماة (وسْت) وهي لعبة محبوبة ولسوء حظي أو حسنه لا أدري انهزمت أنا وزميلي (أسنافيك) وهذه كبيرة في هذه اللعبة ، وكانت هناك لوحة في مكان بارز يكتب عليها أسماء من يتلقي (أسنافيك) ، فيمسح أسماء القدامى ويكتب أسماء الجدد وكان أن كتب أسمي وأسم زميلي على اللوحة ، فكان كل واحد يسأل عن هذا الهلال زاهر ويدلونهم عليّ وعلى هذا النحو شاعت معرفق بين الجميع ، فهذا من حسن الحظ ، واما ((أسنافيك)) فمن سوء الحظ !

وتجد التمايز والتناقض في هذه المدينة الأنيقة الجميلة فواجهتها القريبة من البحر وفي أحيائها الشعبية ذات البيوت من الصفيح ويعشش الفقر والبؤس بين سكانها وتنتشر الأوساخ انتشار الذباب والهوام .. وكما قال الوزير الاتحادي نصر الدين السيد في ليلة سياسية بالمدينة في خطبته: ((بورتسودان وما بورتسودان ؟ أنها قصور وحولها أكواخ وردد هذه الجملة ضاغطاً على كلمة أكوآآآخ)) وارجع إلى المدرسة والداخلية فقد كنت استلم الغذاءات وازنها بنفسي ولا أكل هذه المهمة للطباخ ، وكنت ارجع الصنف الرديء واطلب من المتعهد استبداله بصنف جيد وفي هذا القبيل وجدت اللبن عبارة عن ماء ابيض ورفضت استلامه ، واحتج المتعهد قائلاً أن بهائمهم لا تجد علفاً تأكله ولذلك لا تجود بلبن جيد ، ورفضت حجته وقلت له أن يلتزم بشروط العقد الذي ارتضاه ووقع عليه.. واشتكاني للناظر على تشددي ، وأيدني الناظر في موقفي وقال له أن نحرص جميعاً على

غذاء هؤلاء الأولاد لأنهم مثل أبنائنا وأنهم أمانة في أعناقنا ..

اتخذت صديقاً لي من المدرسين شاباً ظريفاً مهذباً درعمياً وهذه الأخيرة تعني أنه خريج دار العلوم بمصر وكان الأستاذ حسن يدرس اللغة العربية وهو من سكان بورتسودان ، وكنا بعد انتهاء المذاكرة نذهب إلى فندق البحر الأحمر الفخيم ونجلس في التراس المطل على البحر ونتناول شيئاً من الشراب ، وبعد ذلك نرتاد مطعماً في السوق نجده يقلي في السمك الطازج ، ونتعشى سمكاً ساخناً شهياً ..

وكان لي صديق أرمنياً ولا أدري كيف تمت صداقتنا ، وكان يعمل في لحام حظ الأنابيب ، وكان شخصاً بسيطاً طيب القلب ، وكنا نجلس مع جماعة من الأجانب من جنسه في محل خاص بهم حيث يسمرون ويتناولون الشراب والعشاء . وقال لي صديقي (يغاشي) أن أمله بعد أن ينتهي من عمله في السودان هو أن يذهب إلى بلده ويبحث عن شجيرات معينة بأوراقها صبغة ذهبية طبيعية ، وقال أن الأغنام التي تأكل من أوراق هذه الشجيرات تصطبغ أسنانها باللون الذهبي ، وقال أن هذه الشجيرات توجد في أعالي المرتفعات ، وقال أنه سيبحث عن هذه الشجيرات ويحصل على أوراقها ليؤثث مصنعاً للصبغة الطبيعية ..

وغادرت بورتسودان وانقطعت صلتي بيغاشي ولكن آمل أن يكون أمله قد تحقق .

وعندما حدث انقلاب الفريق إبراهيم عبود العسكري في نوفمبر ١٩٥٨ كنت ببورتسودان وذات صباح ونحن في الحصة الأولى وكنت

أدرس في الفرقة الرابعة سمعت جلبة وضجة وأصوات عربات ودخلت إلى فناء المدرسة سيارتان ممتلئة بجنود الجيش المدججين بالسلاح وتبعتهم سيارة أخرى نزل منها عميد من الجيش ومعه ضابط آخر وخرج الناظر لاستقباله وسري الخبر كالبرق أنه الحاكم العسكري لمديرية البحر الأحمر جاء في زيارة تفقدية للمدرسة .. وتعجبت هل هذا الحاكم جاء لتفقد مدرسة أم هو قائد جاء داخلاً مدينة مقهورة بعد انتصاره ؟! وكان من حظي العاثر أو ماذا لا أدرى أن بدأ تفقده بالفصل الذي كنت أدرس له ، وكان درسي عن الكتاب الإنجليزي المقرر في الشهادة على التلاميذ ، وسلم على التلاميذ بعد أن قاموا لتحيته وسلم عليّ باليد ، ثم سألني إن كان التلاميذ متأخرين فأجبته بالنفي ، واستأنفت تدريسي ، ومكث الحاكم العسكري نحو خمس دقائق ، ثم غادر ومعه حاشيته والناظر ليتفقد بقية الفصول ..

وجاء إلى بورتسودان رؤساء الشعب بمعهد التربية ببخت الرضا فهم ينتهزون فرصة توقف العمل في المعهد لفترة للطواف على مدارس منطقة معينة في السودان لتفقد العمل في التدريس وتطبيق المناهج والإدلاء بنصائحهم وتوجيهاتهم وأذكر منهم الشيخ الجيلى في التربية الإسلامية ومستر هوبسن في الرياضيات ومستر برين في اللغة الإنجليزية والأستاذ كمال فريد وزاروا المدرسة وحضروا حصصاً مع المدرسين وهم يهتمون بصفة خاصة بالمدرسين خريجي بخت الرضا ، ولقد كانت زيارتهم مثمرة ومفيدة لنا . وأولم الناظر عشاءا بمنزله حضره المستر هوبسن والأستاذ كمال وكان من المدعوين الأستاذ الطيب شبيكة نائب ناظر الثانوية الحكومية وكنت ضمن المدعوين، وكان العشاء فاخراً وتحلل الجميع من تزمت الرسميات

وأنطلق الكل على سجيتهم وكان هناك شراب من البيرة والويسكي مع أن الناظر ليس من الشاربين ، وكانت مفاجأة مدهشة لنا عندما غنى لنا مستر هوبسن أغاني سودانية بلهجة سودانية فصيحة ولحن محكم وهو الذي كان لا يتحدث أمامنا إلا باللغة الإنجليزية ولم نسمعه يتكلم مرة واحدة بالعربية !

وكانوا ينزلون في فندق البحر الأحمر بينما كان ينزل شيخ الجيلي في أحد الفنادق الأخرى ، ولقد نجا بأعجوبة من الموت عندما أخذ أحد نزلاء الفندق يطلق النار عشوائياً ثم أنتحر دافناً سره معه ..

جرت العادة أن تصدر الوزارة كشف تنقلات المدرسين العام قبل نهاية العام الدراسي حتى تكون هناك فسحة من الوقت ليستعد المدرسون المنقولون للذهاب إلى مدارسهم الجديدة والتي تكون في جهة من أنحاء السودان وذلك بعد انقضاء العطلة الصيفية ، وصدر كشف التنقلات ووجدت أسمى مترقياً لناظر ولفتح مدرسة جديدة في المناقل ، وتلقيت التهاني من الزملاء ، وكانت تلك الترقية في الربع الأول من عام ١٩٥٩ ، وأذنت شمس وجودي ببورتسودان للمغيب لتشرق مرة أخرى على بقعة جديدة من سوداننا الرحيب ..

وجاء الناظر وجميع مدرسي المدرسة لوداعي وكان وداعاً مؤثراً تحركت معه دواخلي واغرورقت معه عيناي بالدموع وتحرك القطار نحو الخرطوم يحملني بعيداً عن زملاء أحمل لهم في صدري ذكريات حبيبة ومشاعر عطرة لعام قضيته معهم فكانوا نعم الصحبة وخير اخوة .

في المناقل :

وحـال وصـولي إلى الخرطـوم والـي مـدينتي الحبيبـة أمـدرمان . توجهت في اليوم التالي الي الوزارة حيث قابلت المسؤول عن التعليم الأوسط ، وكان أول سؤال يجول بخاطري هو عن المناقل وأين تقع في خريطة السودان فقد كانت معلوماتي تتلخص في أن هناك مشروع زراعي كبير رديف لمشروع الجزيرة الزراعي في مساحته ولم أكن أعلم أن هناك مدينة بهذا الاسم (المناقل) ، ولما سألت المسؤول عنها وجدت المسؤول في الجهل سواء مع السائل ! وقال لي عندما تذهب إلى مدينة مدني والتي يوجد بها مكتب تعليم مديرية الجزيرة والذي تتبع له المناقل فأنهم سيدلوني عليها ، وعجبت من مسؤول يفتح مدرسة جديدة في مكان يجهله ، وزودني بمنشورات إدارية ومالية لتنظيم العمل ، وزودني أيضاً بملف يدعى (فايل النظار) ، وهو ملف جرى إعداده من معهد التربية ببخت الرضا وهو بمثابة مرشد لإدارة المدرسة يهتدي به الناظر ، وذهبت إلى شئون الموظفين لاستخراج استمارة السفر المجانية بالقطار ومعها استمارة العفش ، ووصلت إلى مدني وتوجهت إلى مكتب التعليم حيث قابلت مفتش تعليم المديرية الذي رحب بي وطلب منى أن أضع تقويماً للدراسة للمدرسة الجديدة فقد كانت الدراسة قد بدأت بالفعل منذ شهر وعلينا أن نعوض هذا الشهر في التقويم الجديد ، وطلب منى ان ابقي بالمكتب إلى أن تصل أثاثات وكتب المدرسة بالقطار من الخرطوم بحري واشحنها في لوري واصطحبها معي للمناقل ، وقال لي أن المدرسة والتي ستبدأ بفصل واحد ، سيكون مقرها في مبني المدرسة الأولية الصغرى ، حيث سيخصص لنا مكتب وحجرة دراسية ومخزن وأما الداخلية فقد تبرع

أحد أهل المناقل بمنزل لهذا الغرض ، وهذه الترتيبات سوف تكون مؤقتة إلى أن تكتمل مباني المدرسة وملحقاتها من الداخلية ومنازل الناظر والمدرسين ، وستقوم مصلحة الخدمات الاجتماعية بمشروع الجزيرة ببناء المدرسة ، كما ستقوم وزارة الري بالتنفيذ .

و هيئت لي ترابيزة مكتب في حجرة مكتب المفتش دهب عبد الجابر وهو شخصية لطيفة وشهم وخفيف الظل وساخر مثل كل الحلفاويين ، وظللت أجيء كل يوم إلى المكتب واجلس بدون عمل، وحل أول الشهر ولم تصل شهادة آخر صرفية من الخرطوم والتي بمقتضاها احصل على راتبي مما سبب لي قلقاً وضيقاً ، وصرت أتحدث مع الأستاذ دهب في هذا الشأن فقال لي باللهجة الحلفاوية المحببة : ((انت خاوتني شهادة أخر صرفية ماجات ، شهادة أخر صرفية ماجات . انت عاوز كم وأنا اديك لحدي الشهادة ما تجي))

وأعطاني مشكوراً المبلغ الذي طلبته والذي رددته له فيما بعد .

وكنت في مدني اسكن مع خال لي يعمل بالأرصاد في ميس يضمه وثلاثة آخرين ومكثت في مدني لمدة اسبوع حتى وصلت أثاثات وأدوات المدرسة ، وتعاقدت مع لوري وشحنتها وركبت إلى جوار السائق وتوجهنا علي بركة الله إلى المناقل ، وكان الأستاذ دهب قد سبقني في صباح نفس اليوم إلى هناك ولكن تأخيرنا في السكة الحديد لشحن العفش أخر أيضا تحركنا إلى المناقل وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحا وتوقفنا عند نقطة للشرطة في آخر المدينة وهي المدخل والمخرج للمدينة ، واطلع الجندي علي أوراق اللوري وسأل عن وجهتنا ثم أعاد الأوراق للسائق وتراجع للوراء ملتصقا باللوري ، ورأيت السائق يخرج من جيبه ورقة من النقود ويمد يده

خارجا إلى جانب اللوري وتناولها الشرطي ، واستنكرت الأمر وسألت السائق لم فعل ذلك ، فأجابني بأنه إذا لم يدفع له فانه يعاكسه بأي حجة وإن أي عربة داخلة أو خارجة تدفع للعسكري ، وأضاف قائلا إن هذا المبلغ (ياكل) منه العسكري حتى (الكمندان) أي رئيس الشرطة ! ، وقابلنا الأستاذ دهب في منتصف المسافة عائدا من المناقل بعربة مكتب التعليم ، وقال لي انه مهد لي الطريق مع المسؤولين هناك وقال لي أن اذهب عند وصولي لمقابلة رجل اسمه إبراهيم سليمان في مطعمه في السوق، وذلك بعد أن اقدم نفسي لضابط المجلس الريفي والذي هو ممثل الحكومة أو الحاكم للمنطقة ، وذهبت إلى الرجل في مكتبه في مبني المجلس المحلي واستقبلني بحفاوة هو ونائبه وعرض علي عونه في أي حاجة تعرض لي واخبرني أن أحد وجهاء المناقل تبرع بمنزل ليكون داخلية للتلاميذ وان المدرسة ستفتح بمبني المدرسة الصغرى مؤقتا إلى أن يتم تشييد المدرسة وملحقاتها والتي وضع الأساس لها فعلا ، وطلب من نائبه علم الدين محمد أن يصحبني بعربة المجلس ليريني المدرسة والمنزل ، وطلبت منه مقابلة إبراهيم سليمان ، وذهبنا إليه ورحب بي بحرارة وقال لي أن منزله سيكون سكنا لي وهو أعزب ويقضي جل وقته في السوق وينام هناك في معظم الأحيان ، وهو يمتلك المطعم الوحيد في المدينة وكذلك الفرن ، ولما علم أن أدوات الطهي الخاصة بالداخلية لم تصل بعد ، أمدني بالحلل وكل أدوات الطهي الأخرى ، والسيد إبراهيم سليمان رجل طويل نحيف اصفر اللون ابيض الشعر بلون فضي وهو من أهل حلفا ويتكلم العربية باللكنة الحلفاوية صريح إلى حد (الخشونة) ، وهذه سمة غالبة في اخوتنا الحلفاويين ويقولون للأعور اعور علي عينه ، والرجل من

القلائل الذين قابلتهم في حياتي في مثل شهامته وكرمه ، وقدم للمدرسة من الخدمات ما فاق الذي قدمه أهل البلد عدا السيد كوباوي والذي قدم لنا منزلا ليكون داخلية للتلاميذ . واستضافني نائب ضابط المجلس بمنزله تلك الليلة . وفي الصباح تأهبت لتصريف الأمور استعدادا لفتح المدرسة ، وكان أول الأشياء هي فتح عطاءات الغذاءات وكنت قبل مجيئي قد نشرت إعلانا في الصحف اليومية بواسطة الوزارة طالبا تقديم عطاءات لتوريد الغذاءات للمدرسة الجديدة . ووصلتنا ثلاثة عطاءات وتكونت لجنة مني ومن رئيس حسابات المجلس ومحاسب من المجلس لفتح مظاريف العطاءات وإجراء عمليات حسابية تشمل سعر كل صنف ومن ثم جمع القيمة الكلية للعطاء وبعد ذلك نختار اقل عطاء في القيمة ونوصي بقبوله ونرسل كل الأوراق الخاصة بالعطاءات إلى وزارة التربية والتعليم للموافقة والتصديق ، ولم تأخذ هذه العملية وقتا طويلا فبعد اسبوع جاءتنا الموافقة بقبول اقل عطاء وكان للسيد محمد مصطفي من سكان المناقل ، وسأخبر لاحقا عن هذا الرجل فيما سيلي من حديث . وقد عين مكتب التعليم بمدني للمدرسة طباخ وسفرجي وفراش ، كما عينت الوزارة مدرسا ليقوم معي بالتدريس للفصل الواحد أي نتقاسم تدريس جميع المواد ، واكتملت التجهيزات للمدرسة الجديدة وبقي أن يعمرها التلاميذ الجدد وهم أربعون تلميذا أتوا من قري منطقة المناقل ، وأتى إلى المناقل مفتش التعليم ليتولي عملية قبول التلاميذ ، وجاء ومعه كشوفات الناجحين ليختار منهم أربعين تلميذا وقد كان عدد تلاميذ الفصل لا يتجاوز هذا العدد أبدا ، وكان الشرط الرئيسي للقبول هو عامل السن فلا يزيد السن علي اثنتي عشرة سنة ، وكان

الأولاد كبار السن يقبلون في المدارس الصناعية ، وعقدت اللجنة بمكتبي وجاء كل تلميذ ومعه ولي أمره ، وفرغنا من العمل قبيل العصر فقد كان المفتش كثير الكلام ويمحص كل شئ ومن ذلك انه عرض علينا من الناجحين ولد طويل القوام وشك المفتش في سنه وقال له انت كبير ولذلك سأقبلك في المدرسة الصناعية بمدني، ودافع والد الولد عن ابنه دفاع المستميت قائلا بلهجته القروية ((جنابك الولد صغير ، بس شايلنه كرعينه الطوال ساكت والولد خيلانه كلهم طوال ، علي الطلاق الولد صغير)) ، ويتكلم الرجل بحرارة مرصعا كلماته بإيمانات الطلاق والمفتش يقول له الولد كبير وده واضح من طوله ويأمر الولد بان يرجع للوراء ويرفع جلبابه لأعلي ليكشف ساقيه ، ثم يأمره أن يأتي للأمام ، ويقوم المفتش من كرسيه وينظر إلى ساقي الولد ثم يردد ((لا لا ، الولد كبير ، شوف رجلينه طوال كيف)) ، ورغم ضيقي فقد وجدت في هذه المسرحية شيئا من الفكاهة ، وتدخلت في الأمر وحاولت إقناع الرجل بان المستقبل للتعليم الصناعي والفني وإن العالم المتحضر ينحو في التعليم نحو ذلك ، ولم يتنازل الرجل ، وحسم المفتش الأمر بان كتب أمام اسم الولد ((يقبل بالمدرسة الصناعية)) ، وأمر الفراش بان ينادي علي الذي يلي الولد في الكشف ، وخرج الرجل ثائرا وهو يحتج بملء صوته وطرق أذني قوله ((علي الطلاق ده ظلم الولد ما كبير)) .. وفرغنا أخيرا من المهمة واخبرنا التلاميذ المقبولين بان يأتوا بعد غد للمدرسة وأن يحضر كل طالب فراشه معه لاننا نعطي الواحد منهم بطانيتين فقط إلى جانب السرير بالطبع ويشترك كل اثنين في دولاب صغير للملابس .

و كان المدرس الذي تعين للمدرسة شابا في العشرينات من عمره وتخرج حديثا من الثانوي وكان عثمان المدرس الجديد شابا نشطا مجدا طموحا وكان لي نعم السند في إدارة المدرسة والداخلية ، وأما المتعهد محمد مصطفي فقد كان رجلا أمينا حلو الطوية طيب العشرة وكان يورد أجود الأصناف من كل صنف من الغذاءات وربما تزيد الكمية عن المطلوب ، ولم أصادف بعد ذلك في المدارس العديدة الداخلية التي عملت بها متعهدا في مثل أمانته ونزاهته .. وسارت الدراسة منسابة كزورق يتهادى في مياه رائقة ، وعاهدت نفسي أن أجعل من هذه المدرسة مدرسة نموذجية ، وبذلت فيها خلاصة ما تعلمته من معرفة وأساليب تربوية ، وقد زرعت فيهم روح المسئولية وحب الحفاظ على ممتلكات المدرسة كأنها خاصتهم ، ودربتهم على النظام فكان التلاميذ في الفصول عند المذاكرة مساءً لا تسمع لهم صوت وأن كانوا بلا رقيب من مدرس ، وقد ألغيت الجلد واستعضت عنه بالكلمة الطيبة والنصيحة ، ولا أذكر أننا جلدنا أحد التلاميذ إلا في حالات نادرة استعصت على النصيحة ..

وانقضى العام وبدأنا عاماً دراسياً جديداً ، وصارت المدرسة فصلين ، واستقبلنا تلاميذاً جدداً ، وانضم إلينا مدرسان جديدان ، أحدهما شيخ من خريجي المعهد العلمي بأمدرمان وهو الشيخ صديق العجب وهو من أهل أمدرمان ومن قدامى المعلمين في التعليم الأهلي والذين انضموا إلى وزارة التربية والتعليم مثلى ، والآخر الأستاذ عبد الحليم من أبناء الخرطوم بحري .

وقبل نهاية العام الأول للدراسة اكتمل بناء المدرسة والداخلية وهى

المدرسة.

وانتقلنا إلى مبنى المدرسة الجديد والداخلية والمنازل ، وأصر المتعهد أن يذبح بنفسه كبشاً كبيراً أمام باب منزل الناظر والذي سأسكنه وجعلني أقفز فوق دم الذبيحة وهذه عادة سودانية لمنع الحسد وإبعاد الشيطان ، والمنزل ويصنفونه بالطراز المتوسط Middle Type وهو مكون من غرفتين وحمام وبرندة وصالون وبرنده في واجهة المنزل ومطبخ ومخزن وتحيط بالبرندات نملية من السلك وللمنزل حوش كبير ويقع في نهايته مرحاض . وموقع المدرسة في الطرف الشرقي من البلدة ويفصلها عنه ما يشبه الوادي وقيل أنه كان يلوح لهم نور مصباح في ذلك الموقع وأن من يريد أن يعرف كنهه ويتبعه فأن النور يبتعد كل مرة ويحمل الشخص بعيداً إلى أن يتوه ، ومن هنا كان إصرار المتعهد على ذبح خروف كرامة ..

ربما ليبعد الشيطان أو يرضيه ، أو ربما قربان لله ليبعد عنا كيد الشيطان وهو الأرجح وكان المنزل قريباً ومواجهاً للمدرسة بينما منازل المدرسين على مسافة منها . وكان العمل جار في تسوية مشروع المناقل وتوزيع الحواشات (القطع الزراعية) على المزارعين، فخصصنا منزلاً لمفتش المشروع وجزءاً من مباني الداخلية الكبيرة ليكون مكتب للمفتش وموظفي المشروع ، وخصصنا منزلاً للمدرسين العزابة ومنزلاً لشيخ العجب المتزوج الوحيد ، ومنزلاً آخر بصفة مؤقتة لضابط التعليم الذي عين حديثاً وهو المسؤول عن المدارس الأولية في المنطقة . وعندما كانت المدرسة في أول طور للبناء ، أتاني في المنزل رئيس العمال Forman ، وقال لي أن ضميره يؤرقه وأنه يريد أن يخلي

مسئوليته أمام الله ، واخبرني أن أساسات المدرسة معظمها رمال وأن كمية الأسمنت بها قليلة، والمفروض أن البناء (بالمونة الحرة) وأن تكون خلطة الأسمنت بنسبة عالية ، وقال لي أنك إذا مررت إصبعك على أي جدار لتساقط الرمل من بين الطوب ، وقل لي أن سلك النملية ومفصلات الأبواب والشبابيك والشناكل من اردأ الأنواع . وقال لي أنه مستعد أن يشهد بذلك ، وذهبت معه وأخذت أجري إصبعي على الجدران فلا يثبت الأسمنت وينزل الرمل .. إذاً صح ما قاله الرجل، وإزاء ذلك كتبت تقريرا بالأمر موجها إلى وكيل وزارة التربية والتعليم، ووكيل وزارة الري التي تقوم بالتنفيذ ، وبصورة إلى مفتش التعليم وتكونت لجنة من مهندسي الري للتحقيق في الأمر ، ولما كان المهندس المشرف على بناء المدرسة زميلا لهم، ابعدوا عنه الاتهام بالتلاعب في مواد البناء وعزوها إلى العمال الذين عملوا الخلطة والمشرف عليهم ، أي الصقوا التهمة بالمشرف الأمين المسكين ! ولما عدت من العطلة الصيفية علمت أن عاصفة ترابية عنيفة قد هبت على المناقل وانهار حائطان من بيوت المدرسين وقام المقاول بإعادة بنائهما .. وجاء عام ثالث على المدرسة واكتسبت شهرة واسعة بين مدارس الجزيرة والمناقل وطلب كثير من الآباء تحويل أبناءهم إليها، وتقدم لي والد أحد التلاميذ الدارسين بمدرسة المدينة عرب المتوسطة بطلب لتحويل أبنه إلى مدرستنا وكان أبنه بالصف الثالث وكان لدى مكان قد شغر في ذلك الصف ، وأخرجت فايل النظار من الخزنة لأعرف الإجراء المتبع في هذا الشأن فوجدت أنه يمكن أن يتم تحويل التلاميذ من مدرسة إلى أخرى على أن يكتب ناظر المدرسة المحول إليه التلميذ لناظر المدرسة المحول منها ليرسل إليه أوراقه ، وقبلت

التلميذ وكتبت إلى ناظر مدرسة المدينة عرب بذلك ، وجاءني رد منه يسألني أن كنت قد تلقيت تصديقاً من الوزارة بذلك وأن أرسل إليه صورة من التصديق وبعث بصورة من الخطاب إلى الوزارة . إذا الموضوع فيه تصديق من الوزارة وأنا لا أدرى ! فإذن معلومة الفايل قديمة !

ولقد كانت أمور التعليم محصورة في مركزية قاتلة في الوزارة في الخرطوم وأي أمر ضئيل يحتاج إلى تصديق من الوزارة في ذلك الوقت ..

ورددت على ناظر مدرسة المدينة عرب بأنني قبلت التلميذ بناء على ما جاء في هذا الصدد في فايل النظار ، وعلمت فيما بعد أن ذلك التلميذ كان زهرة المدرسة في ذكائه وتفوقه ، وبعد حين حمل إلى البريد رسالة رسمية من الوزارة يخبرني فيها المسؤول أن أبعث إليه برقم وتاريخ موافقة الوزارة على تحويل التلميذ .

وأسقط في يدي وعزمت أن أسكت عن الرد حتى يصلنا نائب مفتش التعليم ومعه مفتش من مدني بعد أيام وكانوا قد أخطروني بزيارتهم ، وكان المسئول في الوزارة الذي وقع على الخطاب المرسل إلى مكروه من الجميع ، وعندما حضر نائب المفتش عرضت عليه الأمر فقال لي ((ده ابن .. وذكر أسم حيوان ، سيبك منه)) ، وعملت بنصيحته ولم أرد وانتهى الأمر عند ذلك الحد . وباكتمال المدرسة ثلاثة فصول نقل إلينا مدرس جديد ارفع في درجته الوظيفية من بقية المدرسين مما يؤهله ليكون نائباً للناظر وبذلك ارتفعت هيئة التدريس إلى أربعة مدرسين إضافة إلى الناظر والمدرس الوافد الجديد واسمه صلاح من أبناء أمدرمان أيضاً ، ولعله كان مكتوباً على أبناء العاصمة المثلثة (الخرطوم وأمدرمان والخرطوم بحري) أن يخدموا

ويتنقلوا في أقاليم السودان المختلفة وذلك لتمركز معظم المدارس والمتعلمين في العاصمة في ذلك الوقت .

وكانت مجموعة المدرسين العاملين معي جيدة ولكن يميزها فروق في الطباع ككل البشر ، فالشيخ العجب وهو أكبرنا سناً كان رجلاً ودوداً طيب القلب نشطاً خدوماً وقد عرض على أن يكون مسئولاً عن الطابور الصباحي ومخزن الغذاءات وكتابة إيصالات المصروفات الدراسية للتلاميذ فقد كانت الدراسة بمصروفات في ذلك الوقت ، وقد أزاح عني حملاً ثقيلاً بذلك وكان خطه جميلاً على غير عادة خط الشيوخ ، وكان له نشاط خارجي وهو إلقاءه دروس في الدين بعد صلاة العصر في جامع البلدة ، فهو أنصاري عريق وقد كان قبل مجيئه إماماً لجامع الأنصار بحي ودنوباوي بأمدرمان ، ويميزه طول في بنية متينة وله صوت جمهوري (استريو) وكان يلبس جلباباً واسعاً وعمامة وكان الجيب الأيمن لجلابيته مائلاً دائماً ينوء بما يحمله داخله وهو جزلان (محفظة نقود) ضخم أشبه بالكيس في حجمه وتجد في هذا الجزلان ابتداءً من النقود إلى بكرة الخيط والإبرة وطوابع البريد فهو مستودع جامع شامل .

وكان له ثلاث زوجات ، معه واحدة واثنتان في داره في أمدرمان وكل أسبوعين يبدل الزوجة فيأخذ من كانت معه إلى أمدرمان ويجئ ومعه أخرى ، وقد كانت له حيلة ظريفة للذهاب إلى أمدرمان وهي رحلة تستغرق ثمانية ساعات باللوري في سكة غير ممهدة ، وفي ذلك الوقت كانت مركزية الوزارة طاغية وقد أتانا منشور منها لكل المدارس في السودان يحظر سفر المدرسين من الأماكن عملهم إلا بإذن

مسبق من الوزارة ، وكان شيخ العجب يأتي إلى مكتبي منزعجاً ويقول لي : (جنابك جاني خبر أنه الأولاد عيانين جداً ولا بد من حضوري فعاوزك تديني إذن أسافر بعد الحصة الثانية يوم الخميس وحأكون بكرة إن شاء الله في المناقل في الساعة عشرة ليلاً) وارد عليه قائلاً (يا شيخ العجب إنت عارف منشور الوزارة فبالله ما تدخلني في إحراج) ويرد في صوته الجهوري في شبه اعتذار (والله لا يمكن أسبب ليك أي إحراج وما في زول يعرف أي حاجة وما بتأخر دقيقة) ، وفعلاً يسافر ويرجع في الميعاد الذي حدده تقريباً ، وعلمت أن سفر مولانا من أجل إستبدال زوجة .. (وصريتها) له ، وفي المرة القادمة عندما مثل أمامي طالباً الإذن للسفر بحجة مرض العيال جابهته بقولي (بطّل الحركات دى وقول لي ماشي تغير المره (المرأة) وأطلق ضحكة داويه وقال لي (عرفتها !) .. وكنت قد نهيته بمناداتي بجنابك وأني أفضل كلمة أستاذ وقلت له أنني لست ضابط جيش أحمل على كتفي نجوم ، أحتج قائلً (لا يمكن لازم نديك حقك كامل) وأصر على كلمة جنابك .. وسألته عن كيفية معاملته لزوجاته الثلاث اللاتي يسكن معاً في بيت واحد ، فأجابني (ما في مشكلة) فقد وزع الأعمال المنزلية بينهن فواحدة عليها الطهي والثانية عليها عواسة الكسرة والثالثة عليها النظافة وأنه يعطيهم مصروف بالتساوي ، والشيخ له موارد مالية أخرى من كد يده فهو سمسار وحداد وبائع كتب خاصة كتيب راتب المهدي وهذا يبيعه أحد أولاده في قطار الغرب وكثير من ركابه من طائفة الأنصار .

ألا رحم الله الشيخ العجب رحمة واسعة ..

ونجيء إلى الأستاذ (ع) وهو بدين الجثة وكثير الأكل طول النهار والليل ولا يخلو جيبه من الفول أو التمر أو أي شيء يؤكل ، وتبعاً لذلك فإنه كثير الذهاب إلى المرحاض فهو كالدجاج يأكل باستمرار ويزرق باستمرار . وهو طيب القلب ضحوك ولا يغضب مهما سخر منه الزملاء أو تعمدوا إغاظته . وكان يسكن في حجرة لوحده ، ومن عادته التحدث بصوت عال مع نفسه عندما يكون وحيداً في الحجرة موصداً بابها عليه ، ومن لا يعرفه يظن أن بالحجرة شخصان يتحدثان إلى بعضهما ، ومن الغريب أن وزنه يزيد في رمضان لأنه لا يفتر من الأكل منذ الإفطار جتى السحور ! ومن غريب ما حدث ذات رمضان أننا كنا مدعوين إلى إفطار رمضاني عند أحد كبار التجار وكعادة السودانيين كان هناك الكثير من أصناف الأكل والعصائر والشربات كما نسميها (المويات) ، وأخذ الأستاذ يعب من الأشربة ويلتهم الأطعمة حتى وقع إلى جانبه مغشياً عليه ، وأصابنا هلع وخشينا أن يموت وصببنا الماء على رأسه ووجهه ، وبعد قليل أفاق وفتح عينيه ، وبدأ يأكل من جديد ، ومنعناه بالقوة من تناول المزيد من الأكل ، وكان لا بد من أن نغادر فهو الحل الوحيد لنبعده عن الأكل .. أما المدرس الآخر فلديه شيء من (العوارة) ، ويهتم بهندامه بشكل مبالغ فيه ويمسح شعره بالدهان ويدهن بشرته بالكريمات ، ويحلق شاربه ، وشعر صدره ! ولكن ليس به تخنث ولعله شب وسط جمع من الإناث ..

وأهل المناقل كرماء وخاصة مع الأغراب وكانوا يظهرون لنا احتراماً وتقديراً وكانوا يتبارون في دعوتنا إلى منازلهم للغذاء ويذبحون

ذبائح من الضأن للمناسبة ، وتتوالى هذه الولائم خاصة في رمضان والعيدين ، وكان عمدة المنطقة الشيخ محمد عبد الباقي رجلاً سمح السمت كريماً طيب النفس أبيض الأخلاق كثيابه البيضاء الناصعة المكونة من قميص (عراقي) وسروال وثوب ومركوب وكذلك أخوه ونائبه في نفس الوقت إبراهيم يلبس نفس اللباس الأبيض النظيف كالثلج ..

وكان العمدة يدعونا إلى داره من حين لآخر للغداء ويخدمنا بنفسه وكانت مائدته عامرة دائماً بأطايب الطعام ، وكانت صواني الأكل توضع فوق مفارش على أرض الصالون الواسع المغطاة بالسجاد ، وبعد الأكل يجلس المدعوون على الكراسي الوثيرة المحاطة بالصالون من جوانبه وتدور عليهم كاسات الشاي وفناجين القهوة وتتشقق (الونسة) السودانية ، وفي إحدى هذه الأحاديث قال أحدهم أن الرجل إذا فترت همته الجنسية لا يستطيع أن يرفع إبهام قدمه ، وانتقل الحديث إلى موضوع آخر ، ولكن لحظت أن مهندس المجلس الريفي كبير السن وكذلك رئيس الحسابات يحاولان خفية تحريك إبهامي قدميهما ! وألجمت نفسي من الضحك دون جدوى وانفجرت ضاحكاً _ وكانت الكلفة مرفوعة بين الجميع _ وقلت عمي فلان وفلان _ المهندس ورئيس الحسابات _ باين عليهم انتهوا جنسياً أو كادوا لأن كل واحد منهما يحاول رفع إبهام قدمه ، وثارت عاصفة من الضحك من الحاضرين وهما يحاولان بحرارة دفع التهمة عنهما ..

ومهندس المجلس الريفي ليست بينه وبين الهندسة صلة لأنه كان منجد عربيات وربما صلته الوحيدة بالهندسة هي المتر الذي يقيس به

قماش التجنيد ولصلته الحبيبة بضابط المجلس ولكونهما جيران في الحي وضعه في هذه الوظيفة ، وضابط المجلس نفسه كان كاتباً في زريبة العيش ولكن ابن عمه كان عضواً في المجلس العسكري العالي لإنقلاب عبود وأراد المجلس أن يمد مواسير الماء في المنازل ، وأخذ المهندس يعد لهذا العمل الكبير ، ووجد أن خط المواسير يمر عبر دار أحد المواطنين ولا بد من خرق جداري الرجل لتمرير الماسورة ، ولحسن الحظ كان بالبلدة شاب من أهلها يدرس الهندسة بالمعهد الفني بالخرطوم ، وقامت مشاجرة بين صاحب المنزل والمهندس وكان الشاب حاضراً ، فأخذ المهندس جانباً وهدأ من هيجانه وقال له أن الأمر بسيط وما عليك إلا أن تعمل زاوية قائمة وتمد الماسورة حول الحائط ، فرد الباشمهندس قائلاً ((أنا الزاوية قايمة والكلام الفارغ بتاع الكتب ده ما بعرفه ، حأقد الحيطة ويعني حأقد الحيطة)) وقد كان !

وكان يسكن جاراً بالحائط لإبراهيم سليمان والذي كنت أسكن في داره قبل أن أرتحل إلى داري الحكومية ، السيد فوزي معتمد مشروع المناقل وهو مسئول عن توزيع الحواشات (قطع الأراضي الزراعية) على المزارعين ، وهو يسكن منزلاً مؤجراً ولكن زوده بكل وسائل الراحة وجلب له مولد كهربائي فكان المنزل الوحيد الذي يضاء بالكهرباء ، وكان رجلاً حاتمياً في كرمه ولا يخلو منزله ليلاً من ضيوفه المقربين من مفتشي الغيط وكبار المفتشين في المشروع وله ثلاجة خاصة في ديوانه وله طباخ خاص يعد له العشاء اليومي المكون من الدجاج الصغير المشوي واللحوم ، ويجلس في المساء

ﻓﻲ باحة أمام الصالون علي طاولة مستديرة تحف بها المقاعد وفوق الغطاء النظيف أكواب من الزجاج وبجواره وضعت ترابيزة عليها الراديو وبجانبه ترمس كبير مملوء بالثلج وكرتونة مليئة بزجاجات الشري من نوعية جيدة وأمامه صناديق السجاير وطفايات السجاير ، ويتوافد أصدقاؤه منذ الثامنة مساء وتستمر السهرة حتى الحادية عشرة ليلا وبعد العشاء الشهي ينفض السمار ويركبون سياراتهم عائدين إلى ديارهم ، ولا يقل عدد الحضور عن ثلاثة ﻓﻲ كل ليلة ، والسيد فوزي شخصية ساحرة ﻓﻲ أواخر الخمسينات من عمره ، وقبل الجلوس إلى مجلسه العامر يلاحقه ﻓﻲ داره أصحاب الحاجات وكانت لديه مقدرة فائقة علي حل المشاكل وترضية الناس ، ولكن كان لا يستقبل أحدا له حاجة عندما يجلس جلسة المزاج وعرف عنه ذلك فكان لا أحد يعكر عليه صفو جلسته المزاجية ..

و كانت المدرسة تقع ﻓﻲ طرف البلدة ويقع سكني مع إبراهيم ﻓﻲ الطرف الآخر وذلك قبل الانتقال إلى منزل الناظر قرب المدرسة وكنت اقطع هذه المسافة مشيا ، ولم يقلقني شئ سوي الكلاب المنتشرة ليلا عند عودتي من المدرسة ، وقد تسلحت بعصا وبطارية Torch تنير لي الطريق الذي كان ممتدا بجوار المقابر ، فقد كانت الكلاب تنبحني وتجري ورائي ﻓﻲ حركة هجومية ولقد علمني أحد المدرسين حركة تخيف الكلاب وتبعدهم عني وهي ان اجلس فجأة وأقوم منتصبا بسرعة ، ولقد جربتها فكانت الكلاب تتوقف وتنبح ﻓﻲ مكانها ..

و علي ذكر الكلاب فقد احضر لي خفير المدرسة جروا جميل

الشكل فروته سوداء لامعة كزيتونه سوداء ، ورغم حبي من أليف الحيوانات للقطط فاني أخذت الجرو وأطلقت عليه اسم شين وهو اسم لفيلم مشهور ولبطل الفيلم في نفس الوقت من أفلام رعاة البقر الكابوي الأمريكية ، وكان بطل الفيلم يرتدي ملابس سوداء من قمة رأسه حتى قدميه ، وكبر الجرو بدرجة مدهشة ، وصار ينبح بقوة ويشب علي حائط المنزل إذا سمع أية حركة في الشارع قرب المنزل ، وسبب لي إزعاجا واقلق منامي ، فرددته إلى الخفير وأبقاه معه في المدرسة ، فكان الكلب يحرس والخفير يغط في النوم ، وكنت من حين لآخر أتفقد الحارس في الليل ووجدته نائما علي عنقريب صغير (هبابي) وهززته لاوقظه فقام مفزوعا لما رآني وقال لي ((جنابك أنا صاحي)) ، والكلب يهز ذيله مرحبا بي ، وصار شين صديقا لكل تلاميذ المدرسة ويلاعبونه ورغم شراسته عند قيامه بواجبه الوظيفي في الحراسة فانه كان وديعا مع التلاميذ ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد عضه كلب مسعور وبدأت تظهر عليه أعراض السعار ، واتصلت بالشرطة لتقوم بإعدامه ، وتوسل إلى التلاميذ لابقيه ولكن شرحت لهم خطورة دائه عليهم وعلي اقرب الناس إليه وانه سيموت في النهاية بعد أن يعقر كثيرا من الناس وسوف يكون مصيرهم إلى الموت مثله ، وكان يوما حزينا لنا جميعا يوم إعدام شين وشعرنا بأننا فقدنا عزيزا غاليا ..

كانت المناقل حينذاك مدينة اقرب إلى القرية الكبيرة منها إلى المدينة وكانت معظم بيوتها من الطين وقطاطي من القش وبضعة بيوت من الطوب الأحمر لكبار التجار والقلائل من الموظفين الذين

يعملون بمدينة مدني عاصمة المديرية ، ولم يكن بها كهرباء والماء ينقل الي البيوت بالخرج علي ظهور الحمير من (الدونكي) أي فنطاز الماء الكبير في طرف البلدة والذي تضخ فيه الماء من بئر عميقة إلى صف من الحنفيات ..

و كان السوق صغيرا ولكنه عامر بالبضائع وكان هناك تجار كبار وكان أحدهم لا يعترف بالبنوك ويضع كل نقوده في خزينة ارتفاعها بطول جدار الدكان تقريباً ويحشر فيها الأوراق النقدية حشراً وهذا التاجر وحده أشترى أثنى عشر لورياً جديداً من ماركة بدفورد والتي كانت تسمى (السفنجة) ، وهذا التاجر نفسه قابلته ذات مرة حاملاً حزمة من القصب على صدره بالثوب والعراقي إلى الزريبة التي يضع فيها أغنامه .. وتجار المناقل يتاجرون أساساً بالذرة ولكل واحد منهم مطامير كبيرة لتخزين الذرة ، والمطمورة عبارة عن حفرة واسعة في باطن الأرض يدفن فيها الذرة ويحفظ لوقت الحاجة ويحتفظ بجودته لعدة سنوات ، كما أن لديهم حواشات يزرعونها ، ولكن معظم سكان المناقل من المزارعين . وكان بالبلدة مكتب بريد ومستوصف طبي يديره مساعد طبيب وكانت هناك نقطة للبوليس يديرها (شاويش) رقيب بالبوليس ، وكانت هناك مدرسة أولية للبنين وأخرى للبنات ومدرسة صغرى للبنين ، وكان بالسوق فرن ومطعم يملكهما إبراهيم سليمان وهناك بار لبيع الخمور . وكان حكمدار النقطة (الرقيب) يسهر معنا أحياناً في نهاية الأسبوع وكان يرسل سيارة النقطة اللاندروفر الجديدة مع السائق إلى مدني ليأتي من هناك من مكان معين عرقي التمر الممتاز ! أما ضابط

المجلس الريفي فقد كان يكتفي بزجاجة واحدة من البيرة .. وهو رجل داهية ولقد علمت بعد أن انتقلت من المناقل أنه حوكم بالسجن في أمور تتعلق باختلاس المال العام والرشوة وإدارة أعمال المجلس، وكان يثور حوله كثير من الدخان والشبهات تكشف أخيراً عن نار ألقت به في غياهب السجن .. وأذكر أنه جاء إلى المدينة فريق من المراجعين من ديوان المراجع العام مكون من رئيس وعضوين وذلك لمراجعة حسابات الوحدات الحكومية وكان هذا دأب ديوان المراجع العام سنوياً فأنه يبعث المراجعين إلى جميع أنحاء السودان لمراجعة الحسابات ، ولم يستثنوني أنا صاحب الوحدة الصغيرة المكونة من فصل دراسي واحد ، فقد راجعوا دفاتر إيصالات المصروفات المدرسية رقم ١٥ ومقابلتها بدفتر تسجيل الإيصالات رقم ٦٧ ، وكذلك مراجعة دفاتر صرف المواد الغذائية من المخزن والمتبقي منها ، ومراجعة دفتر النثرية والمتبقي منها .. ومنذ حضور المراجعين ضرب ضابط المجلس حولهم حصاراً محكماً وبقي معهم كظلهم ليلاً ونهاراً وحلف بالأيمانات المغلظة أن تكون ضيافتهم على المجلس فكان يذبح لهم يومياً ، وكان رئيسهم يتعاطى بنت الحان فوفر له الشراب كل ليلة، ومكثوا خمسة أيام في البلدة، وفي آخر ليلة لهم في البلدة أولم الضابط وليمة عشاء فخمة وأحضر مغنيين من مدني ، وخرج الضابط من المراجعة سليماً ! وللحق كان مراجعو ديوان المراجع العام عندما خبرتهم في أماكن عديدة أمناء عفيفين لا يجاملون في الحق ..

ومن مآثر الضابط أنه أقام ملعباً للتنس أفدنا منه في التريض وخاصة الذين تقدموا في السن ولا يقدرون على مزاولة رياضات الشباب كلعب كرة القدم والسلة ..

وحصل حدث سعيد في حياتي فقد تزوجت وفي اليوم الثالث لزواجي ويداي وقدمي مخضبات بالحنة السوداء سافرت وعروسي وأمها بالبص السريع إلى مدني ، وأخذت عربة تاكسي إلى مكتب التعليم وقابلت مفتش التعليم وطلبت منه أن يمدني بسيارة من سيارات المكتب لتنقلني إلى المناقل وأشار على باقتضاب أن أذهب لنائبه في هذا الأمر ، وخرجت من عنده وفي نفسي شيء من الاستياء ، وذهبت إلى نائب المفتش الأستاذ محي الدين دياب _ رحمه الله رحمة واسعة _ وكان رجلاً في قمة الذوق والرقة وكرم الخلق وهنأني بالزواج وقام معي على الفور وصرفنا التاكسي وأخذنا في سيارته إلى منزله وكان قبلها قد أمر كبير السائقين ليجهز عربة للسفر إلى المناقل وليوافينا السائق في داره بعد ثلاث ساعات ، ووصلنا إلى داره وكانت زوجته عند الجيران (تمشط) شعرها فاستدعاها وقفل راجعاً وهي معه، ورحبت بنا بحرارة ، وسقتنا عصيراً بارداً ثم أعدت لنا طعام الغذاء، وبعد أن فرغنا من تناول الطعام وشراب الشاي حضرت العربة فودعونا حتى باب الدار ، وتأثرت بفيض من المشاعر الممتنة وقلت في نفسي شتان ما بين المفتش ونائبه !

وفي نهاية العام الثالث للمدرسة وأنتقل التلاميذ للصف الرابع ومن ثم تكتمل المدرسة، وكان المقرر حسب قوانين الخدمة المدنية أن يترقى ناظر المدرسة ذات الداخلية إلى الدرجة DS وهي درجة عالية في السلم الوظيفي، ولكن حدث ما لم أتوقعه فقد صدر كشف التنقلات ووجدت نفسي منقولاً ومنتدباً ناظراً لمدرسة حي الضباط

الأهلية بأمدرمان المعروفة بمدرسة إبراهيم سوميت بعد موت صاحبها وناظرها ..

وهي مدرسة ذات نهر واحد أي بأربعة فصول ودرجتها الوظيفية هي نفس درجتي الحالية الآن ! والمرحوم إبراهيم سوميت صاحب تلك المدرسة قام بعمل مجيد فقد تخرج من مدرسته كبار السن الذين فاتهم قطار التعليم وصاروا موظفين في الحكومة وكانت المدرسة تعمل نهاراً وليلاً مما أتاح الفرصة للعاملين بالألتحاق لتلقي التعليم .. ولكن كان معظم المدرسين بها غير مدربين أو مؤهلين تربوياً حسب معايير وزارة التربية والتعليم .. هذا بينما حازت مدرسة المناقل شهرة واسعة كمدرسة نموذجية ، وامتلأت نفسي غيظاً وغضباً فقد جوزيت عن عملي جزاء سنمار ، وحرمت من مدرستي التي بذلت فيها عصارة تجاربي وغاية جهدي وكنت أحبها كما يحب الوالد أبنه البكر أول ما يرزق به .. أليست هذه المدرسة هي التي أنشأتها وفق تصور خاص ؟ ألم يثمر ذلك التصور وطاب أكله ؟! ولماذا أحرم من الترقية وقد استوفيت أشراطها ومنها اكتمال المدرسة ؟! وشعرت بأني ظلمت، وأحساس الظلم لو تعلمون أليم بل ألمه شديد ! وأذنت شمس بقائي في المناقل بالمغيب ، وغادرتها كسير القلب حزين النفس فقد أحببت ناس المناقل الطيبين وأحببت المدرسة كأنها فلذة من كبدي ، وأحببت زملائي الذين عملوا معي وكنا أخوة في أسرة واحدة جمعنا الود والاحترام فى آصرة واحدة ، وعلى كثرة ما عملت بعدئذ في مدارس شتى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في سوداننا الحبيب تظل مدرسة المناقل تحتل في قلبي مكاناً عالياً ، وربما رددت مع الشاعر

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

أو الآخر القائل

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لو دعت شيبي موجع القلب باكياً

في مدرسة حي الضباط الأهلية (مدرسة سوميت)

وذهبت إلى المدرسة ، ووجدت أن بها مدرسان وأعداد التلاميذ في كل من الفصول الأربعة لا يتعدى الثلاثين في كل فصل واحد ولا يوجد كتب مدرسية وكراسات وطباشير ، وكانت المدرسة تجاور مدرسة المؤتمر الثانوية الشهيرة وناظرها المقتدر الطيب شبيكة .. وذهبت إليه وكان عضواً في مجلس إدارة المدرسة ، وشرحت له الموقف وكنت قد أعددت إعلاناً لطلب مدرسين لنشره في الصحف اليومية ، ولم يتوان الأستاذ الشهم العم الطيب من تقديم كل عون، وأمد المدرسة بالكراسات من مخازن مدرسته ، وعمل معي المعاينة في مكتبي لاختيار المدرسين الجدد ، وتعاقدت على إدخال الكهرباء إلى مبنى المدرسة ، وانتظمت الدراسة على غرار النظام والنهج في المدارس الحكومية ..

وذهبت مغاضباً إلى الوزارة وقابلت المسئول عن التعليم الأوسط وكان في ذلك الوقت هو صاحبي القديم الذي قاسمته مكتبه في مكتب تعليم مدني عندما تعينت ناظراً لمدرسة المناقل الوسطى وهو

الأستاذ دهب عبد الجابر ، وأخبرته بما يجيش به صدري من احتجاج ، ورد على بقوله بأنهم نقلوني إلى مدرسة قريبة من أهلي فقلت لهم أنكم نقلتوني من مدرسة نموذجية إلى خلوة – بهذا النص – وأني لن استمر في هذه المدرسة ولو استدعى الحال لاستقالتي لأنني اعتبر هذا النقل إنقاصاً لمركزي وتبخيساً لقدري ، وقال لي بلهجته الحلفاوية ((خلاص بلاش حماقة .. حنشوف لك مدرسة كويسة ولكن خارج مديرية الخرطوم – مستعد تمشي)) ، فرددت عليه بالإيجاب ، فقال لي ((خلاص بعد أيام حيجيك جواب النقل)) وفي نهاية الشهر وصلني خطاب من الوزارة بنقلي إلى مدرسة عطبرة الأميرية الوسطى .

في عطبرة

ووصلت مدينة عطبرة بالقطار في عام ١٩٦٢ ، وحدثت لي مصادفة سارة فقد كان مسافراً على نفس القطار ضابط في الجيش تخرج لتوه من الكلية الحربية وكان ذلك الضابط الملازم ثاني أحد تلاميذي في مدرسة الأحفاد الوسطى بأمدرمان في عام ١٩٥٤ ، وهو متوجه الآن إلى وحدته بسلاح المدفعية والذي كانت رئاسته في عطبرة ، وكانت حكومة الفريق عبود قد استنت أن يركب كل ضباط الجيش ابتداء من الملازمين الدرجة الأولى بالقطار ، وكنت أنا بدرجتي الوظيفية جي G أركب الدرجة الثانية ، ولكن تلميذي الضابط فارس حسني أصر بشدة أن يركب معي في الدرجة الثانية إلى عطبرة .. عطبرة مدينة كبيرة وكان بها رئاسة وورش السكة الحديد في السودان فهي مدينة عمالية في المكان الأول وكانت نقابة عمال السكة

الحديد أكبر نقابة وأكثرها عضوية في السودان وكان لها القدح المعلى في الكفاح ضد الاستعمار وفي قيادة النضال المطلبي .. وتتميز المدينة بآلاف الدراجات التي تجري في شوارعها وتستحق أن يطلق عليها مدينة الدراجات ، فكل عامل يمتلك دراجة وهي وسيلة التنقل الرئيسة في المدينة فهم يركبونها ولهم فيها مآرب أخرى منها حمل المتاع ..

وتقع المدرسة الأميرية في حي موظفي السكة الحديد بمنازله الأنيقة والذي يقع بجوار النهر ، والمدرسة عريقة ومن أوائل المدارس الوسطى في السودان ، ويجاورها منزل أنيق للناظر . وبالمدرسة بستان مزروع بأشجار الفاكهة وملحق خارج أسوارها وملاعب من النجيلة لمزاولة الرياضة . وأرض المدرسة تكسوها النجيلة وتحفها بعض الأشجار ، والمدرسة ذات النهر الواحد جيدة من جميع الوجوه سواء في مدرسيها أو تلاميذها أو تجهيزاتها ، وكنت في كثير من الأحيان أجلس على كنبة في مكتب المدرسين ، ويأتي أحد أولياء أمور التلاميذ ويتجه رأساً إلى الأستاذ عمر وهو رزين الشكل كثيف شعر الرأس أشيبه ، بحسبانه ناظر المدرسة ، ويوجهه الأستاذ عمر إلى ، والأستاذ عمر درعمى (خريج دار العلوم بمصر) ويدرس اللغة العربية والدين بالمدرسة .. ويوجد في مخزن المدرسة عشرات الملفات القديمة المكدسة والتي علاها الغبار ، وذات مرة دخلت إلى المخزن وأخذت اقلب في الملفات القديمة وعثرت في أحدها على خطاب كتبه الزعيم إسماعيل الأزهري عندما كان مدرساً بهذه المدرسة في الثلاثينات من القرن العشرين ، والخطاب بخط يده وكان موجهاً لمفتش المركز

بواسطة ناظر المدرسة يطالب فيه بتخصيص منزل حكومي له ، فقد كان مفتش المركز الأنقليزي هو الحاكم بأمره وتتبع له جميع المصالح الحكومية وهو الذي يمنح المنازل الحكومية للموظفين .. وفرحت بالخطاب وأسرعت أعرضه على المدرسين ، وشعر الجميع بشيء من الزهو لتدريسهم في نفس المدرسة التي درس فيها الزعيم رافع علم الاستقلال .. ومدينة عطبرة التي تدعى مدينة الحديد والنار والتي ذكرت أنه أولى أن يضاف إلى صفاتها مدينة الدراجات ، أرى أن يضاف إليها أيضاً وصف مدينة الدين أي السلف ، ويبدو أن ضئالة رواتب العمال وضخامة من يعولونهم يجعلهم يلجأون إلى الدين يستعينون به على توفير حاجياتهم ولقد تغلغل الدين في حياة الناس إلى أشياء عسيرة التصور مثل قص الشعر عند الحلاق وأخبرني صديقي العطبراوي أن الذين لم يعصمهم دينهم يتعاملون حتى مع بنات الهوى بالدين فقد كان البغاء علناً لوسألت صديق طبيب عن أكثر الأمراض شيوعاً بين مواطني عطبرة فأخبرني أن السل منتشر بين الناس ، والمعروف أن هذا المرض الخبيث من أمراض الجوع وسوء التغذية ، وتتميز هذه المدينة أيضاً بريح تهب عليها في الصيف تحمل أتربة كالدقيق في نعومته (سفاية) ، ولا منجي ولا مهرب منها مهما أقفلت كل منفذ فأن الغبار الناعم يتسلل إلى داخل الحجرات .. ويغطي كل شيء ، وذكرتني بهبوب أمدرمان عندما يصحو الواحد وهو متغطي في الحوش ليجد نفسه مرتسماً على الفراش وحوله تراب، ومن المستحيل النوم داخل الغرف لأنها تكون من الحر كالفرن ! وجاءني خطاب رسمي من المراجع العام من حكومة السودان يستفسر فيه عن العجز المالي في المصروفات المدرسية وهل سددته أم لا ؟!

ولا عطاء خلفية عن الموضوع فأنه كانت المدارس بمصروفات يدفعها أولياء أمور التلاميذ ، وألغيت المصروفات المدرسية بعد ثورة أكتوبر المجيدة في عام ١٩٦٤ ، وكان الناظر الأسبق قد امتدت يده إلى المصروفات المدرسية وبدلاً من أن يوردها إلى خزينة الحكومة وردها إلى جيبه ، وكشفته المراجعة وقدم للقضاء وحوكم بالسجن وبرد المبلغ الذي أختلسه، ورددت على المراجع ذاكراً له أن الناظر المعني بالحادثة حوكم بالسجن وهو مازال يقضى العقوبة ، وجاء مكانه ناظر آخر ونقل وجئت أنا بعد الناظر الآخر ولا دخل لي بهذا الموضوع ، وما يهمني من إيراد هذه الحادثة هو مدى الحرص على المال العام والمتابعة اليقظة لديوان المراجع العام .. وكان أبناء الفقراء معفيين من المصروفات على أن يبرز ولي أمر التلميذ شهادة من المجلس البلدي من شيخ الحارة تبين أن الرجل فقير ، وهذه الشهادة تسمى شهادة الفقر .. وأحضر لي أحد التلاميذ هذه الشهادة وقال لي أن والده مريض ولا يستطيع الحضور ، واستدعيت أحد المدرسين القدامى بالمدرسة ومن أبناء عطبرة للتأكيد ، فدهش المدرس وعنف الولد وقال لي أن والد هذا التلميذ من أكبر تجار عطبرة ! واكتفيت بأن قبلت الولد بالمصروفات الكاملة ولم تكن باهظة في ذلك الوقت ولعلها كانت ثمانية عشر جنيهاً في العام وتسدد على ثلاثة أقساط ..

ولست أدرى هل اتخذت عطبرة أسمها من النهر أما اتخذ النهر أسمه منها ، فهذا النهر في أوان فيضانه يكون طامياً عافياً في عنفوان رهيب ويندفع هائجاً محتملاً معه أخشاباً وحيوانات نافقة وزبداً رابياً وكثيراً من الغثاء ، وبرغم هذا العنفوان والذي يهدد حياة

من يجرؤ على الاقتراب منه فقد رأيت بعض الناس في بقعة معينة عند كوبري عطبرة وهم عراة الصدور يقفون على ضفة النهر وعندما يشاهدون من بعد كتلة من الحطب يلقون بأنفسهم في الماء ويسبحون لانتشالها من الماء وهم ينجحون في ذلك في أغلب الأحيان ، وكنت أعجب بقوة ومهارة أولئك الناس !

ومن الأمور التي لفتت انتباهي أنه كان هناك بار أو متجر لبيع الخمور صاحبه سوداني ود بلد ، وعلمت أن السلطات لا تمنح رخصة بار لمسلم ولذلك يحتال بعضهم مثل ذلك السوداني ويستخرج الرخصة بأسم شخص مسيحي .. وقد كان القانون يحظر بيع وتعاطي الخمور الكحولية مثل الويسكي والجن والكونياك للسودانيين ولكن يبيح فتح الانادي لبيع المريسة ولذلك كان يداهم بيوت إعداد العرقي وتقديم صانعاته للمحاكمة ..

ولا يسع المرء أن يغادر هذه المدينة العمالية العظيمة دون أن يذكر حادثة تقف شاهداً على وطنية وأباء الضيم وصلابة المقاومة لأبناء هذه المدينة ، فقد دأبت حكومة عبود أن تحتفل كل عام بيوم ١٧ نوفمبر وهو تاريخ إنقلابهم واستيلائهم على السلطة ويمهدون للاحتفالات بالأعداد لها قبل مدة كافية وكانوا يعتمدون على طلبة الثانوية في المشي في طابور السير الذي يسبق المباريات الرياضية المختلفة وكذلك المشاركة في الألعاب المختلفة ، وكان الطلبة يزاولون التدريبات بكل همة ونشاط ، وفي صباح يوم الاحتفال أضرب الطلاب ، وأوقعوا المسئولين في ورطة عويصة ، وخرجوا منها بأن أحضروا عمال البلدية وبعض عساكر من الجيش وألبسوهم زي الطلبة وسار الطابور في

فوضى شاملة بين سخرية وضحك الجمهور .. وقد دفع الطلبة ثمن فعلتهم تلك غالياً ، فقد فصل منهم ما فصل وأوقف من الدراسة من أوقف ، وهكذا كان انتقام العسكر ..

وجاءت ذكرى الاستقلال في يناير من العام الجديد ، وعملنا لافتة قماش كبيرة كتبنا عليها ((مدرسة عطبرة الأميرية الوسطى تهنئ الشعب السوداني بعيد الاستقلال المجيد)) . وعلقنا اللافتة على واجهة المدرسة وأحطناها بالأنوار في الليل ، وكنا لم نفعل ذلك في احتفال ذكرى انقلاب ١٧ نوفمبر أو الثورة كما يقولون .

ولم أمكث كثيراً في عطبرة بل بقيت فيها عاماً واحداً وفي نهاية العام الدراسي صدر كشف التنقلات وظهر أسمى مترقياً ومنقولاً ناظراً لمركز تدريب المعلمين بمدينة التونج في مديرية بحر الغزال بجنوب السودان .. ونزلت الترقية برداً على قلبي ولم أفرح بترقية من قبل ومن بعد قدر فرحتي بتلك الترقية فقد وصل راتبي إلى الخمسين جنيهاً شهرياً وهذا المبلغ حينذاك يمهر عروساً ، وأكثر من ذلك أن الدرجة الجديدة دى إس DS تتيح لي السفر بالدرجة الأولى بالقطار وإذا دفعت مائة وخمسين قرشاً فأنني أسافر بعربة نوم ، وكانت الدرجة الأولى في غاية النظافة والأناقة دعك عن درجة النوم الفاخرة والتي كان بكل كابينة سريران والخدمة فوق الممتازة وما عليك إلا أن تضغط على زر الجرس فيلبي الفرّاش النداء فوراً وكانت منعزلة عن بقية عربات القطار ولها باب خاص ، كما كانت هذه الدرجة الرفيعة تتيح لي السفر بالطائرة إلى الأماكن النائية وأذنت شمس

بقائي بعطبرة بالمغيب لتشرق من جديد في بقعة أثيرة من سوداننا الحبيب وهي جنوب السودان ..

في التونج :

في هذه المرة انتقلت بالطائرة من الخرطوم إلى مدينة واو عاصمة مديرية بحر الغزال ومنها سأنتقل بالعربة إلى مدينة التونج ولقد استغرقت الرحلة بالطائرة ساعتين ونصف في سماء ملبدة بالغيوم ومطبات الهواء . ولقد ذكرت تفصيلاً فترة عملي في التونج في كتابي (أيام التونج) ، ولكن لا بأس من إيراد بعض الخاطرات ، فقبل مجيئي إلى الجنوب كنت أكن في دواخلي شعوراً خاصاً مبهماً وضح جلياً عند فحصي له بأنه مزيج من التوق للعمل بالجنوب بإنصاف وجدية لتعويض ما فاتهم قدر وسعي وطاقتي وأن أمحو شعورهم بالظلم من الشماليين وشعوري الصادق بأن الشمالي لا فضل له على الجنوبي في النسب أو العرق فكلنا عيال الله وأننا جميعاً لأبينا آدم وآدم من تراب ، ووطنت نفسي على أن أضع وراء ظهري مرارآت الماضي من قتل وفظاعات متبادلة نتيجة التمرد الأول في عام ١٩٥٥ الذي قامت به الفرقة الاستوائية الجنوبية وما تلي ذلك من قمع التمرد من الجيش السوداني الشمالي .. وبهذا الفهم وهذا اليقين عزمت على أن يكون عملي في الجنوب ..

وقبل هذا وذاك كان ما يؤرقني إشفاق من هذه المهمة التي سأقبل عليها ، فكنت طيلة عملي أتعامل مع صبية ويعمل معي مدرسون

طالت خبرتهم أو قلت ولكن هذه المرة في مركز تدريب المعلمين بالتونج فأن الطلبة من المدرسين المبتعثين للمركز لتعلم اللغة العربية وللتدرب على تدريسها ، وأن هيئة التدريس تتكون من نظار منتقين من نظار المدارس الأولية ، كما أنها المرة الأولى التي سأتعامل معها مع الجنوبيين .. وأول ما أسرني وأستحوذ على إعجابي المفرط هو تلك الخضرة المترامية فحيثما وجهت بصرك صافحك الزحام من الأشجار الباسقة والحشائش الطويلة، مساحات ومساحات شاسعة من الخضرة البهية على مد البصر والمطر يجئ زخات وانية ، أو ينقلب هاطلاً مدراراً ، والبروق تغمر الفضاء بالأضواء الخاطفة ، والرعود تهز الفضاء بالدوي المرعب والأرض تستقبل فيض السماء بالترحاب .. وينقطع المطر ويبقى الهواء معتدلاً منعشاً ، وهذا الطقس الجميل يسود العام كله .. الشيء الآخر الذي أسرني والذي ينسجم ويتماشى مع هذا الطقس الجميل هم الناس ، فقبيلة الدينكا وهي الغالبة عدداً هنا أفرادها بشوشون واضحين في تعاملهم لا يعرفون الالتواء وتعدد الوجوه وفيهم أمانة وفيهم حب للغناء والرقص ، وتجد كل فرد منهم شاعراً ينظم أغنيته تلقائياً ويغنيها ويرقص عليها ، وفي رأيي أن قمة سموهم الخلقي تتمثل في انتفاء الشذوذ الجنسي لديهم ، وأن داء السرقة منعدم بينهم .. وتعيش في التونج كذلك قبيلة الجور وأفرادها فنانون بالفطرة وهم ينحتون من الخشب أشكالاً من الحيوانات تكاد تنطق ويصنعون عصي وأثاثات رائعة الجمال ، وتراني أتحدث عن الناس قبل أن أتحدث عن البلدة ولعل ذلك راجع إلى الانطباع الأقوى في النفس ، ومدينة التونج مدينة متوسطة المساحة تكتنفها الأشجار والخضرة وكثير من هذه الأشجار من فاكهة المانجو وتنمو هي

والحشائش الطويلة في كل مكان ، وتنقسم المدينة إلى قسمين ، قسم يسكنه الأهالي ومنازلهم قطاطي من القش وقسم به المصالح الحكومية ومنازل موظفي الحكومة ونجد في هذا القسم مكتب مفتش الحكومة المحلية وضابط المجلس الريفي ونائبه والمستشفي ومكتب البريد والسجن والجامع والكنيسة الكاثوليكية وكنيسة البروتستانت ونادي البلدة وسوق البلدة ، ويشق هذا الجانب شاوع طويل يقع على جانب منه متاجر أكبرها لواحد من الشماليين وأثنين من الإغريق . وهناك محكمة السلاطين، وأكبر المؤسسات التعليمية في البلدة هو مركز تدريب المعلمين ويقع في طرف البلدة وهو مدينة قائمة بذاتها بمبانيها ومنازلها وملحقاتها ، وهناك مدرسة متوسطة للبنين ومدرسة صناعية متوسطة للبنين في الطرف الآخر من البلدة وهناك مدرسة أولية للبنين وأخرى للبنات . ومركز تدريب المعلمين بالتونج كان في البدء في عهد الاستعمار مكرس لتدريب مدرسي مدارس الغابة Bush Schools وهي تعادل مدارس تحت الدرجة أو الصغرى في الشمال ، وكان مدير المركز أو العميد كما يسمونه من الإنجليز وبعد الاستقلال وبالتحديد في عهد حكومة الفريق إبراهيم عبود تغيرت مهمة المركز إلى تدريس اللغة العربية وتدريب المدرسين الجنوبيين على التدريس بها وارتفعت مدة التدريب إلى أربع سنوات بالإضافة إلى سنة بعد التخرج يقضيها المدرس في أحد مدارس الشمال الأولية حتى يصقل لغته العربية في محيط يتحدث العربية ، فقد كانت اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم في الجنوب قبل الاستقلال، وحتى في الشمال كانت لغة التعليم هي الإنجليزية في المدارس الثانوية . ولقد درست عندما كنت طالباً في الثانوي جميع المواد بالإنجليزية عدا

التربية الإسلامية واللغة العربية بالطبع ، وكان الطلبة يجلسون لشهادة الثانوية من جامعة كيمبردج بإنجلترا والتي حصلنا عليها بعد إكمالنا دراستنا الثانوية ، وكان الشرط للحصول على الشهادة هو النجاح في اللغة الإنجليزية حتى وأن نجح الطالب بامتياز في جميع المواد الأخرى ..

وأظن أن المدن كالناس فهناك شخص ترتاح نفسك إليه منذ أن تلقاه من الوهلة الأولى وينشرح صدرك إزاءه ، وهناك شخص آخر تستثقله وتنفر منه نفسك من أول مرة تلقاه ، والتونج من المدن مثل الطراز الأول من البشر الذي يدخل قلبك من أول لقاء وقد أحببت مدينة التونج الأرض والسماء والجو والناس ، ولولا التمرد لفضلت أن أقضي بقية عمري فيها ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه! وكان قدرنا نحن الشماليين العاملين في التونج أن نتعرض لأول هجوم في الجنوب تشنه حركة الأنيا أنيا المتمردة بقيادة جوزيف لاقو في ١٨ أغسطس ١٩٦٣ ، وعقب الأحداث المؤسفة والمؤلمة منحتنا الوزارة عطلة طويلة لمدة ٤٥ يوماً نقضيها بين أهلنا في الشمال إلى أن يهدأ بالنا وترتاح أعصابنا المنهكة ونستعيد تماسكنا ، ومن ثم نرجع ثانية لمزاولة عملنا ، وقبل انقضاء العطلة عقدنا نحن مدرسي التونج الموجودين بالعاصمة اجتماعاً لتدارس الموقف وعلى ضوئه نقرر العودة أو لا عودة ، وتمخض الاجتماع عن رأيين متباينين ، وأبنت أنا رأيي بأنني شخصياً لن أعود وكل فرد حر في اتخاذ قراره بالعودة أو عدمها

وذهبت إلى الوزارة وقابلت الوكيل وكان قد زارنا في التونج هو والوزير وكبار المسئولين في الوزارة عقب تعرضنا للهجوم من المتمردين

، وقلت للوكيل أنني لن ارجع للتونج واعرض نفسي للهلاك بدون داع ، فقال لي يا هلال الحالة الآن هادئة والأمن مستتب ولادلل لك علي ذلك سأتكلم الآن مع الحاكم العسكري لمديرية بحر الغزال ، وتكلم أمامي ولديه هاتف يصله بكل مديريات السودان ، تكلم بصوت مرتفع سائلا عن حالة الأمن في التونج ، ووضع سماعة التلفون واخبرني ان الحاكم العسكري طمأنه بأن الأمن مستتب ولا خوف علي المعلمين ، فأجبته أن هذا الكلام لطمأنة الناس وأن الواقع نقيض ذلك ، وأننا عندما كنا في الجنوب ونيران التمرد مشتعلة في كل مكان كان المسئولون في الخرطوم يصرحون بان كل شئ هادئ والأمن مستتب ، ولذلك فإنني لن أعود ومستعد لتحمل عاقبة قراري هذا ، وأجابني أنه في هذه الحالة سيتخذ ضدي الإجراء القانوني وفقاً لقانون الخدمة المدينة وقال لي أن أذهب لمقابلة مساعد الوكيل للمديريات وقابلت الأستاذ حسن أحمد الحاج مساعد الوكيل للمديريات وهو المسئول المباشر عن جميع مكاتب التعليم في السودان ، وحاول أن يثنيني عن قراري ، وانفعلت وقلت له أنتم جالسين تحت المراوح وتشربون الماء المثلج والشاي والقهوة ونحن نعيش في النيران ولا تعلمون عننا شيئاً . وتأثر الرجل وخاطبني بتأثر بالغ قائلاً ((يا أبني كيف تقول لي الكلام ده ؟ أنا في تمرد ٥٥ كدت أفقد حياتي ..)) وتذكرت أن الرجل كان في ذلك الوقت ناظر مدرسة رمبيك الثانوية وحال طلبته وأستاذ جنوبي بينه وبين المتمردين الذين كانوا يريدون الفتك به ..

وطلب مني أن أبين كتابة الأسباب لعدم رجوعي إلى مكان عملي

وأن احضر إليه بعد الغد ، وكان اليوم السبت ، وأبنت تفصيلاً الحالة في التونج من انعدام الأمن والأمان منوهاً أننا معلمون سلاحنا الطباشيرة وليست البندقية وأنه في هذا الجو المكفهر المشبع بالخطر لا يمكن أن ينتج المدرس وحياته مهددة وأنني لست مستعداً لأن أموت ((سمبلة)) كما يقول الجنوبيون أو ((فطيس)) كما يقول الشماليون أي بدون داع أو سبب وجيه ، وفي يوم الاثنين دخلت على الرجل حاملاً أوراق الاستجواب في يدي ومددت يدي لاعطيها له ، وأشار إليه بكلتا يديه وقال لي ((خليها معاك . خليها معاك . أمبارح الجنوبيين في الخرطوم كانوا حيكسروا عربيتي ويقتلوني وطلعت منهم بأعجوبة خليكم أنتو الفي الجنوب)) ورفع سماعة التليفون وتكلم إلى نائبه قائلاً له أن يلحقني بأي موقع في الشمال مؤقتاً . وذهبت إلى نائبه صاحبي القديم دهب عبد الجابر الذي ألحقني بكلية المعلمات بمدني .

وهكذا قدر لي أن أغادر التونج بلا عودة وتركت كل أثاثات منزلي ومتاعي هناك ، وقد قام الأخ الشهم سيد أحمد المرضى وكان مفتشاً بمكتب تعليم واو بالذهاب إلى التونج و(تخييش) أثاث منزلي كله ونقله إلى واو وشحنه بالقطار إلى الخرطوم وإرساله إلي ..

وحال التمرد بيني وبين التونج وأهلها والتي أحببتها بصدق وأقول كما ذكرت في نهاية كتابي عن أيامي فيها : ((فهل من لقاء جديد في أحضان الحب والسلام ؟ أود ذلك فما زال الأمل حياً في الخاطر)) .

في كلية المعلمات بمدني :

ولم تمتد أيامي في كلية المعلمات بمدني فكانت عدة أشهر من نوفمبر ١٩٦٤ إلى أواخر مارس ١٩٦٥ ، وألحقت بمدرسة البنات المتوسطة (ب) التابعة لكلية المعلمات حيث أمسكت الطباشيرة مدرساً للغة الإنجليزية بالصفين الرابع والثاني ، ولم أجد مشقة في العودة للتدريس لأنني لم أنقطع عنه سوى الفترة التي قضيتها في التونج وحتى في هذه الفترة كانت لي حصتان في الأسبوع مع الفرقة الرابعة من المعلمين وفرقة المعلمات ، أدرس فيها فن التدريس من خلال التجربة وأنقل لهم خبرتي وأجاوب على ما يعن لهم من أسئلة خاصة بالتعليم والتربية .. وزارني في مدرسة البنات مفتش تعليم المديرية ومعه عميد كلية المعلمات وقال لي في شبه اعتذار أن هذا الموقع أقل من مكانتي ، وقلت له أنا وأنت وجميعنا مدرسين قبل أن نكون إداريين وقلت له ((أنا خوجة)) أي مدرس باللغة التركية ، وقال لي أن هذا الوضع مؤقت وسأنال وضعي الطبيعي قريباً ، وشكرت الرجل على كلماته الطيبة ، وفي الحقيقة كانت التجربة مثيرة وممتعة في نفس الوقت فقد كانت المرة الأولى التي أعمل فيها وأدرس بمدرسة بنات ، ووجدت البنات مطيعات ومهذبات ولا يثرن المشاكل كالأولاد ، كما أنهن أكثر جدية وحماسة للتعليم ، أضف إلى ذلك رقتهن فأن النظرة الغضبي تكفي لزجر المخطئة وأما الكلمة الجافة فتفجر الدموع من عينيها !

عقدت اللجنة لقبول التلميذات الناجحات للكلية وللمدرسة

المتوسطة، وكنت عضواً في اللجنة ، وكان من ضمن الأباء وأولياء الأمور المحتشدين رئيس حسابات مجلس ريفي المناقل والذي عانقني بحرارة فقد مضت أربع سنوات منذ أن غادرت المناقل. وبعد السلامات والاستفسارات عن المناقل وأهلها عرفت منه أن ابنته من الممتحنات وكان مشفقاً ككل الآباء وطمأنته وللأسف كانت أبنته ناجحة ولكن مجموع درجاتها أقل من المجموع المخصص للقبول .. كان قبول التلميذات هو أخر عمل نقوم به في العام الدراسي ، وبعد ذلك نرتقب صدور كشف التنقلات العام من الوزارة ، وصدر الكشف ووجدت نفسي منقولاً ناظراً لمدرسة الجنينة المتوسطة للبنات بمديرية دارفور .

وغربت شمس بقائي بمدني وستشرق هذه المرة على أقصى مدينة في غرب السودان على الحدود مع تشاد .

في الجنينة :

ذهبت بالطائرة من الخرطوم وحطت الطائرة في مطار الفاشر حاضرة مديرية دارفور لمدة نصف ساعة تزودت فيها الطائرة بالوقود واستأنفت رحلتها من هناك إلى الجنينة ، وحطت الطائرة في مطار البلدة وهو مطار صغير ولكنه جيد وبه استراحة وبوفيه لتناول الوجبات والمرطبات والمشروبات الساخنة ، ووجدنا في استقبالنا كل موظفي البلدة تقريباً وعلى رأسهم ضابط المجلس الريفي وناظر المدرسة الصناعية المتوسطة ، وتجيء الطائرة ثلاث مرات في الأسبوع حاملة الوافدين الجدد والجرائد والخطابات والطرود ، ويوم وصول

الطائرة يوم يحتفى به ويخرج رؤساء المصالح الحكومية لاستقبال القادمين من الخرطوم ..

كانت المدرسة ذات بناء فخم وتحتل مساحة واسعة داخل أسوارها العالية وبها داخلية كبيرة وحجرة واسعة للتدبير المنزلي ومعمل للعلوم وثلاث مخازن للغذاءات والكتب وأدوات الخياطة من قماش وصوف وأبر خياطة وأبر التريكو ، وهناك جناح المطبخ وحجرة السفرة الواسعة ، وهناك أيضاً مستوصف صغير مزود بالأدوية الضرورية والقطن والشاش ويحضر إليه في كل يوم مساعد طبيب يعالج الحالات البسيطة ويحول الحالات الكبيرة إلى المستشفي وهناك أيضاً مكتب الناظر ومكتبين للمعلمين . وكانت المدرسة هي الوحيدة في مديرية دارفور والتي تبلغ مساحتها مثل مساحة فرنسا .. وكانت السلطات تود أن تكون في الفاشر عاصمة المديرية ولكن سلطان دار المساليت أصر أن تكون المدرسة في عاصمته ، ولهذا فأن خلاصة بنات دارفور إذا صح التعبير يقبلن بهذه المدرسة ويأتين من جميع أنحاء المديرية .. وكان بالمدرسة خمس معلمات وثلاثة معلمين منهم نائب الناظر ، وكان الناظر الذي سبقني هو صديقي القديم بابكر الشيخ (العمدة) والذي كنا معه سوياً في أبقيق بالسعودية قبل ثمانية أعوام، ولم يقدر لنا أن نتقابل لإتمام عملية التسليم والتسلم للمدرسة لأنه غادر عند انتهاء العام الدراسي .. وكانت تلك أول مرة أدير فيها مدرسة للبنات ، وكنت قد اعتدت على تدريس البنات خلال الأشهر التي قضيتها بكلية المعلمات بمدني ، وجعلت لكل فصل أم من المدرسات كما في مدارس البنين أب لتلاميذ الفصل تباشر شئون

البنـات ولا يـرجعن إلــي إلا في الأمـور الـتي تسـتدعي ذلـك ، ويطلـبن المتطلبات اليومية للتدبير المنزلي من الكاتب والذي يرفقها مع الراجعة ثـم تعـرض علـى لاعتمادهـا ومـن ثـم يبعـث بهـا إلى المتعهـد ليوردهـا ، وكانت هناك مدرسة تطلب في كل مرة رؤوس خراف (ريسين نيفة) ، ولعلها كانت تحب لحـم الـرأس أو أنها لا تتقن في الطهو غير رأس الخـروف ! واسـتدعيتها وسـألتها إن كانت دروسـها في الطهـي تقتصـر علـى رؤوس الخـراف فقـط ، وكانـت الغـذاءات في مـدارس البنـات الداخلية متميزة عن مدارس البنين ومنها الكبدة التي تورد أسبوعياً مرة من كبدة الضأن ومرة من كبدة البقر والأولى سعرها أغلى من الثانيـة ، وحـدث أن حضـرت اسـتلام الغـذاءات الطازجـة لأتأكـد مـن مطابقتهـا وأوزانهـا حسـب الراجعـة (قائمـة الغـذاءات)، ووجـدت أن بالراجعة كبدة ضاني بينما المورد كبدة بقري واستفهمت من الطباخ أن كان هذا الأمر عارضاً اليوم أم أن المتعهد دأب على توريد الكبدة البقـري بـدلاً مـن الضـأني ، واخبرنـي أن المتعهد ظل يـورد كبدة بقـر فقط ، وحصرت المرات التي كان من المفروض أن يورد المتعهد فيها كبـدة ضـأن وضـربتها في السـعر وكـذلك سـعر نفس الكميـة مـن كبدة البقر وأخرجت الفرق وكان الحاصل ستين جنيهاً ، وكتبت خطاباً للمتعهد اخبره فيه بتوريد المبلغ إلى خزينة الحكومة وأن يـأتيني بإيصال التوريد ، وأرسلت صورة من الخطاب إلى مفتش تعليم المديرية ، وأتصل بي المتعهد تلفونياً وقال لي أنه كان يود تسوية الأمر بيننا ولا داعي لإدخال مكتب التعليم ، وأخبرته بأن الأمر ليس شخصياً بيني وبينه وأنه أخل بشروط العقد وأستحوذ على نقود بغير وجه حق ورضخ للأمـر وورد المبلـغ للخزينـة وأبـرز لـي الوصـل ، وهنـا تـذكرت محمـد

مصطفى متعهد الغذاءات في المناقل والذي كان حريصاً على توريد أجود الأصناف وبالكميات المطلوبة طبقاً للراجعة ..

وتعلمت أشياء جديدة في معاملة الإناث ، منها أنه إذا قيل لي أن أحد المدرسات مريضة وغائبة عن العمل اليوم إلا أسأل عن مرضها فقد فعلتها مرة عندما أخبرتني مدرسة صباحاً أن زميلتها مريضة ولا تستطيع العمل اليوم ، وباهتمام جدّي رحت أستفهم عن مرضها والمدرسة تتهرب وترد على في كل مرة بأنها عيانة ، وخمنت أن في الأمر شيئاً ما وسكت ، وبعد ذلك سألت مدرس قديم عن الأمر فضحك وقال لي أنها تقصد أن لديها العادة الشهرية .. .

ومن الأشياء البغيضة التي كان على أن أفعلها هي فتح الخطابات التي ترسل إلى البنات أي (سنسرة) الخطابات فقد كان هناك بعض الشبان الذين يبعثون بخطابات غرامية ملتهبة وفيها عبارات مثل أحبك عدد أوراق الشجر أو أحبك عدد قطرات المطر وأشياء من هذا القبيل، وكنت أصادر مثل هذه الخطابات ولا أخبر البنت المعنية عنها أو أسألها عن الشخص الذي يرسل إليها الخطابات ، وكان (روميو) أو الشخص المتيم عندما يرسل أكثر من خطاب ولا يلتقي رداً ييأس ويمتنع عن الكتابة ويكون أخر رسالة له فيها من العتاب والملام الكثير .. وكنت أشعر أحياناً بالذنب عندما أحس بأنني أسهمت في تحطيم القلوب ، ولكن من جانب آخر أن هذا التصرف فيه وقاية للبنات من بعض السفهاء الذين يتلاعبون بمشاعر الفتيات وجميعهن من المراهقات ، وأنا واجبي كناظر مسئول عنهن أن أوفر لهن الحماية والصيانة وأن أكون والداً لهن جميعاً فهن أمانة في أعناقنا أمام الله

وأمـام أهلـهن والمجتمـع . ومـن الضـوابط الصـارمة في مـدارس البنـات الداخلية أنـه إذا كـان للبنـت أقارب في البلدة فأننـا نطلب خطـاب مـن والـد أو ولى أمـر البنـت لنـأذن لها لزيـارتهم والمبيت خـارج الداخليـة يـوم الخميس وأن ترجع إلى الداخلية بعد المغرب يوم الجمعة وأن يصحبها في الذهاب والإياب من وإلى المدرسة شخص معروف لإدارة المدرسة .

كـان علـى الموظـف الجديـد الوافـد علـى المدينـة أن يبـادر بزيـارة السـلطان والسـلام عليـه وتعريفـه بنفسـه ، وأخبرنـي مـدرس قـديم بالمدرسة أن هذا تقليد وأن على أن أذهب للسلطان لأسلم عليه . وقلت له أن ما تعودت عليه وهو التقليد المتبع ان يزور المقيمون الوافد الجديد للسلام عليه ولم اذهب للمقابلة ، وزارني في المكتب بعد أيام وكيل البريد ونائب ضـابط المجلس الريفـي للتعريـف والتحيـة وأقنعـاني بـان اذهب معهم لمقابلة السـلطان حيث ان هـذا التقليد المتبع وان هـذا أمـر شـبه رسمـي لان السـلطان هـو السـلطة العليـا ولـو عرفيـا في البلـد .. ولاعطاء نبـذة تاريخيـة عـن الجنينـة حاضـرة دار المسـاليت فإنهـا سـلطنة داخل سلطنة دارفور الكبيرة التي انضمت الي السودان في عـام ١٩١٦ وكلاهمـا كانـا مستقلتان تمامـا ، ومدينة الجنينـة تنقسـم الـي قسـمين همـا الجنينة بلد واردمتا ، ويوجد في الجنينة بلد دار السلطان ومكتبـه ومحكمتـه وسـجن السـلطان . وللسـلطان منـزل فخـم مطلـي بـالجير الأبيض علي ربوة عالية يشرف علي البلدة وهذا يخصصه للاستقبالات والمناسبات الرسمية وللولائم التي يقيمها لكبار الزائرين من حكام الخرطوم ويدعو لها رؤساء المصالح الحكومية والأعيان في البلد .. أما القسم الثاني من المدينة وهو اردمتا فتوجد فيه حامية الجيش والمطار

والمصالح الحكومية ومنازل الموظفين الحكومية وكذلك المستشفي، وتوجد المدارس في الجنينة بلد عند طرف البلدة ويقسم المدينتين وادي عريض يدعي وادي كجا .. وذهبت مع الجمع الي السلطان في مكتبه وقدمت إليه بصفتي الناظر الجديد لمدرسة البنات المتوسطة ونظر الي وقال ((سمعنا بيه)) أي سمعنا به ، وفهمت من جملته القصيرة تلك ان المفترض ان أزوره قبل ذلك لا سلم عليه واقدم نفسي ، وهاته الكلمتان تحملان عتابا مغلفا ، أكرمنا الرجل ، وقلت له أنني كنت مشغولا بترتيب المدرسة ولم تسنح لي الفرصة لزيارته وبعد ذلك صرنا أصدقاء حميمين وطلب مني ان اخبره بالتلفون إذا أردت عربته في أي مشوار ليرسلها الي مع السائق ..

و السلطان عبد الرحمن بحر الدين سلطان دار المساليت رجل يتميز بالذكاء والدهاء وقوة الشخصية مع الكرم ويتميز أيضا بثقافة ممتازة ، وهو قارئ ويطلع علي جميع الصحف اليومية حتي صحيفة الميدان الشيوعية وصحيفة الميثاق الاخوانية واذكر انه كان هناك أربعة نواب يمثلون دار المساليت في البرلمان وهم من أحزاب مختلفة وكلهم يدينون بالولاء للسلطان .. ويجلس السلطان لتلقي زواره من الرعية المساليت في الصباح ويستقبلهم في داره بالبلد ويجلس علي كرسي ويوجد عدة كراسي علي يمينه ويساره في مصطبة عالية تمتد من مدخل الدار الي حائط يحجب وراءه المنزل ، وحضرت معه أحد المجالس وأجلسني علي يمينه ، وكان الرجل من المساليت يدخل من باب الدار ويعتلي المسطبة ثم يبرك علي الأرض ويحبو ونظره الي الأرض حتي يتوقف عن الحبو علي مسافة تبلغ الأربع أمتار من مجلس

السلطان وهو في حبوه يردد باستمرار ومصفقا بيديه (سلتان – آفيه تيبين) أي (سلطان -عافية طيبين) وهي كلمات التحية هناك ، ويرد عليه السلطان بقوله (أهلا) ويستمر في حديثه معي .. وبعد فترة قصيرة يصفق الزائر بيديه ويحبو بظهره مرددا (آفيه تيبين) الي ان يصل الي نهاية المصطبة.. ويغادر .

و كان السلطان يدعوني من وقت لآخر في داره ليلا ، ولديه حوش صغير يفصله باب عن بقية المنزل والحوش مبلط بالأسمنت وموضوع في وسطه مائدة منخفضة تحف بها الكراسي وغالبا ما يكون معي الدكتور طبيب المستشفي ، وتكون المائدة عامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب .. ونسمر الي هزيع ليس باليسير من الليل وعند انصرافنا يوصلنا سائقه بعربته الي منزلينا .

وكانت العلاقة بين السودان والجارة تشاد في حكم رئيسها تمبلباي في اشد التوتر ووصل التوتر أقصاه عندما اعتدت قوة تشادية علي قرية سودانية وقتلت عددا من المواطنين ، وهاج وماج الناس في الجنينة وحدثت ثورة عارمة ضد نظام تمبلباي في تشاد ، وحضر وزير الداخلية من الخرطوم وأرسلت الحكومة تعزيزات من القوات المسلحة الي حامية الجنينة ، وخرجت الجنينة عن بكرة أبيها في مظاهرة هائلة ، ولأول مرة أرى عيانا ترجمة هذا التعبير (عن بكرة أبيها)، فلم يتبق فرد في الجنينة لم يخرج في المظاهرة رجالا ونساء وأطفالا شيبا وشبابا وكل واحد يحمل في يده سلاحا من أي نوع، حربة -سيف -سكين -عكاز -بندقية خرطوش ، ويتقدم هؤلاء جميعا جيش من رجال المساليت الأشداء حاملين الحراب والسيوف

ولابسين الاحجبة حول اذرعتهم وحول أجسامهم وهم يدقون الأرض في قوة بأقدامهم وهم يجأرون بغضب صائحين (تير بياكلنا – التير بياكلنا) يعني (طير بياكلنا – الطير بياكلنا) كناية عن انهم ينتصرون أو يستشهدون وتأكل جثثهم الطير ، ويتجاوب معها زغاريد النساء تشق الفضاء وانتظم في المظاهرة تلاميذ وطلبة وتلميذات المدارس وكانت طالبات مدرستنا مصطفين صفوفا في المظاهرة ونحن المدرسين والناظر سائرين بمحازاتهم ، وكان جيش المساليت عازما علي غزو تشاد ، ولم أشاهد مثل هذا البحر الهادر من البشر سوي في ثورة أكتوبر المجيدة في العاصمة في ١٩٦٤ ، وصرف وزير الداخلية والسلطان ومعتمد الجنينة جهدا خارقا ليثنوا جيش المساليت للعودة أدراجهم وليتركوا مهمة الدفاع عن الأرض للجيش .

و كان المساليت يقولون (انينا زمان كتلنا الفرنجة بيد في الجبل) يعني (نحن زمان قتلنا الفرنجة البيض في الجبل) ، وهذه حقيقة تاريخية فقد أباد جيش المساليت جيشا فرنسيا في القرن التاسع عشر أراد غزو دار المساليت وتناثرت جثثهم علي الجبل ..

في نفس ١٩٦٥ الذي انتقلت فيه الي مدرسة الجنينة المتوسطة للبنات فتحت مدرسة الجنينة الثانوية للبنات بمباني المدرسة المتوسطة ولقد اقتسمنا مباني المدرسة والداخلية والمكاتب واقتسمت مكتبي مع ناظر الثانوية وكان ناظر الثانوية ومدرس معه ينتميان الي حزب الميثاق الإسلامي (جماعة الإخوان المسلمين) واخبرني نائب الناظر ان الأستاذ الأخ المسلم يوزع علي البنات كتيبات الإخوان المسلمين وانه يعمل لتجنيد الطالبات في الحركة ولما كان هذا النشاط السياسي

محظورا رسميا ، ولا احبذه شخصيا من ناحية تربوية فنحن المعلمين كل واحد منا له اعتقاده السياسي والفكري وينبغي ان لا نستغل عملنا للتأثير علي طلبتنا أو الطالبات في هذه السن التي لم يتشكل فيها وعيهم أو وعيهن ، ومن ناحية أخرى ينبغي ان لا نجعل المدرسة ساحة للصراع بين الأحزاب السياسية ، وتكلمت مع ناظر الثانوية وطلبت منه ان يوقف هذا النشاط، ولكن لم يعر الأمر اهتماما مما دعاني لأن اكتب خطابا لوكيل وزارة التربية والتعليم معنونا (سري وهام) شرحت فيه الموضوع للوكيل وطلبت منه التدخل لإيقاف هذا النشاط ، وأرسلت صورة من الخطاب لناظر الثانوية (بالسركي) أي دفتر تسليم الخطابات باليد ، ولكنه رفض استلام الخطاب. فأرسلته له بالبريد المسجل ، ولكنه رفض أيضا استلامه .. وبعد أسبوع وصلني صورة من خطاب معنون الي ناظر الثانوية بصورة الي ناظر المدرسة المتوسطة ، وكان فحوي الخطاب توبيخ للناظر وإنذار له لوقف ذلك النشاط فورا ، وامتثل الناظر للأمر ، وأما المدرس فقد نقل من المدرسة .

أمر آخر لا تفلته الذاكرة وهو تكويننا لجنة تمهيدية لفرع نقابة معلمي المدارس المتوسطة بالجنينة وانتخبت نائبا للرئيس ، وانتدبت وزميلي عمر محمد بابكر نائب ناظر مدرسة البنات الوسطي لحضور المؤتمر التأسيسي للنقابة والذي سيعقد بالخرطوم في الإجازة الصيفية للمدارس ، وقد حضرنا المؤتمر الذي أجيز فيه دستور النقابة وانتخاب اللجنة التنفيذية . وكان من انجازات النقابة بعدئذ السفر بالطائرة للمدرسين في الجنينة والفاشر ، وكانوا قبل ذلك يسافرون بالقطار

من الخرطوم الي نيالا ومنها باللواري الي الجنينة وكانت الرحلة تستغرق الأسبوع تقريبا ، ومكسب آخر حققته النقاية وهو ان يسافر كل المعلمين بالدرجة الثانية بالقطار مهما كانت درجاتهم الوظيفية ، فقد كان المدرسون المبتدئون يسافرون بالدرجة الثالثة مع المسجونين المرحلين وخدم الموظفين في الدرجة دي اس وما فوقها ! وقضيت سنتين في الجنينة كانتا من اجمل السنوات في عملي وفي عشرة الناس الطيبين ، وكانت الجنينة رخية سخية وكانت الأشياء رخيصة الثمن وعلي سبيل المثال كان الخروف بمائة وخمسين قرشا والدجاجة بأربعة قروش وجوز الحمام بستة قروش، وكانت المنقة التي تزرع في مزارع وادي كجا متوفرة وكذلك البطيخ ، كما ان مياه الآبار عذبة ونقية ..

أمر آخر بالغ الأهمية في حياتي وحلق بي في سماوات من السعادة وهو أن الله رزقني وأنا في الجنينة بكبرى بناتي وهي أميرة بعد خمس سنوات من زواجي ولا يفوتني أن أذكر شيئين حزنت وأسفت لهما فقد أجرينا تصحيح امتحان دخول للمدارس المتوسطة واستخراج النتيجة وقبول التلميذات الجدد ، وكانت ابنة زميلي ناظر المدرسة الصناعية المتوسطة وابنة ابن عم السلطان من الممتحنات ، وكان ابنة زميلي يعوزها نصف درجة للنجاح وراجعنا أوراقها عدة مرات ولم نقدر أن نمنحها نصف درجة _ اقر بأنه تعسف _ ولكن ميزان العدل والمساواة يبرر ذلك ، ولكن تدبرت الأمر مع المفتش الذي تولي قبول التلميذات وأعطيناها نصف الدرجة ، ووجدت مستقبلاً بالسعودية أنه يجوز

التجوز في درجتين أو ثلاث ، وأما ابنة ابن عم السلطان فلم نقدر أن نفعل لها شيئاً لأنه يعوزها درجات كثيرة للنجاح ..

وأنقضي العام الدراسي وصدر كشف التنقلات وكان أسمى به مترقياً إلى الدرجة B ومنقولاً ناظراً لمدرسة العيلفون المتوسطة في مديرية الخرطوم وكانت تلك الدرجة تعادل درجة مدير مصلحة حكومية أو مفتش مركز بالحكومة المحلية وتعادل هنا درجة ناظر مدرسة ذات نهرين بداخلية أو مدرسة نهارية بثلاثة انهر (النهر يسوي مدرسة ذات أربعة فصول) ، وحدثني صديقي ضابط الجمارك بان أبيع عفشي في الدلالة بالمزاد العلني وانه هناك تقليد بان يشتري التجار أو المقتدرين عفش الموظفين المنقولين من الجنينة بأثمان عالية تكريما للموظف المنقول ، وبيع متاعي وكان قليلا وندعوه عفش سفري يحتوي علي طقم كراسي منسوجة بخيوط البلاستيك وعدة أسرة ومراتب ، وحقق ثمنا طيبا .. وافلت شمس أيامي بالجنينة لتشرق من جديد علي بقعة أخرى من وطننا الحبيب ..

في العيلفون :

بلدة العيلفون مدينة عريقة في المدن وتبعد مسافة ساعة بالعربة شرق الخرطوم ويرجع وجودها الي خمسة قرون واشهر معلم بها هو ضريح الشيخ إدريس ود الأرباب وبني فوق قبره قبة ، وكان صالحا ومن أولياء الله وأورد المؤرخ نعوم شقير ان الشيخ إدريس لقب بسلطان الأولياء وكان له ولذريته من بعده مكانة رفيعة عند ملوك سنار (١٥٠٥:١٨٢١م) فكانوا يصلحون بينهم وبين كبار رعيتهم إذا

اختصموا ويتشفعون عندهم في الأمور الخطيرة بل كانوا إذا طارد ملك أحد الرعية فلجأ الي حماهم رجع الملك عنه .

و قيل لي انه كان الرجل يأخذ طوبة من حائط ضريح الشيخ ويضعها فوق جوالات الذرة في العراء فلا يقربها أو يمسها أحد ومن طريف ما أورده نعوم شقير ان صاحبة الانداية (وهي المكان الشعبي لبيع وشراب المريسة) ما يلي : ((هذا ومن عادة بائعات المريسة في العيلفون ان ترفع كل منهم راية فوق منزلها وتجلس عندها تنادي بأعلى صوتها : ((يا شيخ إدريس يا راجل الفّدة والمّدة تلحقنا وتفزعنا وتبيع لي مريستي)) فيجتمع الناس عندها فتخرج من المريسة ملئ قدر فتسقيهم اياها مجانا تصدقا عن روح الشيخ إدريس ثم تشرع في بيع الباقي بالثمن .

و لما نقلت إليها كانت بلدة صغيرة منازلها صغيرة من الطين وبها سوق صغير وشفخانة ونقطة بوليس وبها مدرستان أوليتان للبنين والبنات ومدرسة متوسطة دينية تابعة لمصلحة الشئون الدينية وكان ابرز مبني بها هو مبني المدرسة الحكومية ومنازلها ، وهي مدرسة كبيرة ذات داخلية وملحق بها ثلاث منازل للمدرسين وبيت للناظر وصهريج للماء (دونكي) علي بئر لتزويد المنازل والمدرسة بالماء، وكان بالداخلية حوالي المائتي طالب .

كانت المدرسة مجهزة تجهيزا كاملا ومبانيها وملحقاتها ممتازة كما أنها كانت مزودة بالكهرباء ، ولكن سبقتني سمعة المدينة، أي العيلفون، فقد كانت مشهورة بإثارة المشاكل وافتعالها مع النظار ولهم باع في التدخل فيما لا يعنيهم ، وكان زميل وصديق لي ودفعتي

في بخت الرضا ضحية تهمة خبيثة ألصقت به وهو ابعد الناس عن تلك الفرية الظالمة ، وقد سبقني بسنوات ناظرا للمدرسة ، ولقد برئ من تلك التهمة المشينة وأعيد له اعتباره واصبح من قيادات وزارة التربية والتعليم ، ولم اسلم أنا من أقاويلهم فقد بلغني انهم قالوا عني أنني شيوعي .. وعلمت ان عمدة البلدة يتدخل في أمور المدرسة ، وعزمت علي ان احسم الأمر معه منذ البداية . زارني العمدة في المدرسة للتعارف ، ورحبت به ودار الحديث كعادة السودانيين في التعارف عن الأهل والموطن وعن العمل السابق ، ثم اخذ يسأل عن أشياء في صميم عمل المدرسة ، فقلت له بحزم انه كعمدة البلد اكن له كل احترام ولكن أرجو ان لا يتدخل في إدارة المدرسة كما أنني لا أتدخل في إدارته لعموديته ، وكان ردا صارما وغير متوقع وبدا عليه الامتعاض والاستنكار وذهب ولم يرجع الي المدرسة مرة أخرى ولكنه دعاني الي الغداء بمنزله ومعي نائب الناظر ، وظلت العلاقة بيننا في حدود الاحترام المتبادل . عملت بجد علي تنظيم المدرسة واحسب أنني كنت شديد الوطأة علي العاملين من مدرسين وفراشين مما تسبب في الضيق من صرامتي ، ولكن كان تصرفي لصالح العمل ولصالح الطلبة .. فمما اتخذته من إجراءات أنني كونت لجنة من ثلاثة من المدرسين لاستلام الغذاءات الطازجة من المتعهد ويكتبون ملاحظاتهم في دفتر خاص يعرض علي يوميا ، واخترت للجنة المدرسين الذين آنست فيهم أمانة وجدية ، كما ان اللجنة تتغير يوميا فقد كان المتعهد يتلاعب في الغذاءات ومن ذلك كان يورد قطع لحم ماعز هزيل علي انه لحم ضأن ، واستدعيته وطلبت منه ان يورد خروفا مذبوحا بطوله لأن كمية اللحم المقررة تعادل وزن خروف ، واحتج بأن اللحم الذي يورده

يكشف عليه المختص البيطري ، فقلت له إذاً فليكشف البيطري علي الخروف ، وقلت له انه إذا لم يتقيد بشروط العقد فإنني سأطلب من الوزارة إلغاء العقد وامتثل بتوريد خروف مقفول وارتاح بالنا من ناحية اللحم ، وارتحنا أيضا من ناحية وزن ونوع الغذاءات الأخرى بواسطة لجان الاستلام التي كونتها من المدرسين . وكان أمر استلام الغذاءات موكول الي الطباخ والسفرجي قبل ذلك .. وقد فعلت أمرا آخر يتعلق بالطباخ فقد كان مبتليا بإدمان شرب الخمر واحضر معه زجاجة العرقي في المطبخ وحاكمته إيجازيا وخصمت منه ٣ أيام من راتبه ولكنه لم يرتدع وكررها مرة ثانية وخصمت منه ٧ أيام من راتبه وفعلها مرة ثالثة وأضاف إليها تهديد المدرس الذي ضبط الواقعة بسكين وشرع في الاعتداء عليه ولكن السفرجي واحد الأساتذة امسكوا به ونزعوا السكين منه .. وفي هذه المرة فصلته من العمل وأرسلت القرار لمدير التعليم ليصادق عليه ، ولم يبت في الموضوع حتى نقلي من المدرسة بعد شهور ومن ذلك أيضا تحويل خفير المدرسة الليلي الي فراش بالنهار لانه كان بعد ان تنتهي المذاكرة ويطفئ الأنوار ويطمئن الي ان الجميع انصرف ، يذهب هو بدوره الي منزله ..

كان بالداخلية ١٩٧ تلميذا من القري القريبة والبعيدة من العيلفون، وكان عددا كبيرا منهم يخرج في نهاية الأسبوع للذهاب الي ذويهم، فكنا نستخرج الراجعة كاملة العدد ثم نطرح منها عدد الذين غادروا الي ذويهم وكمية غذاءاتهم وقيمتها بالنقود ، ثم نطلب من المتعهد ان يورد بالثمن حلاوة طحينية أو بلح أو جبن نقدمه لهم في خلال الأسبوع ، واستفدنا أيضا من هذا المبلغ بشراء سلك شائك

عملنا بـه سـورا حـول المدرسـة فقد كانت المدرسة بـلا أسـوار وتتجـول بداخلها الأغنام والحمير .. وفي هذا المنحي أيضا شرعنا بعمل التلاميذ والمدرسين من زرع أشجار حول سور المدرسة ..

وطلبت من الطلبة بـأن يتقيدوا بـالزي المدرسي صباحاً ومساءً عند الحضور للمذاكرة ، وكان الزي المدرسي يتكون من قميص أبيض وشورت كاكي ، وطلب مني بعض التلاميذ أن أعفيهم من لبس الزي في المساء وأن يلبسوا بدلاً منه الجلابيب ، ولما كان الشتاء قد بدأت بوادره فقد وافقت على طلبهم على الفور .

عندما جئت إلى مدرسة العيلفون كان عدد المقبولين للثانوي لا يتجاوز الأربعة ولما أمضيت السنة بالمدرسة كان المقبولون من المدرسة بالثانوي أربعين تلميذاً ..

تتميز البلدة بظاهرة لم أشهدها في المدن الأخرى التي عملت بها وهي أنه إذا ذهب الواحد إلى السوق أو البلد يجد كل واحد ينظر إليه حتى الجزار إذا كان يقطع في اللحم يمسك عن التقطيع ويرفع بصره لينظر إليك، وتستمر هذه الملاحظة العينية الدقيقة إلى أن تختفي من أنظارهم ! ولا أنسى أن هناك عائلات من الأفاضل في العيلفون مثل آل صبير ، وعبد الكريم الأمين ، ولا أنسى من فراشي المدرسة الجندي القديم الشيخ محمد الشيخ الذي يؤدي واجبه بإخلاص وتفان والذي حدثني بأنه في شبابه وكان جندياً في الدفاع الجوي أصاب بمدفعه طائرة حربية إيطالية أغارت على العاصمة في الحرب العالمية الثانية، وللمفارقة الساخرة أنه كان يذهب أول كل شهر إلى المديرية بالخرطوم ليصرف معاشه عن خدمته وكان خمسين قرشاً !

أما جنايني المدرسة الكهل الجاك والذي وهبه الله خمسة من الإناث فقد كافح بمعاشه الضئيل وبما يكسبه من عمل النجارة في وقت فراغه أن يحسن تربيتهن ويعلمهن فصارت اثنتان منهما معلمات .. وعزمني كل منهما في رمضان في داره المتواضعة ورددت العزومة بدعوتهما وكل الفراشين بالمدرسة إلى إفطار رمضان ووجدت سعادة بالغة وأنا أخدمهم وأكرمهم في داري ..

وقضيت سنة كاملة في العيلفون ولم أشعر بغربة مكانية وأقصد أني في مديرية الخرطوم وكنت أقضي ليل الخميس ويوم الجمعة بدارنا في أمدرمان والحلة بين الوالد والوالدة والإخوان والأخوات والأصدقاء .

وصدر كشف التنقلات السنوي ونقلت هذه المرة إلى مدرسة الخرطوم بحري الأهلية الحكومية بمدينة الخرطوم بحري ..

وغربت شمس بقائي بالعيلفون لتشرق من جديد على بقعة ليست غريبة على وأن كنت لا أعلم عنها الكثير ولا أرتادها إلا في المناسبات فأهل أمدرمان وهي موطني الصغير لا يعرفون الكثير خارج مدينتهم ويعرفون الخرطوم بالضرورة لارتباط مصالحهم بالعاصمة التي يوجد بها الوزارات والمصالح الحكومية ، وهناك البعض الذين لم يخرجوا من أمدرمان لعدة سنوات ..

في الخرطوم بحري :

مدرســة الخرطـوم بحــري الأهليــة الحكوميــة المتوســطة مدرســة كبيرة ذات مبان حديثة وبها ثلاثة أنهر وقد شيدت مبانيها بعد ضمها للحكومة أو وزارة التربية والتعليم ويوجد بالمدينة مدرستان متوسطتان أخريان ، أولها المدرسة القديمة وهي الأهلية الحكومية فكانت تقع شرق المدينة في مدخلها من ناحية الخرطوم بعد الكوبري ، وكان علــى أن أصــل إليهــا عــن طريــق الخرطــوم وفي هــذه الحالــة أركــب مواصلتين من الموردة إلى المحطة الوسطى بالخرطوم ومنها بتاكسي طراحة إلى الخرطـوم بحـري وأنـزل في الشـارع الرئيسـي عنـد نقطـة موازيـة للمدرسـة ، ولكـن العيـب في هـذا الطريـق الأقصـر أن جميـع وسائل المواصلات تأتي ممتلئة من السوق الكبير بأمدرمان لأن كل وسائل المواصلات القادمة من الخرطوم تكون خالية في الصباح ، ومن السوق الكبير أركب طراحة إلى المحطة الوسطى بحري ومن هناك أتخذ طراحة للخرطوم وأنزل عند الشارع الموازي للمدرسة، يعني أتخذ ثلاث مواصلات للوصول إلى المدرسة، وتحسرت على أيام الأقاليم عنـدما كـان منـزل النـاظر يجـاور المدرسـة أو جـزءاً مـن المدرسـة في مدرسة البنات ويفصله عنها باب ..

وجـدت الوضـع فريـداً في تلـك المدرسـة فقـد كـان بهـا ثلاثـة مـن المعلمـين في درجـة G أي درجـة نـاظر مدرسـة صـغيرة أو نائـب نـاظر في مدرسة كبيرة، فوزعت عليهم الاختصاصات واتخذت أقدمهم وظيفة نائـب للنـاظر ، وفوجئت بكـثير مـن عـدم الانضـباط وقـذارة المدرسـة

فالفصول والحوش ملئ بالأوساخ والأوراق المتطايرة والفراشين لا يؤدون عملهم وبعضهم (يزوغ) من المدرسة ، ونفذت إجراءات صارمة فورية لفرض النظام والانضباط ، واجتمعت بالمدرسين وبسطت لهم سياستي التي ستكون في إدارة المدرسة ، وأنني أؤمن بالديمقراطية في العمل أي أن نتشاور جميعنا لما فيه خير العمل والتلاميذ وأنني سأنفذ سياسة الثواب والعقاب والمساءلة ولن أجامل أحداً في العمل ، كما أنني اجتمعت بالفراشين وبينت لهم ما قلته للمدرسين ، ولقد أتبعت القول الفعل ، واستقامت الأمور .

تتميز مدارس العاصمة بأن جل المدرسين مدربين وربما تكون هيئة التدريس كلها من المدرسين المدربين . أمر آخر سبب لي شيئاً من الضيق والحذر فقد وجدت أثنين من المدرسين يعانيان من اضطرابات عصبية ويتلقيان العلاج بمصحة الدكتور طه بعشر الاختصاصي المعروف في الأمراض العصبية والنفسية والعقلية ، والمصحة قريبة من المدرسة ، وعادة ما يلحق هؤلاء المرضى بالمدارس فوق العدد المقرر ويكلفون بعمل خفيف فقد قال الأطباء الأختصاصيون أن النظرة الجديدة في العلاج في محيط عملهم ولا يعزلون ، وأنا أتلمس طريقي في التعامل مع هؤلاء الزملاء المبتلين أتتني محادثة تليفونية وكانت من صاحبي القديم الأستاذ دهب والذي تولي إدارة التعليم الأوسط في الوزارة ، وقال لي : ((يا هلال أنا جايبلك مدرس ممتاز بس عنده شوية مرض عصبي وأنا أوصيك عليه)) فقلت له : : ((يا سيد دهب فاكرني أنا دكتور بعشر ولا شنو ؟ ده أوديه وين مع الاثنين العندى ، يعني أفتح لي مستشفي ؟)) وأطلق ضحكةً وقال لي : ((أنا متأكد

إنك حاتعرف تتعامل معاهم)) .. وجاء الرجل وفي الحقيقة كان هادئاً وحسناً في هندامه وعرفت أنه من الجماعة (جماعة دهب) أي أنه من أخوتنا الحلفاويين ورحبت به وأعطيته جدولاً به ست حصص في الأسبوع ، أي حصة واحدة في اليوم وأخبرته أنه حر في مغادرة المدرسة بعد أن يدرس حصته . وبعد يومين جاء إلى المدرسة وقميصه مفتوح الصدر وخارج البنطلون ، ونبهته بلطف إلى ذلك وأحتد وقال لي أنه ليس هناك أحد ينتقد لبسه ، وقلت له أنا لا أنتقده ولكن كل المعلمين ينبغي أن يكونوا قدوة لتلاميذهم في سلوكهم ولبسهم خاصة داخل المدرسة وغاب اليوم التالي ، وعاد وقميصه داخل البنطلون وقميصه مقفول ، وحييته ولم أسأله عن تغيبه ، وأما الزميل الآخر فقد كان (مولانا) أي أستاذ عربي ودين وكان ساكناً هادئاً لا يتكلم إلا أقل الكلام ، وكان عند تصحيح أوراق الشهادة يجلس مع زميله في مكتب مقفول وحدهما فصاحبنا يحب الهدوء ولا يطيق الضجة والكلام ، وقد علمت بعد نقلي من المدرسة أن مولانا خرج من منزله ولم يعد وبعد بحث طويل ومضن لم يعثر له على أثر ..

وفي نهاية العام الدراسي حل موعد امتحان الشهادة الابتدائية والدخول للمدارس المتوسطة وكلفني مدير التعليم بأن أترأس لجنة النظام والمراقبة ال control ولجان التصحيح وأن تكون المدرسة مقراً للجنة ، وذلك لكل منطقة الخرطوم بحري وكان عدد التلاميذ الجالسين للامتحان ثلاثة آلاف تلميذاً وكانت مراكز الامتحان في المدارس المتوسطة الحكومية الثلاث والتي سبق ذكرها ، واستدعي ذلك ان انتقل بين المدارس الثلاث للإشراف علي سير الامتحان ولم

تزودني إدارة التعليم بعربة لهذا الغرض، فاستأجرت سيارة تاكسي طيلة أيام الامتحان علي ميزانية المدرسة، واذكر أيضا ان الأظرف التي توضع فيها أوراق الإجابة نفذت ولم تزودني إدارة التعليم بالمزيد منها لنفادها لديهم أيضا ، ولم أجد حلا سوي ان اشتري الأكياس الورقية التي يوضع فيها اللحم والخضراوات ، وسدت الوظيفة بكفاءة ؛ وكان معي في الكنترول ناظرا المدرستين الحكوميتين ، وانغمسنا في عمل دائم نهارا وليلا لمدة ثلاثة أسابيع حتى فرغنا من التصحيح ورصد درجات كل ممتحن ، وصرنا في مرحلة استخراج النتيجة وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان ، وقبل ذلك أود ان أعطى فكرة عن عمل التصحيح ، فبدءا يختار ويكلف بالمراقبة وتصحيح الامتحان المدرسون الذين حصلوا علي تقدير ممتاز في تقاريرهم السنوية وان أوراق الإجابة تنزع منها أسماء الممتحنين ويوضع بدلا منها أرقام سرية يعرفها فقط رئيس الكنترول ولا يكشف عن الأسماء إلا بعد رصد الدرجات واستخراج النتيجة ، وهي عملية بالغة الدقة والكفاءة وفي عملية التصحيح يكون هناك ثلاثة مدرسين لكل ورقة إجابة ، الأول يصحح الورقة ويضع الدرجة والثاني يراجع تصحيح الأول والدرجة والثالث يراجع مراجعة نهائية ولذلك ينتفي الخطأ أو السهو ..

وتكلم معي تلفونيا مدير التعليم واخبرني بأن وزير التربية والتعليم أمر بأن تراجع جميع أوراق الإجابات في الامتحان مرة أخرى ، وسألته عن السبب لا سيما وأننا فعلنا المستحيل لضمان سلامة إجراء الامتحان والتصحيح ، واخبرني بأن الوزير بلغته إشاعة بأن هناك تسرب لورقة من أوراق الأسئلة في أحد اللجان وفي الحقيقة كان للوزير ابنان

جالسين للامتحان ، وكان مدير التعليم لا ينفك من الاتصال بالتلفون للسؤال عن سير الامتحان ، ثم أوفد موجها ظل معنا في المكتب الي ان فرغنا من الامتحان والتصحيح ، وقال لي الموجه ان مدير التعليم اخبرهم بأن من ضمن مهامهم الإشراف علي الامتحانات ولذلك أوفدهم الي مراكز الامتحانات ، وكذلك زارنا من الوزارة مساعد لوكيل الوزارة .. وفي الحقيقة أصبنا بغيظ وغضب بعد المجهود المضني بدنياً وذهنياً الذي بذلناه في الأسابيع الماضية ، واستدعيت رؤساء لجان تصحيح المواد المختلفة وأبلغتهم الخبر ولم أخف استيائي ولكن لا بد من تنفيذ الأمر ، وكان الاستياء عاماً وبالرغم من ذلك تمت مراجعة الأوراق مرة أخرى ..

كانت النقابة قد اتفقت مع الوزارة على مكافأة معينة للمدرسين المشاركين في أعمال الامتحان من ومراقبة وتصحيح وتصرف المكافأة فور الانتهاء من أعمال الامتحان ، وجاء الموجه بالنقود وكشف بأسماء المدرسين الذي شاركوا في الامتحان واستحقاق كل منهم ، وسلمني الكشف والنقود بصفتي رئيس مركز الامتحان والكنترول ، وصرفت لكل واحد نصيبه من المكافأة وزميلاي وشخصي ، ولحظت أن الموجه قد تلون وجهه وكلح وبان عليه الإحباط ولعله كان يتعشم أن ينال نصيباً من المكافآت ، وأفهمته أن هذه النقود من حق النقابة وهي مخصصه للمدرسين ولا يحق لأحد أن يتصرف فيها ، وهذا الكشف أعدته النقابة وأن إدارة التعليم اعتبرت الأشراف على الامتحان من صميم عمل الموجه، وأن كانت هناك مكافأة للموجهين فيمكن أن يدبر هذا الأمر مع إدارة الامتحانات بالوزارة والنقابة ..

في أمدرمان :

ولم تطل مدة عملي بمدرسة بحري الأهلية الحكومية وفي نهاية العام الدراسي نقلت إلى مدرسة بيت المال المتوسطة ، وأخيراً بعد تطواف وتشريق وتغريب وذهاب شمالاً وجنوباً ووسط وطننا الكبير حط بي المطاف في موطني الصغير أمدرمان ، وكأن الوزارة لعبت معي لعبة التقريب منها بالتدريج أو ((بالتقسيط)) فبدأت بالعيلفون ، فالخرطوم بحري ، ثم أخيراً أمدرمان . مدرسة بيت المال المتوسطة مدرسة ممتازة ومبانيها جديدة مثل مباني مدرسة بحري الأهلية الحكومية وهي مثلها في أنها كانت أهلية وضمت إلى الحكومة ومخازن المدرسة ممتلئة بالكتب والأدوات والكراسي والأدراج، ويجدر هنا أن أذكر أن الطالب كان يحصل في بداية العام الدراسي على الكتب والكراسات وحتى القلم والأستيكة والريشة والمسطرة وأدوات الهندسة كالبرجل والمنقلة مجاناً ، وكان اليوم الأول في المدرسة يخصص لصرف الكتب والكراسات والأدوات ، وكانت المدرسة بثلاثة أنهر وبكل نهر أربعة فصول وكانت كثافة الفصول كبيرة فكان عدد التلاميذ خمسين تلميذاً ارتفعت إلى خمسة وخمسين في الفصل الواحد ، ويعزي اكتظاظ مدارس العاصمة نسبة لنزوح المواطنين من الأقاليم إلى العاصمة وكذلك المنقولين من مستخدمي الحكومة من الوزارات والجيش والشرطة ، وتبعاً لذلك يجرى تحويل أبناءهم إلى مدارس العاصمة ، وعندما كنت في مكتب تعليم الخرطوم لاحقاً أحصينا وقيدنا في سجلاتنا ثلاثين ألفاً من التلاميذ المحولين إلينا من الأقاليم ووزعناهم على مدارسنا ، ولذلك

يقع عبء ثقيل على مدارس العاصمة وعلى المدرسين ، ولقد خبرت ذلك بنفسي عندما كنت أدرس الإنجليزية للصف الرابع وأصحح تلال الكراسات وما ألقاه من مشقة وتعب خاصة في تصحيح كراسات الإنشاء Composition ، كان بالمدرسة نخبة جيدة من المدرسين المدربين ، وكانت سيرتي في الإدارة مثلها في أي مدرسة عملت بها وهي إقرار النظام بحزم وعدل وربما بشيء من الشدة أحياناً مما تسبب في ضيق البعض أو التمرد!

خاصة إذا لم يتعودوا سابقاً على مثل هذا النمط من المعاملة؛ ولكن كنت في جميع الأحوال أعامل زملائي المدرسين بروح الأخوة وأتخذ من البعض أصدقاء خارج العمل.، فقد كنت في صالح العمل (ما بعرف أبوي) كما كنت أقول .. وحدث انقلاب في التعليم جاء مع انقلاب مايو ، ففي عام ١٩٧٠ بدأ تطبيق السلم التعليمي الجديد الذي أبتدعه وزير التربية والتعليم في نظام مايو الدكتور محي الدين صابر، وصار التعليم العام ست سنوات للمرحلة الأولية فثلاث سنوات للمرحلة المتوسطة وثلاث سنوات للمرحلة الثانوية (٦ – ٣ – ٣)، وذلك بدلاً من السلم التعليمي القديم (٤ – ٤ – ٤) ، وأصبح لدينا وفر ٣ فصول، وفتحت مدرسة جديدة بمبنى مدرستنا وهي مدرسة أبو سعد المتوسطة وبدأت بفصل واحد ..

وطبقت الخطة الجديدة في سرعة شديدة دون إعداد كاف لها من تغيير المناهج والكتب وإعداد المعلمين لدراسة المناهج الجديدة فجاءت الكتب معيبة في المادة وفي طباعتها وأوراقها ، وحدثت ربكة في العمل واضطراب في الدراسة وتعاقدت الوزارة مع مطابع في مصر لطبع

الكتب الجديدة وأخذت الطائرات تنقل الكتب من مصر إلى مطار الخرطوم وكان هناك مندوب دائم من الوزارة لاستقبال واستلام الكتب ، وأصدر الوزير ترقيات رفيعة للذين عملوا في تطبيق السلم التعليمي الجديد وكان منهم الأستاذ مستقبل طائرات الكتب فقد علم أن الوزير سيزور المطار زيارة فجائية في الصباح الباكر ليرى بنفسه سير العمل ، وأحضر الأستاذ سريراً ونام في المطار ولما حضر الوزير وجده بالجلابية والمسواك في يده وهو يستاك.

وأخبر الوزير أنه سكن في المطار لاستقبال الطائرات في أي وقت نهاراً أو ليلاً ، وأصدر الوزير أمره بترقية من الدرجة G إلى الدرجة B وهي درجتي الوظيفية أي ناظر مدرسة كبيرة ؛ وأطلقت على الترقية تندراً أسم (الترقية بالسرير) ! ، وتبعاً للسلم التعليمي الجديد تغيرت المسميات فأصبح أسم مدير المدرسة بدلاً من الناظر ، والوكيل بدلاً من نائب الناظر، ومدير التعليم العام بدلاً من مساعد الوكيل ومساعد المحافظ للتعليم بدلاً من مدير تعليم المديرية .. وكان لتطبيق السلم التعليمي الجديد تداعيات عديدة فقد دعت الحكومة المواطنين في جميع أنحاء السودان لبناء الفصلين الخامس والسادس في المدارس الابتدائية بالعون الذاتي وانتظمت البلاد حملة واسعة لجمع التبرعات لهذا الغرض وكان الانقلاب الذي سموه ثورة جديداً ووجد تأييداً كبيراً انعكس على حماس الناس في جمع التبرعات ، حتى أنه حدث أمر مأساوي وهو وقوع مدير مدرسة من فوق جمل كان يركبه لجمع التبرعات في بادية كردفان ، ودقت عنقه وذهب إلى جوار ربه شهيداً للسلم التعليمي .. وأحدثت الدولة وساماً للسلم التعليمي قلدوه للذين

ساهموا مساهمة كبيرة في جمع التبرعات ، وكوفئ المدير المتردي من فوق الجمل بذلك الوسام وتسلمته أسرة الفقيد ..

وقد أشركت التلاميذ في إدارة المدرسة وتقوية روح الانتماء إلى المدرسة وأن يشعر كل واحد بأنها مثل بيته ، وفي هذا الصدد أنشأنا جمعية تعاونية للبوفيه يديرها التلاميذ وينتخبون لجنة منهم لهذا الغرض وجعلنا قيمة السهم الواحد عشرة قروش ، وكان من أهداف الجمعية توفير إفطار صحي جيد بثمن ميسور للجميع وتوفر الإفطار لغير المستطيعين منهم بالمجان ، وحققت الجمعية أرباحاً وزعت على حملة الأسهم في آخر العام كما شيدنا مسرحاً للمدرسة بمعاونة مجلس الآباء وتبرع أحد الآباء وهو مقاول بالرمل والتراب والأسمنت وتبرع آخر بالخشب وتبرع نجار وآخر بناء من الآباء بالعمل ، وعملت مع الطلبة في نقل الرمل والتراب ، وافتتحنا المسرح في ليلة بهيجة بمسرحية وعروض شيقة ودعونا الآباء وأمهات التلاميذ للحضور ، كما حضرها مساعد المحافظ للتعليم الذي أبدى سروره واستحسانه وتبرع لنا بمبلغ مالي لإتمام المناقص في المسرح..

كما زرعت جمعية الزراعة الحوش في مدخل المدرسة من الداخل بالنجيلة والزهور والورود .

ومن أجل تجميل المدرسة نظمنا مسابقة بين الفصول لطلاء جدران كل فصل وتحمس التلاميذ للفكرة وأشترك تلاميذ كل فصل في جمع النقود التي اشتروا بها البوهية والجير والفرش وقاموا بأنفسهم بطلاء فصولهم وبدت الفصول في حلة زاهية ، وتغلبنا بذلك على أمر الصيانة والذي تخلت عنه الوزارة من زمن بعيد ..

وفي الأنشطة أنشأنا جمعيات مختلفة للفنون والعلوم والمسرح والثقافة ، أبرزت إنتاجها في المعارض التي أقمناها في يوم الآباء، كما كانت جمعية الإصلاحات تقوم فوراً بإصلاح أي كرسي تلميذ به تلف ..

كما قمت بعمل حوض مستطيل للوضوء ووصلنا المواسير والحنفيات إليه وإلى المراحيض ، وعملنا أغطية لأزيار الماء التي تملأ في المساء حتى يصبح الماء بارداً في اليوم التالي ، وكنت أتفقد كل ركن في المدرسة قبل أن أخلد إلى مكتبي .

كانت المدرسة مركزاً لامتحان دخول المدارس المتوسطة ، وحدث أن تسرب الامتحان من المطبعة الحكومية في ذلك العام ١٩٧٠ مما أحدث ضجة كبرى وفضيحة مدوية لأنه لم يحدث ذلك من قبل، وألغي الامتحان برمته، وعمل امتحان جديد وعملت ضوابط مشددة وإجراءات شديدة للحفاظ على سلامة الأسئلة منها أن أوراق الأسئلة تحفظ تحت الحراسة في مركز الشرطة الرئيسي في كل مدينة، وكنا نحن رؤساء اللجان نذهب في السادسة صباحاً لاستلام أظرف كل مادة يومياً حتى نهاية الامتحان ونضعها في خزائن مكاتبنا ونخرجها قبل ربع ساعة من الامتحان ، كما أن كل ورقة للإجابة تكون مختومة بختم المدرسة ، وتسلم أوراق الإجابة بالعدد وتستلم بالعدد ، وأما الأسئلة فإنها توزع قبل خمس دقائق من بداية الامتحان ، ويبدأ التصحيح من مساء اليوم الأول للامتحان ، وكانت الحجرة المخصصة للكنترول والتي تحفظ بها أوراق الأجوبة تقفل وتشمع بالشمع الأحمر بعد انتهاء العمل وتفتح بعد فحص الشمع والقفل وتتم

هذه العملية مرتان في اليوم لأنه هناك فترتان للتصحيح والرصد في النهار والمساء ، وإضافة إلى ذلك فإن هناك حراسة على هذه الحجرة ليلاً ونهاراً من ستة من جنود الشرطة برئاسة رقيب ، وظلت هذه الإجراءات قائمة إلى أن انتهينا من أعمال الامتحان والتي استغرقت عشرة أيام .

في العام التالي كلفني مكتب التعليم برئاسة مركز منطقة بحري لإجراء امتحان الشهادة الابتدائية والدخول إلى المدارس المتوسطة وتعين معي اثنان من وكلاء مدارس بحري المتميزين ، وكان مركز الامتحان في مدرسة بحري الحكومية الثانية ، وكان علينا نقل مئات الأدراج والكراسي من المدرسة الأهلية المجاورة للمدرسة الحكومية إضافة لما كان فيها ..

كانت فترة عملي بمدرسة بيت المال المتوسطة أطول فترة عمل بلغت ستة أعوام أزعم أن المدرسة في تلك المدة أصبحت من أميز مدارس العاصمة وكانت الوزارة ومكتب تعليم الخرطوم يوجهون الزائرين المرموقين لزيارة المدرسة ، كما أن وزير التربية والتعليم زارها ، وفي العام السادس لي بالمدرسة رقيت إلى المجموعة السابعة موجهاً فنياً وكانت هذه الدرجة من الدرجات القيادية العليا ، ونقلت مترقياً إلى مكتب تعليم جنوب دارفور ، وفي ذلك الحين قسمت مديرية دارفور إلى ثلاث محافظات هي شمال دارفور وعاصمتها الفاشر وجنوب دارفور وعاصمتها نيالا وغرب دارفور وعاصمتها الجنينة ، ودارفور تبلغ من المساحة ما يعادل دولة فرنسا ، وأنشئ في كل محافظة مكتب للتعليم وبكل مكتب ثلاث إدارات للمراحل المختلفة الابتدائية

والمتوسطة والثانوية وبكل إدارة موجهين للمرحلة على رأسها كبير موجهين .. جابهتني مسألة شخصية فقد كانت زوجتي تدرس بسنتها النهائية في المعهد الفني بالخرطوم وكان على أن أسافر إلى نيالا لاستلم عملي هناك .. أعتبر نفسي محظوظاً ان قيض الله لي رجلاً لا ككل الرجال وهو طيب الذكر المرحوم الطيب عبد الله يعقوب _ طيب الله ثراه _ فقد كان رجلاً متفهماً كريماً فاضلاً وإدارياً واعياً وله من أسمه نصيب وافر فهو طيب متواضع شهم

وكان موجوداً في الوزارة في ذلك الحين . وكلمته في أمري وطلبت منه أن يمهلني إلى نهاية العام على أن يوكل إلى أي عمل يتطلبه وجودي بالعاصمة ، ووافق الرجل على الفور ولا سيما ان إدارة التعليم بنيالا جديدة وستبدأ من الصفر ، فكانت أثاثات المكاتب وماكينات الكتابة والأوراق وكذلك الأثاثات والكتب والأدوات للمدارس تجئ من مصلحة المخازن والمهمات بالخرطوم بحري وتشحن في عربات سكة حديد من هناك الي نيالا وكانت هناك مبالغ مالية مرصودة تدفع علي أقساط شهرية من وزارة المالية بالخرطوم وسيارات بمصلحة النقل الميكانيكي بالخرطوم بحري بالإضافة الي قضايا المعلمين المعلقة بالوزارة من علاوات وترقيات وأشياء أخرى ، وأوكل الي مساعد المحافظ متابعة وإنجاز هذه الأمور وحصل علي موافقة الوزير وافرد لي مكتب بالوزارة وأصبحت رسميا مندوب أو مدير مكتب تعليم جنوب دارفور بالوزارة ، وكان لذلك اكبر الأثر في انسياب وسرعة إتمام وإنجاز الأعمال ، مما دعا لتحذوا حذونا بعض إدارات التعليم الجديدة ، ولكن للأسف حدث ما شاب هذه المبادرة

من عمل معيب فقد قام أحد مندوبي مكاتب التعليم الجديدة بشحن كتب وكراسات المدارس في شاحنات ثم باعها في السوق واختفي، وقيل انه سافر الي إثيوبيا ...

في جنوب دارفور ..

أصبحت مندوب مكتب تعليم جنوب دارفور بوزارة التربية والتعليم بتخويل ان اقضي أي موضوع وأوقع بالنيابة عن مساعد محافظ التعليم بجنوب دارفور ، وكان إنشاء المكتب بنيالا يستدعي السرعة في إنجاز الأعمال ، وعثرنا علي وسيلة اتصال سريعة لتبادل المكاتبات وهي تضمن لنا الاتصال في نفس اليوم أو اليوم التالي علي إرسال الشيء المراد إرساله ، فقد كانت هناك ثلاث سفريات بالطائرة لنيالا من الخرطوم في الأسبوع ، وتقلع الطائرة في السابعة صباحا من مطار الخرطوم ، وكنت اذهب مبكرا الي المطار وأعطي الخطابات لاحد المسافرين واطلب منه ان يسلمها للأستاذ الطيب أو لمكتب التعليم فقد كانت مكاتب التعليم بالقرب من السوق ، وكانت المكاتبات تصلني من نيالا بنفس الطريقة ، وكان كل من قصدناه متحمسا لاداء هذه الخدمة فقد كانوا فخورين بمكتب تعليمهم الجديد ، وبالأستاذ الطيب الذي نال ثقتهم وتقديرهم .

ووفرت لنا هذه الطريقة التأخير في البريد العادي والذي اصبح سمة غالبة ، واستدعي تشعب وكثرة العمل الذي كان أكثره ميدانيا من الذهاب الي مصلحة المخازن والمهمات ومصلحة النقل الميكانيكي والمسبك المركزي لعمل أختام للمكتب مما يستدعي متابعة شبه

يومية ، وأتاحت لي هذه المتابعة الإلمام بعمل وأقسام مصلحة المخازن والمهمات والتي تحتل مساحة واسعة وبها عديد من الأقسام المختلفة والمستودعات الهائلة والمصلحة تمد كل وزارات الحكومة بجميع الأصناف التي تحتاجها من أثاثات وحقائب جلدية وملابس رسمية ودفاتر حسابات وعشرات الأصناف والتي تصنعها في ورشها ، ويسير العمل فيها بدقة وانتظام وجودة عالية في إنتاجها ، وهي تشحن وترسل هذه الأصناف الي جميع أرجاء السودان من حلفا الي جوبا ومن بورتسودان الي الجنينة ..

إنها حقا مفخرة تسجل للعاملين فيها من صناع وحرفيين وموظفين وخفراء ، واسترعي انتباهي وإعجابي جماعة من الشبان العميان يعملون في تعداد الكراسات كل مائة منها في رزمة وحزمها ، وهم يؤدون عملهم بسرعة وكفاءة دونها كفاءة المبصرين ، وهذه محمدة من القائمين على قيادة المخازن والمهمات أن أتاحوا الفرصة لهؤلاء الشبان ليعملوا ويكسبوا من عمل أيديهم .. وانضم إلي في المكتب زميل وزميلة من كادر الابتدائي حالت ظروفها من الذهاب إلى نيالا وكانت الزميلة _ لحسن الحظ _ تتقن الكتابة على الآلة الكاتبة مما كفانا ((الشحدة)) لطباعه مكاتباتنا لدي كتبة الوزارة، وخفت أعبائي كثيراً .

ووجدت معاونة حقة من الأستاذ الكبير أحمد حسن فضل السيد ومساعده الأستاذ مصطفى اللذين كانا يسيران مكتب شئون الجنوب بالوزارة فقد أعارونا كثيراً عربتهم اللاندروفر ولعل الصداقة التي كانت تجمع بين الأستاذين الطيب عبد الله وأحمد حسن منذ عملهما

فترة طويلة في الجنوب ، الأثر في التعاون الذي وجدناه ، ولا يفوتني هنا أن أنوه بالمحبة والتقدير التي يظهرها الجنوبيين للأستاذ الطيب، وكان وهو في الشمال يقصدونه في حل مشاكلهم ولقد رأيت الرجل ينفق من جيبه لمن قصده معسراً وهو رجل موظف لا يملك من حطام الدنيا إلا راتبه !

أول ما زاولت عملي بالوزارة كنت اقتسم مكتب مع ثلاثة من الزملاء، أحدهم كان ملحقا بمكتب المسئول عن التعليم الأوسط. والثاني كان في حالة (تجمد) أي لا عمل له فقد نقل الي أحد مكاتب التعليم الجديدة واستأنف النقل لظروفه الخاصة وكان يقرأ كل الوقت في ديوان الشاعر إبراهيم ناجي ، وحسم أمره أخيرا بتكليفه رئاسة قسم التعليم الشعبي بالوزارة ، وهو شخصية ظريفة ساخرة وكان في حالة فلس دائمة فقد رزقه الله بقبيلة من البنين والبنات وكان هو نفسه صاحب مزاج ينفق عليه ، وينفق أيضا علي سيارته التي أكل الدهر عليها وشرب .. وكان ينظر الي نظرة ذات معني فيها الحيرة ويسألني بكلمة واحدة وهي (وبعدين) وارد عليه (كراع جادين) ، وهي مقولة حفظناها ، ويرد علي (هو جادين ده ذاته وين جيبوا لي الأول قبل كراعه؟) ونضحك أما زميل المكتب الثالث فقد كان طويلا متينا بشوشا وقارئ ذواقة وكانت تربطه بوكيل الوزارة قرابة وثيقة ، ولكنه كان يعاني من مرض انفصام الشخصية فمرة تراه هادئا لطيفا ومرة تراه هائجا كالبحر وذات مرة جاء حاملا في راحة يده سكين ذراع في جفيرها ودخل الي المكتب ووضع السكين أمامه علي مكتبه ، واقفل بابي المكتب من الجانبين وعلق لافته علي

الباب كتب عليها (اجتماع) ، ثم اخذ يتكلم ويصرخ في التلفون طالبا من عامل الكبانية أماكن غريبة مثل (أديني الخياط الجنب شاطئ البحر) ، ثم قام مهرولا وعاد بعد مدة حاملا أربعة مجلدات من مكتبة الوزارة يفتح الواحد بعد الآخر ويشتم في الإنجليز وغردون وكتشنر . وفي مرة وهو يذرع الوزارة جيئة وذهابا قابله الوزير وابتدره بالتحية ورد عليه بقوله بالانجليزية (أهلا بالوزير الميت Dead minister) . وكان يذهب للعلاج عند الدكتور بعشر وعرضه للكهرباء ، كما ان أخاه الكبير جعله يقرأ القرآن شطرا طويلا من الليل كما اخبرني بذلك ، وقد قابلت الأستاذ بعد عدة سنوات في سوق المورة بسوق امدرمان الكبير وقد هزل جسمه وحلق مقدمة شعر رأسه بالموسي واستبقي باقي شعر رأسه كما هو ، وكان يبدو ان حالته لم تتحسن واخبرني انه أحيل علي المعاش ...

قبل انقضاء العام استدعاني الأستاذ الطيب إلى نيالا لزيارة مدارس المنطقة للتوجيه ولكتابة التقارير السنوية عن المعلمين من أجل علاواتهم السنوية والترقيات ، وكذلك للاستعداد لحضور اللجنة الاستشارية للتنقلات بالوزارة والتي تنظر في أمر نقل المعلمين في جميع مدارس السودان ، أي إصدار الكشف العام لتنقلات المدرسين بين المحافظات ، وبعد ذلك تصدر مكاتب التعليم كشوفاتها المحلية لتنقلات المعلمين داخل المحافظة واستيعاب المنقولين الجدد من خارج المديرية أو المحافظة .

وبعد ساعتين من الطيران حطت الطائرة في مطار نيالا ويمكن أن نطلق عليه أسم مطار تجوزاً فقد كان مساحة ممهدة من الأرض

Strip محاطة بسلك شائك من ثلاث جهات ويوجد به صالة صغيرة معروشة وبها دكة من الأسمنت ، وعلمت فيما بعد أن المطار قد أكتمل تشييده وصار مطاراً بحق، ووجدت في استقبالي السيد الطيب مساعد المحافظ للتعليم ومعه اثنان من موجهي المكتب ، وكذلك صهري القاضي محمد عطا ومعه اثنان من القضاة ، وكان هناك جمع من المستقبلين للطائرة ، وتنافست المجموعتان في استضافتي والذهاب معهم ، وحسمه الأستاذ الطيب بأنني سأنزل معه الليلة في منزله على الأقل ولي الخيار في اختيار منزلتي بعد ذلك ، وذهبنا إلى منزل الأستاذ الطيب وقدمني الي زوجته ، وتصادف ان كانت هناك أزمة في الخبز في نيالا وأتحفتنا زوجته بعشاء لذيذ من دمعة الدجاج بقراصة القمح ، وافطرنا بعصيدة بملاح التقلية ، ولما كنت تعودت علي الإفطار بعد التاسعة صباحا قال لي الطيب ان اجرب الإفطار في الصباح قبل الذهاب للعمل ولن اخسر شيئا وعملت بنصيحته ووجدت ذلك شيئا مريحا وعمليا يكسب المرء طاقة جديدة لاداء عمله بنشاط ويكسبه ساعة من الزمن الذي يضيع في الفطور ، وهذه الساعة تمتد الي ساعتين في دواوين الحكومة ..

بما أنني كنت اكبر الموجهين درجة فقد كلفت بان أكون كبيرا لموجهي المرحلة المتوسطة ، وتنقلت مع مساعد المحافظ في مكاتب التعليم وعرفني بالزملاء في الأقسام المختلفة ، وكان هناك ثلاثة موجهين بالمرحلة المتوسطة وموجه مقيم بالمكتب ، ومن المصادفات السارة وجدت ان مدير الإدارة العامة بالمكتب أستاذي احمد شرف الدين والذي درسني الإنجليزية في السنة الثانية ابتدائي (متوسط)

بمدرسة الأحفاد الابتدائية قبل ثلاثين عاما ! واجتمعت بالموجهين ووضعنا خطة لزيارة المدارس حتى نهاية السنة للتوجيه وكتابة التقارير عن المدرسين في المحافظة ، وكان علينا ان نحصل علي تصريح بكمية البنزين اللازمة للعربة للقيام بهذه الجولة والتي تستغرق منا حوالي الأسبوعين ، واصطحبني أستاذي احمد الي المدير التنفيذي للمحافظة وقدمني إليه بشيء من الزهو بقوله زميلي وتلميذي كبير موجهي المرحلة المتوسطة وطلب منه كمية البنزين اللازمة ، وصدق لنا المدير ببرميلين من البنزين ، وقسمت الجولة الي أسبوعين ، تبدأ بأسبوع ثم الرجوع الي نيالا للمكتب لمدة يومين لكتابة التقارير ، ثم نبدأ الجولة الثانية ..

ذهبت ومعي الموجهون الثلاثة بعربة اللاندروفر الاستيشن الجديدة وبدأنا الجولة من بلدة كاس التي بها مدرسة للبنات ومنها اتجهنا الي زالنجي ، وكنت الي جانب توجيهي الإنجليزية اطلع وأراجع الدفاتر المالية ودفاتر المخازن والغذاءات . وتوجهنا الي زالنجي والطريق وعر وعبرنا بجزء منه يسمي (الفرناغة) وفيها الأرض تتكون من تراب ناعم كالدقيق ، تكاد إطارات السيارة تغوص فيه الي نهايتها ويتسلل التراب الي داخل السيارة بالرغم من إغلاق زجاج السيارة بإحكام ، ويتحالف الغبار مع الحرارة ليجعل الجو لا يطاق في داخلها ، وخرجنا بعد نصف ساعة من السير في هذه الفرناغة العذاب ، وتوقفنا وخرجنا من السيارة وكان مظهرنا مضحكا فالتراب يغطينا ويغطي ملابسنا من رؤوسنا والي أقدامنا وكأننا كنا مدفونين في التراب ! واستمرينا في الرحلة وانقلب الحال غير الحال فقد صفا الجو وسخت الطبيعة

واعتدلت الحرارة كلما اقتربنا من جبل مرة وعندما ارتقت السيارة الجبل وجدنا الخضرة قد كست كل شئ حوالينا ، وحقيقة ينبغي ان يطلق علي جبل مرة اسم سلسلة جبال مرة لأن الجبل يمتد لمسافة سبعين كيلومترا والطريق عبر الجبل لا يخلو من خطورة خاصة للسائق الذي لم يسلك الطريق من قبل ، فيوجد في قسم من الطريق منحني علي زاوية قائمة فتري الطريق ممتدا أمامك ولكنه في الحقيقة ينحني بزاوية حادة ويأخذ امتدادا آخر ، والطريق الذي يبدو ممتدا أمام الرائي يقود الي هوة سحيقة أسفله وحدثت حوادث مروعة لسيارات وشاحنات هوت الي قاع الهوة ومن تلك الحوادث الفاجعة ما حدث لطلبة من كلية الطب في جامعة الخرطوم كانوا في رحلة الي جبل مرة وكان سائق عربتهم التي جاءوا بها من الخرطوم يسير في الطريق وهوت السيارة بهم في الهاوية ولقوا حتفهم جميعاً ، وأطلق السكان المحليون على تلك البقعة مقبرة الطلبة ، ولا أدري لماذا لم يضع المسئولون علامات تحذيرية وعمل سياج متين في آخر الطريق يحمي السيارات من السقوط في الهاوية !

واجتزنا تلك المحلة بسلام لأن سائقنا كان متمرساً وجاز هذه الطريق مرات عديدة من قبل ، وتوقفنا عند بلدة نرتتي في الجبل وقيل أن نصل إليها اجتزنا ما يشبه النهير لمياه صافية شفافة تجيء من نبع في أعلى الجبل ، وفي نرتتي تجلت الطبيعة في أحلى صورها فقد كان مجرى من الماء مثل الخور يشق البلدة ويخترق البيوت في جداول وتنمو في كل بيت حديقة غناء من أشجار الفاكهة والخضروات ، وهنا تنمو فواكه منطقة البحر الأبيض والمناطق الباردة مثل البرتقال أبّ

صرة والتفاح ، أما الطقس فإنه معتدل يميل إلى البرودة وتنخفض درجة الحرارة كلما ذهبنا علواً في الجبل، ومن المفارقات اللطيفة أنني سألت امرأة كانت تبيع البرتقال أبّ صرة عن ثمن دسته البرتقال وقالت لي أن الدستة بستين قرشاً ، وقلت لها أن هذا غير معقول لأن ثمن الدستة في الخرطوم هو ستون قرشاً وأنتم هنا تزرعونه فلا بد أن يكون أرخص من ذلك ، وردت على قائلة : ((أنتم تشترون رطل السكر في الخرطوم بعشرة قروش ونحن نشتريه هنا بخمسين قرشاً فكيف لا نبيع البرتقال بستين قرشاً)) ، وألجمني ردها وحقاً ، من أين يأتون بثمن السكر ؟! ، ولاحظت أنهم لا يبيعون السجائر والتنباك في السوق ولا يتعاطونهما لأنهم يعتقدون أنهما حرام مع أنهم يزرعون التنباك أو التبغ وتكاد تكون دارفور الوحيدة التي تورد لبقية السودان التنباك ! ووواصلنا مسيرتنا إلى زالنجي التي تعتبر من أكبر مدن دارفور وفي طريقنا إليها رأينا مبني كأنه القلعة في بقعة موحشة عرفنا أنه سجن زالنجى، ، وهذا السجن رحل إليه حكام نظام الفريق إبراهيم عبود من الجنرالات عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤ م ، وحدث حينذاك أمر يبعث علي الدهشة والتأمل ، فقد رفض المساجين من المجرمين أن يكون معهم في السجن أولئك الحكام !!

ووصلنا زالنجي ، والمدينة تقع علي هضبة وتنتشر الخضرة في كل مكان وكان بها مدرسة متوسطة كبيرة ذات داخلية للبنين واخري للبنات وكذلك مدرسة قارسلا الجديدة ، وكان للمدرسة الحكومية منازل عديدة، وافردوا منزلا منها للموجهين الثلاثة ، ونزلت أنا مع مدير المدرسة (العزابي) في منزله والذي كنا نجتمع فيه

جميعا لتناول الغذاء والذي كانت تعده لنا زوجة مدير مدرسة البنات وهي معلمة بنفس المدرسة . وجاءنا موظف بالبنك ودعانا للعشاء باسم موظفي البنك ، وذهبنا الي دارهم وكعادة السودانيين اعدوا لنا ذبيحة كما اعدوا كراتين من الشراب ، وتصاعد دخان الشية (الشواء). و(عشوا) مولانا وغادر الي الدار للنوم . وطابت الجلسة ، وما ان حانت الساعة العاشرة ليلا اعتذرت للمضيفين عن الاستمرار في السهرة اللطيفة لانه ينتظرنا عمل كثير في الغد وطلبت من الزملاء الانصراف، وانصرف الزملاء علي مضض وكان مدير المدرسة أكثرهم مضضا ، وكان مشتهرا بحب الشراب وقد نقل من الخرطوم لهذا السبب ..

وفي المنزل كنت اسمع صوته يأتيني من داخل حجرته وهو يحتج قائلا (انحنا طلبة في داخلية ينومونا من الساعة تسعة ..) وأنا استمع إليه واضحك وظل في كلامه مع نفسه الي ان نام .

وفي الغد انقسمنا الي فريقين ذهب أحدهما الي مدرسة البنين والثاني الي مدرسة البنات ، وأمضينا ثلاثة أيام حتى فرغنا من أعمالنا . فوجئت وصدمت عندما وجدت كثيرا من الطلبة يجلسون علي صناديق الشاي الخشبية أو الصفائح الفارغة ويكتبون واضعين كراساتهم علي حجورهم! وضمنت هذا الحال المزري في تقريري عندما عدنا ووجدنا الحل لذلك وسأبينه لاحقا ..

وانهالت علينا الدعوات .. دعوة شاي من مدير مشروع السافانا ، ودعوة غذاء من كبير تجار البلد ودعانا الشيخ أبو شوارب الي الغذاء في داره العامرة ودعا جميع وجوه المدينة وموظفيها ، وهذا الرجل

الشهم منجم من الكرم والهمة فقد قام بمفرده بتشييد مبني لمدرسة ثانوية في زالنجي علي حسابه الخاص . ودعانا آخرون سقطت من الذاكرة أسماؤهم بطول المدة .

وكان للموجه مولانا مزرعة بن بالبلدة وارانا لها وكانت تلك أول مرة أرى فيها شجرة البن ، وأخذت حبات خضراء منها .. وقضينا الثلاثة أيام في عمل وتلبية دعوات ، وقفلنا راجعين ، ومنحنا أنفسنا راحة لنقضي الليلة في استراحة بالجبل ولنشاهد معالم الجبل عن كثب ، وتسلقت العربة اللاندروفر الجبل تسلقا في طريق متعرج ملئ بالصخور والحجارة فكانت السيارة تثب وثبا فوق الصخور مستخدما السائق مغير السرعة الذي يسمونه (ترس القوة) وهو يجعل هذه السيارة تسير في الرمل والطين والصخر ووصلنا الاستراحة الحكومية والتي كانت مهيأة بالأسرة والفراش وبها خفير وفراش . كان الجو باردا وقضينا الليل نتقلب من البرد واصبح الصبح ووقعت أنظارنا علي أروع منظر يمكن ان يصافح العيون فالازاهر من كل لون في كل مكان ، وأريحها يعطر الجو وخضرة الأشجار زاهية ونظيفة وكأنها غسلت بالماء والصابون ، وشقشقة الأطيار تطرب السمع وكأنها أوركسترا موسيقية تعزف ألحانا عبقرية .. وذهبنا الي موقع البحيرة غير بعيد من الاستراحة وهي بحيرة وسط الصخور تنبع من باطن الأرض وتغذيها مياه جارية نابعة من قمة الجبل ، والبحيرة تحوطها الأشجار والأزهار من كل جانب ، ومياه البحيرة صافية شفافة ، وسموها بركة الفيل كما حدثنا الخفير لان فيلا غرق فيها فمياه البحيرة عميقة .. وقال لنا الخفير ان الكبراء ورؤساء الدول يأتون بهم

الي هنا ويضربون لهم فسطاطا أي صيوانا بجانب البحيرة ويقضون اليوم هناك وكانوا جميعا مسحورين بجمال وروعة المكان ..

واستمتعت بذلك المحيط الشاعري الجذاب الذي يغسل من الروح منغصات الحياة واوشاب العيش ! وصحوت من الحلم الواقعي الجميل وقفلنا راجعين الي نيالا عبر الطريق الوعر وخائضين بسيارتنا الفرناغة اللئيمة !

وقدمت تقريرا لمساعد المحافظ للتعليم شفاهة وكتابة فهناك أشياء لا تذكر في التقارير الرسمية وليس كل ما يعرف يقال شريطة ان لا يخل المسكوت عنه بسير العمل .. وذكرت له سوء الحال من جلوس الطلبة علي صناديق الخشب والصفائح وهي حالة ملحة تستوجب حلا سريعا ، وأننا إذا طلبنا الكراسي من الوزارة التي تطلبها من المخازن والمهمات وفي حالة توفرها فان هذه العملية تأخذ وقتا طويلا وربما تصلنا في العام الجديد ، وقلت له لماذا لا نقدم عطاءات لتصنيعها أو شرائها محليا حسب ما نضعه من مواصفات ونكون قد حققنا بذلك أمرين أو نكون قد اصطدنا طائرين بحجر واحد وهما أولا قلة التكلفة المالية وثانيا سرعة الإنجاز والتسليم ، وقال لي لماذا لا نصنعها نحن في مكتب التعليم وتكون لنا ورشتنا الخاصة ما دام لنا بند مالي للإنشاء في الميزانية ، ثم ان المديرية تزخر بالأخشاب ، ووافقته بحماس علي هذه الفكرة وبعد الحصول علي المصادقة من المحافظ شرعنا في العمل ، وبدأ العمل ، وبعد وقت قصير تمكنا من اجلاس معظم تلاميذنا في كراسي وما يزال العمل جار لتغطية جميع المدارس التي تعاني من نفس المشكلة .

كلفت برئاسة لجنة قبول التلاميذ والتلميذات بمنطقة الضعين ويوجد بمدينة الضعين مدرستان متوسطتان للبنين ومدرسة متوسطة للبنات ، وحجز لي المكتب قمرة نوم بالقطار الي الضعين وهذه القمرة كانت في الماضي قمة في الرفاهية وكانت آخر مرة لي لركوب القطار قبل تسع سنوات علي هذه الدرجة ، ووجدت الحال غير الحال في ذلك الوقت ، فغطاء السرير ممزق ومتسخ ، والقمرة مظلمة والمروحة لا تعمل ولا يوجد ماء بالترمس ، بل لا يوجد ترمس أصلاً وقلت في نفسي إذا كانت هذه الحال في قمرة النوم فكيف يكون في الدرجات الثانية والثالثة والرابعة؟! سؤال لم يحتاج إلى إجابة فإن عدد الراكبين فوق سطح القطار كان أكثر من الركاب المحشورين كالسردين داخله !! وتحرك القطار بعد ساعتين من موعده المضروب لتحركه وقطار نيالا يشتهر بتسكعه وإبطائه في سيره ولا يعلم أحد متي يصل إلى غايته إلا علام الغيوب ، وخاصة في فصل الخريف !

ووصل القطار أخيراً إلى مدينة الضعين بعد رحلة مضنية ووجدت في انتظاري مدير المدرسة الحكومية المتوسطة الأستاذ محمد يعقوب زريبة والذي استضافني بمنزله ، وهو مدير مقتدر وشخصية محترمة في البلدة وكان المكتب في نيالا يعتمد عليه في مدينة الضعين وذلك قبل أن يفتح المكتب فرعاً له هناك .. وفي الغد عقدنا اللجنة التي كان من أعضائها مديرا المدرستين المتوسطتين واثنان من الأعيان، وفرغنا من قبول التلاميذ في جلسة ممتدة من الصبح وحتى الواحدة بعد الظهر ومن هناك توجهت إلى مدرسة البنات الوسطى وكان معي

مدير المدرسة والذي للمصادفة كان من أبرز المعلمين في مدرسة العيلفون المتوسطة عندما كنت ناظراً لها قبل خمسة عشر عاماً .
وحدث هنا في القبول للداخلية شيء مماثل لما حدث في لجنة القبول بمدرسة بورتسودان الحكومية قبل ثمانية عشر عاماً ، فمن شروط القبول للداخلية أن لا يكون أهل التلميذ أو التلميذة من سكان المدينة ، وأصرت إحدى أمهات التلميذات أن تقبل أبنتها بالداخلية .
وحاولت إفهامها بأن أبنتها لا تستحق القبول بالداخلية ، وأسر لي المدير بأن البنت يتيمة الأب وتعيش مع أمها في قطية وأن الأم بتبيع الفول والتسالي واللالوب وتعيش مع أبنتها تحت خط الفقر ، والأم تغيب طول النهار وجزءاً من الليل في طلب الرزق وتترك البنت بمفردها وهي في طور المراهقة ولا تأمن عليها ..

ووعدتها بأن أنظر في أمر أبنتها بعد أن نفرغ من قبول المستحقات واللواتي حالاتهن أكثر إلحاحاً من حالة ابنتها لأن الكثيرات يأتين من أماكن وبلدان بعيدة وليس لهن أحد بالمدينة ، وفرغنا من القبول وراجعت عدد المقبولات بالداخلية ووجدته مكتملا ، وإذا قبلت ابنة المرأة فسيزيد العدد واحدا فوق المصرح به بالقبول ، وقبلت البنت، وخرجت من هذا المأزق بكتابة ملحوظة تقول بأن تقبل البنت فوق العدد المحدد نسبة لظروفها الخاصة وبعد تصديق مساعد المحافظ للتعليم ، وكان ان صادق الإنسان مساعد المحافظ للتعليم علي قبولها..

عدت الي نيالا وأوفر علي نفسي وعلي القارئ وصف رحلة العودة بالقطار فقد كانت أسوأ من رحلة الذهاب .. انه قطار نيالا وكفي !

وجدت عند عودتي خطابا رسميا من المحافظ يكلفني فيه برئاسة مجلس تأديب لمحاسبة أحد الموظفين، وكانت تلك ثالث مرة أتلقى فيها مثل هذا التكليف ، فعندما كنت مندوبا لتعليم جنوب دارفور بالوزارة كلفني المدير العام للتعليم العام بعضوية مجلسي تأديب لمحاسبة اثنين من المدرسين ، وعلمت ان ذلك الموظف كان معتقلا من الأمن وأخلي سبيله ، وبعد ذلك تشكل له مجلس تأديب . إذاً الأمر سياسي ويريدون ان ينالوا منه ما لم يستطيعوا ان ينالوه بالقضاء، واعتذرت عن المهمة لأن موعد مجلس التأديب يتعارض مع ذهابي الي الوزارة في الخرطوم للاشتراك في اللجنة الاستشارية للتنقلات والتي يشارك فيها كبار الموجهين في محافظات السودان والتي تقرر في نقل المعلمين علي نطاق السودان .

ذهبت الي الخرطوم ممثلا لمحافظة جنوب دارفور في اللجنة الاستشارية لتنقلات مدرسي المرحلة المتوسطة ، وهناك لجنتان أخريان للمرحلة الثانوية والمرحلة الابتدائية، وذهبت متزودا بالإحصاءات والمعلومات عن المدرسين وعن احتياج المحافظة من مدرسي التخصصات المختلفة للمواد وبطلبات الراغبين في النقل الي المحافظات الأخرى ، وكانت هذه أول مرة أشارك فيها في هذه اللجنة ، وافتتح الجلسة الأولى وكيل الوزارة مرحبا بنا ومتمنيا لنا التوفيق في مهمتنا ومذكرا لنا بأن نلتزم النزاهة والدقة في عملنا وملتزمين بالسرية التامة الي ان يصدر كشف التنقلات بعد اعتماده من الوكيل والوزير في صورته النهائية ، ولا أريد ان ادخل في تفاصيل العمل ولكن القي الضوء علي جانب واحد وهو طلبات النقل للراغبين في النقل من

محافظاتهم الي محافظات أخرى ، فأن كبير الموجهين للمحافظة يعرض الطلب علي الاجتماع ويذكر السبب أو الأسباب المصاحبة لطلب النقل ، ويناقش المجتمعون الطلب ثم يقررون قبول النقل أو رفضه وتكتب أسباب الرفض علي الطلب ، وتعرض وتناقش كل حالة علي حدة ، وهناك طلبات يقدمها ممثل المحافظة لنقل مدرس من محافظته ، وتحضرني حادثة طريفة فقد قدم ممثل إحدى المحافظات اسم مدرس للنقل من محافظته وطلب وأصر علي نقله الي جنوب دارفور ، ووجدت الحضور يضحكون ويتغامزون ، فخمنت ان في الأمر شيئا ، وسألته عن إصراره علي نقله الي جنوب دارفور بالذات والمدرس ليس من المنطقة وأنني لن أقبل نقله إلينا إلا إذا بين لي السبب الحقيقي لنقله ، وآزرني بعض المجتمعين ، واخيرا كشف عن المستور وقال ان ذلك المدرس من النوع الشاذ السلبي جنسيا ، وان الناس في جنوب دارفور لا يعرفون الشذوذ ولو فعل فعلته تلك هناك فربما يتلقي طعنة سكين أو ضربة عكاز تريح الخلق منه ، وزاد ضحك الجميع ، ورددت عليه قائلا انه بدلا من ان نعرض حياة هذا المبتلي للهلاك فان لم نستطع تقويمه أو بتره فلا يحق لنا ان نضيع عمره ، وعسي ان يتوب ويقلع عن شذوذه ، وأنني بدلا من ذلك اقترح ان ننقله لمحافظة كبيرة وسيذوب وسط الملايين فيها وارشح ولاية الخرطوم ووافق الاجتماع علي ذلك رغم احتجاج كبير موجهي الخرطوم ..

وحدثني الأخ كبير الموجهين بمحافظة شمال دارفور عن مدير مدرسة يريد ان ينقله إلينا في جنوب دارفور وهو من زالنجي ونقل تعسفا الي الجنينة ونتيجة للظلم فقد صار يشرب كثيرا من الخمر

ويخشي عليه من التلف وعرفني باسمه وهو إبراهيم أبو الخيرات ، وعرفت فيه صديقي القديم عندما كنت ناظرا لمدرسة الجنينة الوسطي للبنات قبل ١٠ سنوات، وجاء منقولا ليفتح مدرسة هبيلة المتوسطة الجديدة بمبني مدرسة الجنينة المتوسطة للبنين ، وعلمت قصته بعد ذلك فقد عين مديرا لمدرسة زالنجي الحكومية المتوسطة بعد ان كان نائبا في البرلمان عن حزب الأمة ، بعد حل البرلمان . وفي زيارة للرئيس السابق جعفر نميري ومعه وزير التربية والتعليم الدكتور محي الدين صابر قابلهم طلاب وتلاميذ المدارس بمظاهرة وكانوا يطالبون فيها بالكتب والأدوات ، واتهم الأستاذ إبراهيم بتحريض الطلاب علي التظاهر وأوقف من العمل وقدم لمجلس تأديب ، وبرأه مجلس التأديب ، ونقله الوزير الي الجنينة بتوصية ليبقي بها أبدا. وكان بين الوزير والمدير عندما كان نائبا للبرلمان مشاحنات .. ونقلنا أبو الخيرات الي جنوب دارفور ونقلته الي موطنه زالنجي ومديرا لمدرسته القديمة المتوسطة الحكومية .. وجاء الرجل الي نيالا وجاءني ليشكرني ولم أكد اعرفه ولم يكن ذلك الرجل المتين البنيه الذي عرفته فقد صار هزيلا ترتجف يداه وعيونه محمرة ، وجلس مطرقا ساكنا لا يتكلم وتسقطت أخباره بعد عدة اشهر وعرفت انه اقلع نهائيا عن شرب الخمر وتحسنت صحته وعادت إليه حيويته .

كانت هناك مشكلة مزمنة وشائكة تعاني منها الوزارة ولا نستطيع لها حلا وهي وجود أعداد من المدرسين الذين يعانون من أمراض عصبية ونفسية ويخضعون للعلاج لمدة طويلة ، وهناك فئة من المدرسين يدمنون شرب الخمر ، وهناك فئة ثالثة عديمي الكفاءة ومهملين ولا مبالين .

وجاءنا في الاجتماع توجيه مكتوب من الوزير يطلب فيه ان تعد كل محافظة ثلاث قوائم ، واحدة تحوي أسماء مرضى الأعصاب والذين درج علي تسميتهم بالمجانين ، وقائمة ثانية بأسماء المدمنين علي الخمر ، وقائمة ثالثة بأسماء المهملين والضعفاء في كفايتهم وادائهم . واعددنا القوائم ، واصدر الوزير قرارا بإحالتهم جميعا للمعاش ، ووجد القرار استحسانا من اغلب المدرسين لأن أولئك المدرسين كانوا يسببون صداعا مستديما لما يسببونه من مشاكل في المدارس . وللحقيقة والتاريخ كان ذلك الوزير هو الدكتور منصور خالد والذي رأت وزارة التربية والتعليم علي يديه خيرا كثيرا من تنظيم للوزارة وإنصاف للمعلمين وحل للمشاكل المزمنة وكل ذلك خلال الفترة القصيرة التي تولي فيها مقاليد الوزارة ، ولم تشهد الوزارة وزيرا مثله في كفايته من قبل ومن بعد ..

أنفقنا واحدا وعشرين يوما في أعمال لجنة التنقلات وكنا نجتمع في جانب قصي من الوزارة في قاعة مقفلة علينا ولا يدخل عليها أحد من الوزارة أو خارجها ، وكنا عندما يقابلنا أحد الزملاء من الوزارة ويسألنا عن شخص معين نعتذر له بأننا أقسمنا علي المصحف ان لا نبوح بأي شئ مما يدور في اللجنة ولا نصرح بشيء إلا بعد صدور كشف التنقلات من الوزارة ، وفي آخر يوم لنا في العمل أتى إلينا صراف الوزارة حاملا في حقيبته المبالغ التي نستحقها من بدلات نقدية للسفر والمعيشة خلال الفترة التي قضيناها في أعمال اللجنة وكان زميل لنا في اللجنة ابرم معه هذا الترتيب علي ان يدفع كل واحد منا مبلغ جنيه واحد .

لا يستقيم ان استمر في الكتابة عن إقامتي بنيالا دون الحديث عن أناس بعضهم من أكرمني باستضافتي معه في منزله وبعضهم من كانت عشرتهم ومعرفتهم مكسبا لي في رصيدي الإنساني من كرام الناس ، وبدون ترتيب أو تفضيل ، فعندما نقل صهري مولانا محمد عطا والذي استضافني معه في منزل القضاة العزابة والذي كان يسكنه مع اثنين من القضاة الشبان ، استضافني في منزله مولانا عمر المنا القاضي المقيم بنيالا وهو شاب جمع حكمة الشيوخ مع حماس الشباب ويزين ذلك كرم فياض وثقافة ثرة ، وشخصية أخرى هو قاضي المديرية مولانا عبد الله التوم وهو من الطف خلق الله ، وسبقت لي معرفة به وبأهله في حي الضباط وحي بانت منذ ان كنا أطفالا ، ويتميز بكرم أصيل وتواضع غير مصطنع وتجد من معارفه أو أصدقائه من كل الطبقات من الوجهاء والي الجزمجي عندما تراه مختلطا بالناس في نادي البلدة ، وهو شعلة لا تهدأ من النشاط ، واما عندما يجلس علي منصة القضاء فهو القاضي العادل الصارم المهاب ، وقد كون فريق لكرة القدم من عواجيز رؤساء المصالح بنيالا اسماه فريق الأحد Sunday Team وهو امتداد للفريق الام في الخرطوم وكانوا يلعبون كرة القدم بإستاد نيالا في يوم الأحد من كل أسبوع ، وكان القضاة يأكلون جميعهم في الميز ، وشاءت الصدفة ان يكونوا كلهم عزاب ، وكان من عادتي وما زالت ان اخلد الي قيلولة بعد الغداء ، ولكن مولانا عبد الله جعلني بلطفه أتنازل عن (النومة) لالعب معهم (الوست) لعبة ورق اللعب المعروفة ، ولكن كنت العب بعقل نصف يقظ وتسببت في ذلك لزميلي في اللعب في الهزيمة والتي ترقي أحيانا الي درجة (الاسنافيك) وهي قمة الهزيمة في هذه اللعبة .

ولا انسي صديقي عوض سعد اختصاصي الأشعة بمستشفي نيالا والذي تعود معرفتي به الي امدرمان وهو من أبناء فريق الضباط الذي قضيت فيه شطرا من طفولتي في منزل جدي لأمي وسعد شخص جاد في ظرف وكرم أصيل وكان لي أخا عوضني عن اخوة الرحم وكنت اسهر معه في ليالي الخميس وتتحفنا زوجته الفاضلة بعشاء شهي ..

كما قضيت شطرا من إقامتي بنيالا مع صهري الصديق الدكتور الطاهر إسماعيل مساعد المحافظ للصحة في منزله بعد ان سافرت زوجته للخرطوم ، وهو شخص هادئ الطبع رفيع الخلق ، أما الزملاء في مكتب التعليم من موجهين وموظفين وكاتبات ، كانوا جميعا رفقاء وكانوا يزاولون أعمالهم بإتقان وإخلاص ، ويقود هذه النخبة من العاملين الأخ الكبير الإنسان الطيب عبد الله _ طيب الله ثراه وجعل صحبته مع الصديقين والشهداء ، فوضع أساسا متينا قام عليه بنيان مكتب تعليم جنوب دارفور شامخا راسخا وضرب لنا مثلا في تعامل الرئيس مع مرؤوسيه في السماحة مع الحسم والعدل مع الرفق ، وفعل ما ينفع الناس . وصدر كشف التنقلات ووجدتني منقولا الي مكتب تعليم الخرطوم ، وأذنت شمس بقائي في نيالا بالأفول لتشرق من جديد علي موطني الصغير بأمدرمان حيث منبت وجودي وملاعب صباي ووثبات شبابي ، وها أنا أعود إليها بعد تجوال طويل المدى في أرجاء وطننا العريض الكبير، وغادرتها في زهرة الشباب ، وأعود إليها في بواكير الكهولة ...

في امدرمان مرة أخرى :

يعد مكتب تعليم الخرطوم اكبر ادراة تعليم في السودان ويشرف علي مدارس العاصمة المثلثة ، ورئاسة المكتب في الخرطوم حيث يوجد مكتب مساعد المحافظ للتعليم ومكاتب كبار الموجهين للمراحل الثلاث ، الثانوية والمتوسطة والابتدائية والإدارات الأخرى المختلفة ، واما مكتب كبير المشرفين التربويين فيوجد في الخرطوم ثلاثة ، وتوجد مكاتب الموجهين التربويين بمدرسة الخرطوم الابتدائية في قلب الخرطوم والذي حل محلها مبني بنك البركة ومن أسف ان هذه المدرسة كانت أول مدرسة في السودان في عهد الاستعمار التركي المصري وكان أول ناظر لها العالم رفاعة رافع الطهطاوي ، ثم رُحلت المدرسة ومنحت أرضها لاتحاد المعلمين ليقيم عليها داره وفندق للمعلمين وقاعة اجتماعات ومرافق أخرى ، ولقد استقطع راتب يومين من كل معلم ومعلمة في السودان لهذا الغرض ، وواقع الحال ينبئ عن فقدان الأرض والمال المرصود معا ! وسميت منطقة الخرطوم بين النيلين وبها مكتب تعليم خاص بها من موجهين واداريين وهذا المكتب مسؤول عن جميع المدارس من جبل أولياء جنوبا والي العيلفون وأم ضوا بان وما حولها شرقا وغربا يحدها النيل ، أما مكتب امدرمان وتدعي غرب النيل فيشرف علي المدارس في المنطقة الممتدة جنوبا الي الفتيحاب وايد الحد وشمالا الي الشهيناب ووادي سيدنا وشرقا الي النيل وغربا الي أم بدة ، واما مكتب الخرطوم بحري ويدعي شرق النيل فهو مسؤول عن المدارس في المنطقة الممتدة الي ما بعد الكدرو . وكان كل مكتب يعمل به الموجهون القاطنون في

نفس المدينة ، وهكذا جاء عملي بأمدرمان بمكتب التوجيه التربوي وكان مكتبنا في جزء من مباني المدرسة الأهلية المتوسطة العريقة وكذلك كان بها مكتب كبير المشرفين التربويين ، وهذا عمله إداري يشمل قبول التلاميذ والإمدادات بالكتب والأدوات ومباني المدارس ، وعمل التوجيه التربوي مسؤول عن المعلمين وتوجيههم وتنقلاتهم وكتابة التقارير عن أدائهم ، ومسؤول عن العملية التعليمية التربوية وتطبيق المقررات الدراسية للمواد المختلفة ، وهناك موجهون مختصون لكل مادة مثل اللغة العربية والإنجليزية والرياضيات. وكانت مدارس غرب النيل موزعة بيننا وتشمل مدارس البنين والبنات الحكومية والأهلية ، والموجه مسؤول فنيا واداريا عن مدارسه الي جانب توجيه مادته في المدارس الأخرى ، ولقد أوكلت الي اثني عشرة مدرسة وكان عدد الموجهين بأمدرمان أحد عشر موجها ، ومعنا موجه للتربية المسيحية يشرف علي مدارس الطائفة القبطية ، وكان كل موجه يمثل مساعد المحافظ للتعليم ويتخذ أي قرار نيابة عنه ويوقع علي أي ورقة رسمية عن مساعد المحافظ للتعليم ، وهذا النظام يمكن من انسياب العمل وعدم تركز السلطات في شخص واحد ، أو توزيع المسؤولية أو (تمييعها) بين عدة أشخاص .

كنا نجتمع في المكتب قبل الثامنة صباحا ونستقل من هناك حافلة المكتب ونتوزع علي المدارس المختلفة ونرجع الي المكتب ثانية قبل الثانية بعد الظهر ، وكان يوم الخميس من كل أسبوع هو موعد اجتماع الموجهين في المناطق الثلاث بمكتب كبير الموجهين بالخرطوم ، وكان عددنا يربو علي الثلاثين موجها وموجهة ، وكان ذلك

الاجتماع الأسبوعي مكرس لاستعراض العمل ومناقشة المشكلات التي لقيناها في المدارس والملاحظات المهمة ونخرج بقرارات واجبة التنفيذ ، وكان يتم النقاش في جو مفعم بالحرية والصراحة ونشدان الأفضل في أدائنا واداء المدرسين والمديرين في المدارس ، ومن طريف ما يذكر انه كان معنا زميل موجه للتربية الإسلامية واللغة العربية يحرص علي ان يكون مقعده أول مقعد قرب طاولة مكتب كبير الموجهين ، وكان شديد الحرص علي كتابة كل ما يتفوه به كبير الموجهين ويملأ منه أوراقا كان يضعها في حجره ، مع انه لم يكن يشارك في النقاش ، وأسميناه (كاتب الوحي) ، وكان من زملائي الموجهين بعض أبناء الدفعة والفصل في الثانوي وكذلك عندما كنا مديري مدارس في امدرمان فكانت تربط بيننا الزمالة والصداقة الضاربة في الماضي السعيد ، وكان معنا أيضا الأستاذ الكبير الشيخ حامد الماحي والذي تتلمذت علي يديه في اللغة العربية عندما كنت في المرحلة المتوسطة والتي كانت تعرف بالابتدائي حينذاك .. أما وظيفة الموجه التربوي فهي مرحلة رفيعة في السلم الوظيفي التربوي فعندما يصل المعلم إليها يبدأ السلم من مدرس ويتدرج الي وكيل مدرسة فمدير مدرسة صغيرة فالي مدير مدرسة كبيرة وعليه ان يثبت كفاءته في كل هذه الدرجات وقد يستغرق ذلك عشرين عاما أو اكثر ويوضع المترقي في الدرجات العليا وهي المجموعات وتعادل درجة الموجه درجة مدير المصلحة في الخدمة المدنية ، وكانت الأقدمية في الخدمة لها اعتبارها عند الترقي ، وكان الزملاء كلهم عدا اثنين أو ثلاثة على قدر كبير من الكفاية والمسؤولية ، وكان الثلاثة استثناء ، والشأن في ذلك شأن كل محيط يوجد فيه الصالح

والطالح ، وهؤلاء كانوا معروفين لدينا وكنا نعاملهم بما يستحقون من عدم احترام وربما بشيء من الازدراء فقد كانوا يتقاضون مبالغ مالية ليعطوا درجة ممتاز في التقرير السنوي للمدرس ، وهذا الامتياز يؤهل المدرس لاختياره في تصحيح الشهادة المتوسطة ، وتؤهله في الترقية ، وتؤهله للترشيح للبعثات الخارجية ، وكانت لهم وسائل يأنف عنها الخلق الكريم لارضاء بعض الرؤساء حتى يغضوا الطرف عن ممارساتهم المشينة!

كانت السنة تزخر بإضرابات ومظاهرات الطلبة والتلاميذ ضد حكم الرئيس المخلوع جعفر نميري وشاركت جميع المدارس في تلك المظاهرات ، واذكر أننا كنا نجلس علي الكراسي بجانب سور المدرسة الأهلية المطل علي الشوارع الرئيسية ونتفرج علي ما يجري من مشاهد وكر وفر بين الطلبة والشرطة ، فقد أبدع الطلبة تكتيكا جديدا وهو انقسامهم الي مجموعات من المظاهرات بدلا من مظاهرة واحدة كبيرة ولما كانت المنطقة تتفرع منها عدة شوارع جانبية فان كل مجموعة تلتزم شارعا منها ، وتتشتت جهود رجال الشرطة في مطاردة المتظاهرين ، ويطلق الجنود قنابل الصوت وقنابل الغاز المسيل للدموع والتي غالبا ما يحمل الهواء دخانها إليهم ، ويجري الأولاد ثانية ويتوالي الكر والفر حتى ينال التعب والحر من العساكر ويتوقفون عن المطاردة ، وكان مثار ضحكنا نقيب الشرطة السمين المكرش والذي كان يتصبب عرقا وينهج ثم سلم واسند ظهره الي حائط تحته بقية من ظل .. واهاجت لي تلك المناظر ذكري مظاهراتنا ضد الإنجليز ونحن طلبة في الثانوي ، ولكننا كنا نسير في كتلة واحدة

يسهل تفريقها ، وكنا لم نصل الي تكتيك المظاهرات الصغيرة الذي استنبطه أبناؤنا والذي نراه أمامنا الآن ..

و جاءت التعليمات من الوزارة ومساعد المحافظ للتعليم بأن يذهب الموجهون للمدارس ومعرفة الوضع وتقديم تقرير عنه ، وذهب كل واحد منا الي المدارس المسؤول عنها ، وكان من بينها مدرسة الحرية الأهلية وصاحبها وناظرها الأستاذ الكبير احمد بابكر البشير وكان ناظر مدرسة ودنوباوي المتوسطة وكنت نائبا له أول ضمنا للحكومة ، ويعمل معه الآن كمدرس الأستاذ الكبير عبد الرحمن حمزة وهو واحد من قادة العمل الوطني ضد الاستعمار ، وبعد الاستقلال آثر ان يرجع الي مهنته الأصلية وهي التدريس ، وكان يعمل حينذاك بعد تقاعده بالمعاش ، ولذلك كنت استشعر بعض الحرج عند زيارتي للمدرسة وكنت اظهر لهما احتراما وتوقيرا بالقول والفعل ، وكانا يبادلاني احتراما باحترام بل زادا عليه ودا مما سهل علي كثيرا مهمتي، وكان ان بدر بعض الشغب من بعض تلاميذ المدرسة ، فقد رموا الحجارة علي أسقف مدارس البنات القريبة منهم وهي مصنوعة من الزنك لكي يرغموا البنات للخروج والمشاركة في المظاهرة، وعرفنا المتسببين في هذا المسلك من التلاميذ وعقدنا طابورا للمدرسة وشرحنا لهم سوء هذا السلوك قانونيا وأخلاقيا وانه يمكن ان يتظاهروا سلميا دون تخريب ودون إرغام الآخرين للمشاركة معهم واكتفينا بتوقيع عقوبة الجلد عليهم .

حدث أمر لا يزال عالقا بذاكرتي وهو مجيء ضابط شاب برتبة رائد في القوات المسلحة ومعه زميل له رائد أيضا واتجه الي زميلة

موجهة وعرف نفسه بأنه زوج لمدرسة تعمل في مدرسة من المدارس التي تشرف عليها الموجهة ، وقال ان مدير المدرسة كتب تقريرا سيئا عن زوجته وانه ظلمها ، وأخذت ترد عليه بهدوء ولكنه هاج واخذ يسب في المدير ، وتدخل موجه في الأمر وقال للزميلة ألا تتحدث معه ، وهاج الضابط فيه أيضا ، وتدخلت أنا في الأمر وقلت للزميلة ان التقرير سري ولا يحق لها ان تناقشه مع أي شخص وانه ليست لديه أية صفة رسمية ليناقش هذا الأمر وان كانت المدرسة متضررة فان لديها الحق لتشكو المدير رسميا لمساعد المحافظ للتعليم بل لوكيل وزارة التربية والتعليم وانه لا يليق به ان يسب مدير المدرسة وهو في سن والده ومن قدامي المعلمين وان ما قاله يعتبر قذف واشانة سمعة ، وان عليه ان يحترم الموجهين في المكتب ومعظمهم في سن أبيه ..، وخاطبته بان يصلح أسلوبه في الخطاب وان يحترم الرتبة التي يحملها علي كتفيه. ولكنه زاد هياجا وضرب بقبضته علي مكتبي وعلي مكتب زميلي وقال لنا ان عملكم فارغ ، وقلت له أنني لن أرد عليه ولكنني سأشكوه لقائده ، وقال لي امشي لأي جهة تعجبك وأنا ما يهمني وطيلة هذه المدة كان زميله يهدئ من ثورته ويراجعه ولكنه كان يتمادي في سوء أدبه ، وطلبت منه الخروج من المكتب ولكنه أبى وبذل زميله مجهودا حتى أخرجه من المكتب .. وكتبنا خطابا رسميا الي قائد السلاح الذي يعمل به الرائد وأوضحنا فيه كل ما دار وما بدر منه من سوء أدب ، وقلنا انه كان بإمكاننا ان نستدعي له الشرطة ، ولكن ضننا بان نعرض سمعة قواتنا المسلحة بتصرف فردي من واحد من المنتسبين إليها ، وزيلنا الحطاب بتوقيع الزميلة والزميل وتوقيعي وعملنا منه صورا للقائد العام للقوات المسلحة ورئيس أركان

قوات الشعب المسلحة ووكيل وزارة التربية والتعليم ومساعد المحافظ للتعليم ولنقابة معلمي المرحلة المتوسطة، ولم تمض فترة حتى جاءنا خطاب من قائد سلاح ذلك الضابط معتذرا عن السلوك المشين الذي بدر منه وقال انه سيحاسب طبقا للقانون العسكري وبعث صورا للخطاب لوكيل وزارة التربية والتعليم ولمساعد المحافظ للتعليم والنقابة ...

انقضت السنة الدراسية بخيرها وشرها ثم انقضت الإجازة الصيفية، ودارت عجلة العمل في المدارس ، وكون مساعد المحافظ للتعليم لجنة لجرد مخازن التعليم الرئيسية للكتب والأدوات والأثاثات والغذاءات وكون اللجنة من ممثل للتعليم الابتدائي وممثل للتعليم المتوسط وممثل للتعليم الثانوي وأمين مخازن من مصلحة المخازن والمهمات برئاسة مدير إمدادات الوزارة المتقاعد الحاج عبد الحميد الإمام ، واختارني مقررا للجنة وممثلا للمرحلة المتوسطة ، وكانت مهمة شاقة لتعدد المخازن ولكثرة الأصناف ولعد كل صنف ورصد الأصناف في كشوفات ، وكان الحاج عبد الحميد رجلا في غاية الدقة وكان يصر علي حساب كل صنف بدقة حتى صناديق دبابيس الإبرة ، وكان لدينا آلة حاسبة ولكن الحاج كان تقليديا لا يثق إلا بالورقة والقلم ولا يستعمل غيرهما ، وكان أمين المخازن العجوز الحاج حسين عشري والذي كان يصر علي إضافة حاج لاسمه منظما في عمله ومرتبا وكان يعد الكشوفات في ورق فلسكاب ويسجل عليها بخط جميل وساعدنا بحكم تخصصه في عملنا ، وأما الأخ ممثل المرحلة الابتدائية ، وهو رجل ظريف ، كان عندما تشير الساعة الي

الثانية ظهرا يضع القلم ويتوقف ويقول ان عقله يتأكسد ولا يستطيع ان يفكر أو يعمل بعد ذلك . وظللنا ننتقل بين المخازن في الخرطوم بحري والخرطوم وامدرمان ، وأخيرا بعد أربعة اشهر أنجزنا المهمة وقدمنا تقريرا فصلنا فيه ملاحظاتنا ومقترحاتنا مع مئات الكشوفات الدقيقة لمحتويات المخازن ، ولقد شكرنا مساعد المحافظ للتعليم وكذلك المحافظ ومنح مكافأة مالية لأعضاء اللجنة .

كان ذلك آخر عمل لي بإدارة تعليم الخرطوم فقد آثرت ان أتقاعد اختياريا فقانون الخدمة المدنية يسمح للموظف الذي بلغ الخمسين من العمر أو امضى خمسة وعشرين عاما في الخدمة ان يطلب الإحالة على المعاش اختياريا ، وأنا وان كنت في السابعة والأربعين من العمر فإنني قد قضيت ثمانية وعشرين عاما في الخدمة في أرجاء سوداننا الحبيب الفسيح شرقت فيها الي أقصى الشرق في مدينة بورتسودان ، وخدمت في أقصى الغرب في مدينة الجنينة ، وذهبت شمالا الي مدينة عطبرة وعملت في الجنوب بمدينة التونج ، وخدمت في الوسط في المناقل، وها أنا بعد التجوال الممتد في السنين أحط عصا الترحال في مدينتي ومسقط رأسي امدرمان وهكذا شاء الله ان يكون أول عهدي في العمل في التربية والتعليم في امدرمان وان يكون آخر عهدي بالعمل في هذا الحقل النبيل في مدينة امدرمان أيضا .

ولا أخبئ شعوري بأنني أحسست بكثير من الرضا بما قدمته لبني وطني من عمل آمل ان اجزي عليه نجاحا وفلاحا فيمن درستهم واحمد الله فقد صار منهم أساتذة جامعيين وضباط عظام في الجيش وأطباء ورجال قانون ، وكذلك أرضاني عملي في مكاتب التعليم،

ويقيني ان ما وفقت فيه من عمل كان نتيجة وضع نصب عيني دائما مرضاة الله ومراقبته لي .. أما ما دفعني للتقاعد المبكر فهو تدبري أمري بعد كل سنين الخدمة الطوال ، وكنت قد تزوجت وصار لي عيال ، وأنا ليس لي بيت يؤويهم لأنني اسكن بالأجرة ، وراتبي بالكاد يكفينا ، وان خدمت لآخر سنة في الخدمة فإنني لن أستطيع بناء حائط ناهيك عن بناء منزل ! وأعلنت وزارة المعارف السعودية عن طلب معلمين للعمل بها ، وتقدمت بطلبي ، وفي المعاينة اختارني رئيس لجنة القبول للعمل كموجه للغة الإنجليزية ، وهو نفس عملي بالسودان ، بمنطقة نجران التعليمية بالمملكة العربية السعودية بمرتب مجز في ذلك الوقت ، ولن انسى ما حييت ذلك الرجل الهمام رئيس لجنة التعاقد السعودية فقد أحسنت وزارة المعارف السعودية اختياره فهو بمسلكه وتفهمه يمثل بقية السلف الصالح ، وكل من مثل أمامه أشاد بخلقه وسماحته وكان الرجل في بلده يشغل منصب رئيس قسم التربية الإسلامية بوزارة المعارف السعودية وهو الشيخ حمد إبراهيم الصليفيح .

وقصتي الشخصية معه ، وأوردها هنا كمثل للموظف الذي يحسن التصرف وييسر على الناس ، فلما مثلت امامه وقدمت له أوراقي افتقدت شهادة التدريب والتخرج من معهد بخت الرضا ، وقلت له أنها كانت مع الأوراق وارجح أنني فقدتها لأنني في الأيام الفائتة كنت اسعي بين مكاتب الحكومة لانهي إجراءات تقاعدي ، وهذه الشهادة عليها توثيقات من وكيل وزارة التربية والتعليم ووزارة الخارجية استغرقت مني أياما لانجزها واليوم هو آخر موعد للتقديم . وقال لي الرجل انه يقبل شهادة من قسم التدريب بوزارة التربية والتعليم إذا أتيت

بها قبل الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الساعة الحادية عشرة صباحا ، وخرجت مهرولا واستقليت عربة تاكسي مسرعا الي الوزارة ولحسن الحظ وجدت رئيس القسم ابن الحلة وزميل الطفولة عبد الرحيم الخضر ونائبه صديقي وزميلي المدرس المبتدئ بالمناقل حينذاك عثمان يوسف وقد فتحنا سويا مدرسة المناقل المتوسطة وتولي الأستاذ عثمان الأمر ووقف علي رأس الكاتبة حتى طبعت الشهادة ثم وقعها رئيس القسم وختمها ، وأسرعت ثانية الي مقر لجنة التعاقد وكانت الساعة تشير الي الواحدة والنصف بعد الظهر ، وتناول الشهادة مني وكتب في أسفلها (توثقت بمعرفتي) وختمها ثم قبلني ووجهني للعمل بمنطقة نجران التعليمية .

وهكذا طويت صفحة حافلة في كتاب عمري ، ولتشرق شمس أيامي من جديد خارج بلادي من مشرق النور والهداية ، من القبلة التي تهوي إليها قلوب المسلمين من أرجاء الدنيا ، والتي يتوجهون إليها في صلاتهم خمس مرات كل يوم ...

في نجران :

أظن ان كل سوداني أو أي مسلم يعتمل في نفسه الشوق الملح الي زيارة الأراضي المقدسة ارض بيت الله في مكة المكرمة ومهد رسالة الإسلام ومثوى رسول الله عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ، ويحمل الواحد في مخيلته صورة وردية شفافة ويتخيل ان كل من يعيش علي أديمها من الأخيار الطيبين ، ويغلف هذه الصور جميعا أشواق روحية سامقة ..

ذهبت الي المملكة العربية السعودية بدون زوجتي وأولادي ، علي ان أرسل في استدعائهم عندما استقر وأهيئ لهم المسكن وأهيئ لأولادي الالتحاق بالدراسة هناك ، وكان الوصول الي مدينة نجران يقتضي الطيران من الخرطوم الي جدة ، ومنها يتواصل السفر بطائرة أخرى إليها ، وتصادف ذهابي الي هناك موسم الحج في ذلك العام وعند وصولي الي جدة استقليت عربة يسمونها دباب سائقها صومالي أنست إليه لينقلني الي فندق بالمدينة وغشينا جميع فنادق جدة ووجدناها مكتظة عن آخرها بالحجاج الذين أدوا الفريضة وكانوا في طريق عودتهم الي أوطانهم وكان الوقت ليلا وفي محاولاتي لاقضي الليلة حتى الصباح رجوت أصحاب الفنادق ان اقضي الليلة جالسا علي كرسي في الاستقبال ولكنهم رفضوا لأن ذلك محظور حسب التعليمات ، وقال لي السائق الصومالي انه يود ان لو يستضيفني في منزله حتى الصباح ولكنه يسكن في حجرة واحدة هو وأولاده ، وقال لي انه لن يتركني حتى يجد لي مكانا اقضي فيه ليلتي ، وأخذني الي إحدى المقاهي الشعبية وهذه بها كنبات عالية مرتفعة عن الأرض ويؤجرونها ليلا للمبيت ومعها مرتبة إسفنجية رقيقة نظير عشرة ريالات للواحدة ، وكان السائق علي معرفة بصاحب المقهى اليمني وأوصاه بي وحفظ شنطتي في غرفته ، وكان المقهى في الطابق الثاني ووجدته مزدحما بالناس من جنسيات مختلفة ويغلب عليهم اليمنيون ومعهم نساؤهم والكل مستلقي في تلك الكنبات العالية وهم يتسامرون ويدخنون .. واستلقيت علي ظهري ولم استطع النوم واعد الساعات المتبقية علي طلوع الصبح لاغادر الي المطار لالحق بالطائرة المتجهة الي نجران والتي تقلع في السابعة صباحا ، وكان السائق قد وعدني ليأتي

في الصباح الباكر ليوصلني الي المطار ، وأوفى الرجل بوعده ووصلنا المطار في السادسة صباحا ، وعلمت من الموظف المختص انه لا يوجد مكان شاغر بالطائرة وان علي ان انتظر حتى الغد موعد السفرية التالية ، واخبرني انه توجد رحلة الي أبها في الرابعة من مساء نفس اليوم يمكنني ان أسافر عليها ومن هناك أواصل رحلتي بالسيارة الي نجران وهي تستغرق ثلاث ساعات ، وبما انه كان علي ان اقدم نفسي لادارة التعليم في الغد طلبت منه ان يحجز لي علي طائرة أبها ، ووصلت أبها ، وخرجت من المطار أتلفت يمنة ويسرة حاملا الشنطتين في كل يد ، وأبصرني شاب سوداني وتقدم الي وحياني وعرف ان وجهتي نجران واخبرني ان سيارات الركوب تتوقف في المساء ولا تذهب لنجران وقال لي ان امضي الليلة معهم في خميس مشيط وهي تبعد عن أبها مسافة ربع ساعة تقريبا بالسيارة ، وتناول مني الشنطتين ووضعهما في سيارته ، ووصلنا الي سكنهم في شقة واسعة وكانوا أربعة من الشبان العمال ، واعدوا لي عشاء وأخذنا (نتونس) وانهالت علي أسئلتهم عن السودان وعن الأحوال فيه ، وكانوا فتية لطيفين كرماء وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ سنين ، وهذه مزية يمتاز بها السودانيون دون العالمين من الشعوب الأخرى خاصة في الغربة ، فيكفي انك سوداني وحسب .. وافطرنا مبكرا وودعوني وذهبوا الي أعمالهم ، وأوصلني صاحبي ويعمل نجارا الي موقف سيارات نجران ولم اشعر به وقد دفع أجرة الركوب وأردت ان أرد له النقود فأقسم مغلظا ان لا يقبلها .

ومدينة خميس مشيط مدينة جميلة ويسكن بها عدد كبير من

السـودانيين حتـى لتخالهـا مدينـة سـودانية ، والمنطقـة كلـهـا بمـدنها المختلفة مثل أبهـا ونجـران وخميس مشيط تدعي منطقـة عسـير وهـي منطقـة جبـال ومرتفعـات وتكسـوها النباتـات والأشـجار في وديانهـا وسـفوحها ، والطريـق بينهـا معبـد ومسـفلت ولكنـه يتعـرج ويلتـوي وينبسط بين الجبال وتحف جوانبه هوات خطـرة ورغم ذلـك يسـير فيهـا السـائقون السـعوديون بسـرعات هائلـة ممـا يتسـبب في كـوارث يكـون ضحيتها الركاب والسائقين ، واسـتغرقت رحلتنـا بالسـيارة الاسـتيشـن ثـلاث سـاعات وكـان السـائق يسـير بسـرعة كبيرة رغـم تنبيهنـا لـه بتخفيض السرعة ، والانكي من ذلك انه كان يستبق مـع سـائق آخـر فمرة يلحقه وتارة يسبقه وكل منهما يريد ان يسبق الآخر ويضحـكان وكـأنهما في لعبة مسلية ! ووصلنا بسلام بعـد ان أجهـدت أعصـابنا مـن جـراء عبـث السـائقين ، وذهبـت الـي الفنـدق الوحيـد والـذي كـان في مـدخل البلـدة ، وتركـت شـنطي في الحجـرة ، ثـم اسـتقليت عربـة تاكسي الي إدارة التعليم والتي لم تبعد عن الفندق ..

قدمت نفسي لقسم شؤون الموظفين وبعد تكملة الإجـراءات اخـذوا مني جواز سفري وأعطوني بـدلا منـه بطاقة إقامـة ، وتعجبـت مـن هـذا الأمر واخبروني ان النظام يقتضي هذا ، وبعدهـا وجهوني لمقابلـة رئـيس الهيئة الفنية وهو المسؤول عن التوجيـه التربـوي والموجهين ، واسـتقبلني الرجـل بحفـاوة وقـام وذهـب معـي لتعريفـي بـالموجهين الآخـرين وكـان منهم أربعة من السودانيين وعشرة من المصريين واثنان من الفلسـطينيين ورحب بـي الجميـع ، ومـن ثـم أرشـدني الـي مكـتبي والمكـتب خـاص بمـوجهي الإنجليـزي والاجتماعيـات وهنـاك مكـتـب لمـوجهي العربـي

والتربية الاسلامية ، وهناك مكتب لموجهي الرياضيات والعلوم ، وآخر لموجهي الابتدائي ، وللمصادفة وجدت أحد موجهي الرياضيات معرفة وزمالة قديمة من السودان فقد كان مديرا لمدرسة الخرطوم الحكومية المتوسطة حينما كنت مديرا لمدرسة بيت المال المتوسطة بأمدرمان وهو الأخ مبارك فضل الله ، والذي أصر ان انتقل من الفندق لاسكن معه في (الميز) مع آخرين من السودانيين العاملين .

نجران مدينة جميلة وتقع على وادي نجران وهي مدينة عريقة وأصحاب الأخدود المذكورون في القرآن كانوا في نجران وهم المسيحيون الأوائل الذين حرقوا بالنار وما زال الأخدود موجودا حتى الآن ، وتمتاز نجران بمياهها الجوفية العذبة حتى ان عبوات الماء التي تقدم علي طائرات الخطوط الجوية السعودية هي من مياه نجران ، ويوجد بها مزارع وبساتين تزرع فيها جميع أنواع الفاكهة والخضراوات ، وبها أشجار النخيل المثمرة ، والمدينة تقع في أقصى حدود المملكة من ناحية الجنوب ويفصلها عن اليمن سلسلة من الجبال ، وكانت تاريخيا تتبع لليمن وينعكس ذلك علي سكانها شكلا ولهجة في الكلام والعادات وفي المذهب الشيعي المنتشر هناك وأهلها كرماء ويظهرون ودا ومعاملة حسنة لمن ينزل بين ظهرانيهم ، والمدينة تحوي القديم والحديث من البنيان ، والقديم منها يوجد في المزارع ويبني المنزل بالطين اللبن من طبقات عديدة تصل الي الخمسة أو الستة ويرتفع البناء مثل البرج ويصل بين الطبقات أو الطوابق سلم داخلي ، ويطيب لرب الدار المكوث في سطح الدار المهيأ بالحشيات والابسطة المفروشة وبأدوات الشاي والقهوة التي تشرب علي مدار اليوم

.. أمـا الحـوائط مـن الـداخل فـأن النسـاء يزينهـا بـالألوان الجيريـة والأشـكال الفنيـة وهـذه مهمتهن ، وأمـا المدينـة الحديثـة فيوجـد فيهـا فيلات علي احدث الطـرز ، كمـا يوجد مطـار أنيق في البلـدة يسـتقبل يوميا الطائرات القادمة من أنحاء المملكة وخاصة من جدة والرياض ..

أمـا مـبني إدارة التعلـيم فهـو في الأصـل فنـدق مـن طـابق واحـد استأجرته الوزارة ريثما يتم تشييد مبني الإدارة ، والمبني طولي يحتوي علـي حجـرات واسـعة وبكـل حجـرة حمـام وتلفـون والمـبني مكيـف بأكمله ، وهناك قاعة واسعة للاجتماعات ، وجميع المكاتب مجهزة بالكراسي الجلدية المريحة والطاولات أو المكاتب االانيقة .. وانتقلنا فيما بعد الي المبني الجديد وهو من أربعة طوابق وفخم البنيـان ومبـاني إدارات التعليم في المملكة كلها ذات طراز معمـاري واحـد فيوجـد في الطابق الأول مسجد ومسرح وقاعة للاجتماعـات ، وتوجـد في الطوابق الأخرى مكاتب الإدارات المختلفة ..

وجدت العمل في التوجيه التربوي هنا يشبه مثيله في السودان ولكن يختلف في ان الموجه هنا عليه التوجيه في المرحلتين المتوسطة والثانويـة وهناك اثنان من الموجهين للمرحلة الابتدائية ، بينمـا النظـام المعمـول بـه في السودان هو تعيين موجهين لكل مرحلة دراسية علي حدة ويكونون من نفس المرحلة الدراسية ، ومع ان مبادئ التوجيه واحدة فان الشـمول في التوجيـه لكـل المراحل يلقـي عبئـا كبيرا علـي الموجـه فيجـب عليـه الإلمـام الجيـد بالمنـاهج والكتـب الـتي تـدرس في كـل مرحلـة ، وشـاء حسـن حظـي ان اعمـل مـع مـدير للتعليم مـن أميـز مـديري التعلـيم في المملكة فهو يعرف عمله بكل اقتدار وربمـا يرجـع ذلـك الـي انـه تـدرج

في العمل من مدرس الي ان صار مديرا وهو في الأربعينات من العمر ، وهو يؤمن بالديمقراطية في العمل وعدم تركز كل السلطات في يد المدير وكان يقول لنا أننا عيونه وأذانه ويده في المدارس وفوض لنا جميع سلطاته لنغير ونصلح في التو واللحظة ، وكان يعقد اجتماعا شهريا لكل الموجهين ورؤساء الأقسام في إدارة التعليم وثلاثة مديرين للمدارس يمثل كل واحد منهم مرحلة دراسية ، ويتغير هؤلاء المديرين في كل مرة ، وكانت اجندة الاجتماع تعد قبل فترة ومن حق أي واحد ان يدرج فيها ما يراه من موضوعات ، ويتم النقاش في الاجتماع بحرية تامة حتى نصل الي قرارات ملزمة تطبع وتوزع علي المدارس وأقسام الإدارة ، وكان علي الموجهين متابعة تنفيذ القرارات ، وأورد مثلا انه كان هناك نقص في بعض الكتب الدراسية في المدارس بينما يوجد فائض منها في مخازن مدارس أخرى فكان الموجه يذهب الي المدرسة المعنية ويحمل الكتب الزائدة وتتجمع في الإدارة ومن هناك ترسل علي الفور الي المدارس التي تعاني من النقص وهذه العملية استغرقت يومين فقط ، يوم للجمع ويوم للتوزيع . وهذا الاجتماع الشهري ذكرني باجتماعنا الأسبوعي مع كبير الموجهين في الخرطوم ، وشاء حسن حظي أيضا ان يكون رئيسي المباشر وهو رئيس الهيئة الفنية رجلا تقيا نقيا جلدا في العمل ولا يعرف المحاباة والتحيز مما قرب العلاقة بيننا في العمل وكان يقول عني أنني مثله في الطبع ، وبعد سنوات خلفه نائبه الشاب وكان خير خلف لخير سلف ، واكتسبت إدارة تعليم نجران سمعة طيبة في الوزارة من حيث الكفاءة والنظام والانضباط حتى ان الوزارة عقدت عديدا من دورات التدريب للموجهين الجدد بنجران ، وكذلك حلقة لشرح وتدريس المنهج الجديد للغة الإنجليزية

أقامتها الوزارة خصيصا لمؤلف المنهج وأستاذ آخر متخصص في الاختبارات جاءا من إنجلترا الي نجران .

أمر آخر ميسر للعمل وهو وفرة العربات المخصصة للموجهين ولم يكن يسمح للموجهين استخدام سياراتهم الخاصة للذهاب الي المدارس.

معظم المدرسين من المصريين يليهم السودانيون والفلسطينيون وقلة من السوريين وقلة من السعوديين ، ولكن كل مديري المدارس من السعوديين واغلبهم شبان ويكفي ان يكون الواحد منهم جامعيا ليعين بعد تخرجه مديرا بعد عام أو عامين وفي أحيان كثيرة يعين مديرا حال تخرجه ، أي يبدأ السلم الوظيفي من قمته ، ويعوضون هذا الخلل بتعيين وكلاء مدارس ذوي خبرة ومؤهلين من المتعاقدين من الجنسيات الأخرى وهم الذين يقومون بالعمل وليس علي المدير سوي التوقيع علي الأوراق _ وهذا يجيدونه مع إصدار الأوامر ، ولا ينفي ذلك أنني وجدت منهم قلة ذوي مقدرات وكفاية عالية . أما الاخوة من المدرسين المصريين فلا يعطون احسن ما عندهم ولا يعملون إلا بالمراقبة والمتابعة والأخطر من ذلك انهم ينجحون الطلبة في الاختبارات وانكشف لي ذلك عند معاينة كراسات التلاميذ وعند قراءتي أوراق اختبار شهادة الكفاءة المتوسطة والتي كنت أتولى فيها رئاسة لجنة تصحيح أوراق اللغة الإنجليزية ، وكنا نجد كثيرين لا يحسنون كتابة بعض الحروف دعك عن الجمل ! ولكن وجدت بعضا منهم علي درجة عالية من الكفاية وتقدير المسؤولية وهؤلاء من ذوي الخبرات الطويلة في التدريس ، ورغم ان المرتبات مجزية تجد البعض منهم يلجأون لاعطاء

الدروس الخصوصية سرا ولعل ذلك يرجع الي تعودهم علي هذه الممارسة في وطنهم ، وللأسف انغمس أفراد من المدرسين السودانيين في هذه الممارسة ، ولعل ذلك يرجع الي الجشع وحب جمع المال خلال فترة وجيزة . وأمر آخر صدمني فكل المدرسين حاصلين علي شهادة الليسانس مع دبلوم التربية ، ولكن مستواهم الأكاديمي والتربوي منخفض ونطقهم للإنجليزية تشوبه أخطاء عديدة ، وأنا اعتز بان بعض أساتذتي في المرحلة الثانوية كانوا من المصريين وكانوا قمما في علمهم وأخلاقهم ، وربما يرجع تدني مستوي خريجي الجامعات بعد ذلك الي كثرة الملتحقين بها والي الاهتمام بالكم دون الكيف وليس هذا القول من عندي ولكن هو ما تكتبه وتواصل كتابته الصحف المصرية من تدني التعليم عامة الي حد ان طلبة الجامعات يتلقون دروسا خصوصية ! ووجدت هناك قاعدة يعمل بها عند إصدار كشف التنقلات وتجديد العقود السنوي وهو وضع درجة التقدير التي نالها المدرس في خانة الملحوظات والتي بموجبها يحصل علي العلاوة السنوية وأقصاها ٥٪ من المرتب لمن يحوز علي درجة ممتاز وأدناها ٣٪ لمن يحوز علي درجة جيد ، وأما من ينال درجة اقل من جيد وهي حسن فانه يحرم من العلاوة ويكتب أمامه في خانة الملحوظات (ينبه عليه تحسين مستواه) ، وأما الذي يحصل علي اقل من حسن فان عقده يلغي ، ووجدت هذا النوع من المدرسين يعتمد علي تعليق وسائل إيضاح علي الجدران ومحاولة إرضاء الموجه بالتقرب زلفى ، واخبرني مدير مدرسة ان مدرس الإنجليزي بالمدرسة قال لزملائه (ح أعمل حركات نص كم للموجه) واخذ في تعليق كثير من لوحات الايضاح والتي أتى بها الطلبة والذين كلفوا أحد الخطاطين بعملها واشتروها ، وقصد

المدرس بقوله ذلك ان يخدع الموجه بتلك المظاهر ، وهناك مقولة أخرى اعتبرها مدمرة وهي (أي كلام) ، وتعني (كلفته) أو أداء العمل بدون إتقان أو اهتمام وهذا ما يسمونه (الفهلوة) وأنى اعتبرها خيانة للمهنة فنحن كتربويين وكمسلمين أولا مسؤولين عن تربية النشء يقع علي عاتقنا احترام وإتقان عملنا ونبينا عليه السلام يحث علي إتقان العمل (ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا ان يتقنه) و(من اخذ الأجر حاسبه الله بالعمل) ، وفي أساس العقد ان يؤدي المتعاقد عمله بإخلاص وهمة وان لا يشتغل بأي عمل آخر ، يعني مثلا إعطاء الدروس الخصوصية .

وحالما يدخل الموجه الي الفصل يناوله المدرس الطباشيرة ليتولي التدريس وكنت ارفض واقول للواحد أنني أريدك ان تتولى أنت التدريس حتى احكم عليك وأوجهك ان كنت تحتاج الي ذلك ، وبعدها أتوجه بالسؤال للطلبة عما تلقوه واطلع علي العمل الكتابي في الكراسات ، ووجدتهم يعتمدون علي أسلوب التلقين دون الفهم والتركيز علي تدريس القواعد وهذه الطريقة قديمة في تدريس اللغة الإنجليزية وألغيت منذ زمن بعيد لأنها أثبتت عقمها وعدم جدواها في تعليم اللغة .

وكان ان أعطيت مجموعة منهم تقدير حسن في التقرير النهائي لأتيح لهم الفرصة ليحسنوا من مستواهم . وتابعتهم متابعة لصيقة وتحسن أداؤهم بدرجة مثيرة حتى ان بعضهم حاز علي تقدير جيد جدا في التقرير السنوي ، وان دل هذا علي شئ فانه يدل علي تفعيل قائدة الثواب والعقاب لأن بعض الناس يصدق عليه المثل (يخاف ما يختشيش).

ومما يندرج في قائمة الثواب والعقاب مثل تبيان تقديرات أداء المدرسين في كشف التنقلات فان من يخطئ ويجازي من المدرسين أو مديري المدارس أو الطلبة يعمم الحكم عليه في جميع مدارس المنطقة ويعلق في لوحات الإعلانات بها ، وهذا الإعلان يكون اقسي علي الشخص من الحكم لما به من تشهير ، ويحضرني مثال هنا فقد ذهبت الي مدرسة كبيرة بها مرحلتان ابتدائية ومتوسطة وكنت سأحضر الحصة قبل الأخيرة مع مدرس الإنجليزي ، وعند وصولي المدرسة وجدتها خالية من التلاميذ عدا المدير والمدرسين ، وبسؤالي. المدير أجابني بأنه أعطى بقية اليوم عطلة للتلاميذ حتى يستطيعوا مشاهدة كرة القدم في التلفزيون بين الفريق القومي السعودي واحد الفرق الأجنبية الزائرة ، وأبنت له خطأه من ناحية تربوية وانه ليست من سلطته ابتداء ان يعطل الدراسة أو يمنح إجازة ، وعدت الي الإدارة ورفعت الأمر الي رئيس الهيئة الفنية والذي طلب مني ان اكتب الواقعة أمامه ، واخذ التقرير وقام بدوره لمقابلة المدير ، وكتب مدير التعليم تقريعا وتوبيخا لمدير المدرسة ووقع عليه جزاءا بخصم خمسة عشرة يوما من راتبه مع تعميم الحكم علي كل مدارس المنطقة وإبرازه في لوحات الإعلان بها .

ووجدت المدرسين السوريين وكان لدينا ثلاثة منهم يدرسون اللغة الإنجليزية عدا آخرين يدرسون موادا أخرى ، ووجدتهم علي درجة عالية من الكفاية والإخلاص في عملهم ولكن كانوا قلة . وأما المدرسون الفلسطينيين فيمكن القول عن معظمهم انهم يمكن ان يعطوا اكثر ويبذلوا اكثر ولكنهم غالبا لا يفعلون ويحتاجون الي

رقابة ومتابعة ، وفي سنة تم التعاقد مع مدرسين من تونس وفي آخر العام ألغيت عقودهم جميعا لأن أداءهم كان دون المستوي ، وأما المدرسين السودانيين ، وبدون تحيز أو محاباة كانوا متميزين في أدائهم وكفايتهم وهذا بشهادة المسؤولين من موجهي الوزارة السعوديين وغير السعوديين ولكن ذكر لي المسؤولون ان خريجي بخت الرضا الجدد اقل كفاءة من زملائهم الخريجين القدامى ، ولعل ذلك يعود الي تقصير مدة التدريب ، ومن الأمور اللافتة للنظر والأسف في نفس الوقت أنني وجدت دفعة كاملة من خريجي كلية التربية وعددهم نحو الأربعين تقريبا أتوا الي السعودية ولم يعملوا بالسودان سوي عام واحد ! وكان معنا في المنطقة اثنان من مدرسي الإنجليزي من خريجي بخت الرضا لم يكن أداؤهم مرضيا وعاملتهم مثل الآخرين وتلقوا درجة (حسن) في التقرير ونبه عليهم لتحسين مستواهم، وعملا بجد واجتهاد وحصل كل منهما علي درجة جيد في آخر العام .. كانت هناك ظاهرة مسيئة تخريبية يمارسها الطلبة الراسبون في الاختبار النهائي وهي تكسير زجاج سيارات المدرسين وخاصة مدرسي المواد التي رسبوا فيها ، ولكن مدير التعليم الحازم وضع حدا لهذه الممارسة القبيحة ، فقد توصلوا الي عدد من الفاعلين وقام بفصلهم نهائيا من الدراسة وحولهم الي المحكمة الشرعية .

وسأمر لاحقا في المستقبل بهذه التجربة ولكن لنتركها الي موضعها من وقائع هذا الكتاب ..

عندما جئت الإدارة كان هناك قبلي موجه مصري للغة الإنجليزية معارا من مصر وكل الموجهين المصريين معارين ومدة الإعارة ثلاث

سنوات يمكن ان تمدد لسنة أخرى ، واقتسمنا مدارس المنطقة .
وانتهت إعارته في نهاية العام وبقيت مسؤولا عن المنطقة في اللغة الإنجليزية ، والمدارس هنا مهيأة ومجهزة علي درجة عالية من التجهيزات ، فالمباني فخمة ومزودة بمكيفات الهواء ومراوح السقف ووسائل الإيضاح متوفرة في كل مدرسة مثل السينما وجهاز عرض الصور Projector والتلفزيون والفيديو ومعامل اللغة Language Labs وهذه كان يوجد منها ست في المدارس الثانوية والمتوسطة بالمدينة ، وكانت جديدة بالنسبة الي ، وأوفدنا اثنين من المعلمين سوداني ومصري الي الرياض لحضور دورة نظمتها الوزارة لمدة أسبوع لدارسة تشغيل معامل اللغة ، وعندما عادوا عقدنا دورة لمدرسينا في المدارس التي بها تلك المعامل لتعريفهم بكيفية تشغيلها ولقد حضرت معهم الدورة وتعلمت عنها نظريا وتدربنا عمليا..

اخذ عدد الموجهين السودانيين في التزايد في الإدارة ، وكنا قد اكتسبنا ثقة المسؤولين ، وكان اثنان من الموجهين جاءا كمدرسين وكان أحدهما يعمل في قسم التدريب بوزارة التربية والتعليم في السودان والآخر كان موجها في مكتب تعليم الشمالية ، وحدثت رئيس الهيئة الفنية بشأنهما وإمكانية الاستفادة منهما في التوجيه وكلاهما متمرس بهذا العمل وخاصة ان تخصصهما في الرياضيات، واستجاب الرجل مشكورا ورفع الأمر للمدير والذي بدوره رفعه للوزارة ، وجاءنا التصديق باعتمادهما موجهين ، ولما كان قسم التدريب حديثا في الإدارة عين أحدهما به والآخر موجها للرياضيات، وأصبحنا عشرة موجهين سودانيين مع ثمانية مصريين واثنين

فلسطينيين ، وكان اكبر تجمع للموجهين السودانيين في مناطق المملكة التعليمية ، وكانت العلاقة بيننا كلنا سودانيين وغير سودانيين علاقة اخوة ومودة ولم يشذ من المجموعة سوي اثنين ..

حدث أمر جديد بان انوه عنه فقد عاقبنا مدير التعليم واقصد من هذه العبارة بأنه أعطانا جميعا تقدير جيد في التقرير السنوي وذلك لأن ٩٠٪ من تقارير المدرسين كانت بدرجة ممتاز وقال المدير انه يسعده ان يكون المدرسون في منطقته جميعهم ممتازين ولكن ليست هذه هي الحقيقة ، ويبدو ان بعض الزملاء بالغوا في تقديراتهم وربما لعبت المجاملة أو المحاباة دورها لأن من ينال درجة ممتاز يستحق علاوة ٥٪ من الراتب .

شعرت بغضب وإحباط ليقيني أنني أديت واجبي علي اكمل وجه وأنني أعطيت كل مدرس ما يستحقه من تقدير وتقويم دون نقصان أو زيادة ، ودخلت علي رئيس الهيئة الفنية وأخبرته بأنني لا اقبل هذا التقرير بالنسبة لي واعتقد أنني ظلمت ، وقلت له ان يراجع تقاريري عن المدرسين فانه ليس بها سوي أربعة تقارير بدرجة ممتاز ، وانه إذا كان هناك مخطئين فليتحمل المخطئ عاقبة خطأه وان لا تعمم العقوبة ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ورجوته ان ينقل كلامي هذا الي للمدير بحذافيره أو يتركني أقابله لاقوله له ، وتعاطف الرجل معي واخبرني ان اترك له الموضوع ليعالجه بمعرفته ، وكان ان أعاد المدير النظر في التقارير وأعطاني ومعي اثنين من الزملاء درجة جيد جدا ..

وفيما بعد حصلت علي تقدير ممتاز وجاءني خطاب شكر من الإدارة ووضعت دراسة وملحوظات عن منهج اللغة الإنجليزية الجديد

الذي يطبق لأول مرة ، وجاءني خطاب شكر من الوزارة علي الورقة التي قدمتها واخبروني انهم سيأخذون في الاعتبار ما جاء فيها من ملاحظات ، وهذا تقليد رائع يرفع من معنويات الشخص ويحفزه لبذل المزيد من الجهد ان لم يحافظ علي ما بلغه من مستوي ..

ولنلقي نظرة فاحصة علي البلدة نجران ، فالمدينة تنمو بوتيرة متسارعة وبها بلدية نشطة تشق الطرق وتقيم الحدائق العامة وأقامت مدينة ملاهي للأطفال والنساء وشيد مستشفي كبير جديد وزود بأحدث الآلات الطبية وبالأطباء المتخصصين من جميع الجنسيات كما أقيم بها فندق فخم وقامت الفيلات والأحياء الجديدة الجميلة وادخل الهاتف في كل بيت ، وعمت الكهرباء أرياف المدينة من قري بعيدة ، ومما شد انتباهي انه بجوار خيمة البدوي في الصحراء علي مقربة من الطريق المسفلتة تجد سيارته وهوائي التلفزيون وأنبوبة البوتاجاز وجهاز التكييف ، ويحصل علي الكهرباء من اقرب عمود كهرباء في جانب الطريق ، ومما أثار عجبي ان بعضهم يرعي بهائمه بواسطة السيارة (البوكس) بدلا من الحمار .

والدولة تمنح المواطن الأرض التي يقيم عليه منزله بدون مقابل وتمنحه قرضا حسنا أي بدون فائدة ليشيد منزله ويرد القرض علي أقساط ميسرة وان انتظم في الدفع لمدة معينة يعفي من المتبقي من القرض ولذلك انتشر العمار وحصل الجميع علي المسكن اللائق ، وإضافة الي ذلك تشجيع الدولة الزراعة بمنح الزارع الأرض مجانا والتراكتر وحاصدة وشاحنة بسعر قليل ، وتضمن له شراء محصوله بسعر مجز ، وكانت النتيجة أن اكتفت السعودية من القمح وصدرت

الفـائض منـه لـدول زراعيـة ، واخضـرت الأرض اليبـاب وأصـبحت الصـحراء حقـولا ومـزارع خضـراء رويـت بالمـاء المجلـوب مـن الآبـار الارتوازية العميقة ، وتحقق ما يشبه المعجزة وتم هـذا الإنجـاز بتحـالف المال مع العزيمة لتسخير المال في تلبية حاجات الإنسان وسعادته .

ارجع مرة أخرى الي مجريات العمل فقد درجت الـوزارة علـي عقد لقـاءات سـنوية للمـوجهين وخاصـة مـوجهي اللغـة الإنجليزيـة بحسـبان إطلاق المنهج الجديد لها وانتظمت هـذه اللقـاءات جميـع مـوجهي اللغة الإنجليزية من مناطق التعليم في المملكة وكانت تعقد في كل مـرة في منطقـة تعليميـة مختلفـة وكـان يحضـرها ممثلـون لشـركة لونقمـانز الشهيرة للنشـر في بريطانيـا وبهـا كتـاب متخصصـون في عمـل وتـأليف المناهج التعليمية وإصدار الكتب للدول الأجنبية والتي لا يتكلم أهلـها اللغـة الإنجليزيـة وبتعبير أدق لغير النـاطقين باللغـة الإنجليزيـة وفي هـذا الصدد عقدت لقاءات في المنـاطق التعليميـة بمـدن أبهـا وبيشـة والريـاض والمدينـة المنـورة وحضـرتها جميعـا وكانـت فرصـة طيبـة للتعـرف علـي الزملاء في المناطق الأخرى ولتبادل الخبرات وتلاقح الآراء وكـان يرأس هـذه اللقـاءات رئـيس قسـم اللغـة الإنجليزيـة في الـوزارة او نائبـه وهمـا سعوديان وأما الموجهون فيغلب عليهم المصريون ثـم السـودانيون ، كمـا جـاء الـي نجـران مؤلـف المـنهج السـيد فيلـد ومعـه خـبير في وضـع الاختبارات وامضيا أسبوعين شرحا فيـه المنهج في محاضـرات وحلقـات نقاش وقام المؤلف بزيارة عدد من المدارس ودرس حصصا بها.

وقـد أثمـرت تلك اللقـاءات ملاحظـات هـامـة مـن واقـع تجربـة المـنهج واخذ بها في الاعتبار ، كما تضمنت تلك اللقاءات شـؤون وموضـوعـات أخرى تتعلق بالتعليم والمدرسين وتقويم أدائهم وأسلوب توجيههم ..

وفي جانب المدرسين نجد فروقا كبيرة في الرواتب بين المدرس المتعاقد ورصيفه الوطني فراتب المدرس الوطني المبتدئ في أول تعيين له يعادل أربعة أمثال المدرس المتعاقد من الدول العربية أو الإسلامية والذي تكون خبرته في التعليم تناهز العشر سنوات ، بينما يتقاضي المتعاقد الأوروبي أو الأمريكي ومؤهلاته وخبرته تعادل المتعاقد من الدول العربية او اقل راتبا اكبر من راتب السعودي ، ولدينا في السودان نعطي المتعاقد الأجنبي Expatriate راتبا اعلي من السوداني بصرف النظر عن جنسيته عربيا كان أم أوروبيا أو أمريكيا .. ومن المعلوم ان العقد شريعة المتعاقدين وان المدرس قبل بهذا الراتب وفي الحقيقة يكون الراتب اعلي بكثير من الراتب الذي يتقاضاه في وطنه ، ولكن ذلك لا ينفي الفرق الكبير في الرواتب بين أناس يؤدون نفس العمل ولهم نفس المؤهلات ، واضرب مثلا واحدا وهو أننا عندما نذهب الي للتوجيه خارج المدينة في المناطق النائية نتقاضي خمسين ريالا عن الليلة الواحدة بينما يتقاضي زميلنا الموجه الوطني أربعمائة ريالا عن نفس الليلة ..

ولا يخلو عملنا من التعرض للخطر عند زياراتنا للمدارس النائية خارج المدينة ، فمنطقة عسير جبلية والطرق وعرة وتتعرج وسط المرتفعات وحوادث السيارات متواترة ولقد تعرضت شخصيا لبعضها ولكن الله سلم ولم نصب بأذى ، ومنها أننا كنا ذاهبين لمدرسة تقع علي مسافة من الجانب الآخر من جبل ولا سبيل للوصول إليها إلا عبر ذلك الجبل فكان السائق يضع مغير السرعة في السيارة في اقوي موقع وتبدأ السيارة في تسلق الجبل شبه عموديا وعندما تصل الي قمته تبدأ

في النزول والسكة الضيقة يقع الجبل في جانبها وفي الجانب الآخر تقع هوة سحيقة ، ونحن في رحلة الرجوع والسيارة تنزل من الجبل ببطء شديد فوجئنا بجمل يأتي من خلف السيارة ويقفز فوقها أمامنا ويجري أمامها ، وسيطر السائق الماهر علي السيارة وأوقفها وقال لي انه لو كان الجمل حط فوق السيارة لعدمها وعدمنا .

وفي مرة ثانية كنت عائدا من مؤتمر للموجهين عقد في منطقة بيشة التعليمية بمدينة بيشة بسيارة الإدارة والتي يسمونها هنا (جيب مقفص) ، وكان السائق يسير بسرعة مائة كيلومترا في الساعة وفجأة جاء من خلفنا سائق سيارة (وانيت) ونسميها (بوكس) بسرعة رهيبة وتجاوزنا ثم انحرف فجأة من أمامنا وقطع الطريق وخرج منه سائرا في طريق فرعي وكان يفصلنا عنه اقل من قدم ولكي يتفادي السائق الاصطدام به انحرف بشدة ناحية اليمين ومالت السيارة حتى كادت ان تنقلب ولكنها اعتدلت ثانية ومالت ناحية الشمال حتى كادت ان تنقلب واعتدلت واستطاع السائق إيقافها والسائق يرفع كلتا يديه ويشخص ببصره عاليا وهو يردد (الله –الله) أما أنا فقد الجم الحادث لساني ..

وتشاء المصادفة ان يكون نفس السائق وهو سائق متمرس ومتزن وبنفس السيارة وكان معه زميل موجه سوداني وانقلبت بهما السيارة وخرجا منها سالمين ! ، والمرة الثالثة كنت في طريقي لزيارة مدرسة في عمق صحراء الربع الخالي والطريق الرئيسي معبدة ومسفلتة ولكنها وحيدة كاليتيم يحدها علي الجانبين بحر من الرمال الممتدة علي مدي البصر وتخرج من الطريق مسارات شقتها سيارات البدو تؤدي الي

مضاربهم ، وكان السائق جديدا ولم يسلك هذا الطريق من قبل.
وخرجنا من الطريق الرئيسية وسرنا في أحد المسارات وبعد ساعة
تقريبا وجدنا أنفسنا عند آخر نقطة حدودية بين السعودية واليمن.
وسألنا الضابط هناك عن الطريق الي المدرسة واندهش الرجل واخبرنا
أنها في الاتجاه المعاكس الذي أتينا منه علي الجانب الآخر من الطريق
واخبر السائق بالتفصيل عن المسار ، ولفت نظري اليمنيون الذين
يعبرون الي وطنهم خلال هذه النقطة فكل واحد منهم مدجج بالسلاح
ففي وسطه الخنجر التقليدي وفي يده بندقية آلية وبجانبه مسدس
وشريط ملئ بالرصاص علي كتفه وبجانبه وكأنه

ذاهب الي معركة ! وكان رفيقي السائق خائفا وقال لي أننا نمر
بأرض قبيلة من قطاع الطرق وانهم سيقتلوننا من اجل الاستيلاء علي
السيارة وكان يتلفت يمنة ويسرة وهو يسرع بالسيارة ، وبحفظ الله
خرجنا بسلام من منطقة الخطر ووصلنا المدرسة بدون توهان ! وربما
يفسر رؤيتنا لليمنيين المدججين بالسلاح ان عليهم اجتياز هذه المنطقة
الخطرة بسياراتهم ..

وهناك أمر آخر يرمي بظلال من الشك حوله وهو نظام الكفيل
وهو التصريح لأي سعودي بجلب عمال يعملون لديه ويكون كافلا
لهم ومسؤولا عنهم في المملكة ، وفتح هذا الباب واسعا لبعض الناس
لاستغلال هؤلاء العمال وإساءة معاملتهم واكل حقوقهم ويستحوذ
الواحد منهم علي جواز العامل ولا يستطيع العامل ان يرجع الي وطنه
ولا يستطيع ان يعمل في مكان آخر ولا يجد مخرجاً سوي الهروب من
كفيله ، ونجد في الصحف اليومية إعلانات يومياً عن هروب عمال

والتحذير من التعامل معهم وكأنهم مجرمين ، وكثيراً ما يكون الكفلاء من البدو الأميين ، ولقد رأيت في عدة مدارس خارج المدينة وفي نفس المدينة فراشين في المدارس يكفلون مكفوليهم من العمال بأداء عملهم في المدارس من نظافة وخلافها والفراش يجلس على مقعد وثير في مكتب المدير واضعاً ساقاً على ساق ! وهناك استغلال من نوع آخر وهو أن يجعل الكفيل هؤلاء العمال يعملون ويعطونه شهرياً قسماً من كسبهم ، ولقد تلقت المملكة نقداً من منظمة العمل الدولية ومن منظمة العفو الدولية وعلمت أن المملكة بصدد إصلاح الأمر . ولقد دفع الظلم واليأس من الأنصاف بعض العاملين الأجانب إلى ارتكاب جرائم في حق مخدوميهم ذهبت إلى حد القتل أحياناً وغالباً ما تجيء الجرائم من الخادمات في المنازل ولقد عاصرت جرائم بشعة من هذا القبيل عندما قامت خادمة بحرق طفلة مخدومتها داخل فرن البوتجاز وقام التلفزيون والصحف بنقل تفاصيل تلك الجريمة البشعة ..

وقد يتساءل البعض : من أرغمهم على المجيء إلى المملكة ؟ والسؤال وجيه وإجابته سهلة وهي أن الحاجة إلى العمل المفتقد في أوطانهم والأوضاع السيئة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً أرغمتهم على الخروج والضرب في الأرض من أجل الرزق والقبول بأي وضع .. ومن ذلك أننا احتجنا إلى مدرسين للغة الإنكليزية ووجهتنا الوزارة إلى تعيين معلمين محلياً من الأشخاص المرافقين أو لزوجاتهم المحارم ، وتقدم إلينا مجموعة منهم وكان من ضمنهم مدرس سوداني صاحب خبرة في التدريس ولكنه دخل المملكة بفيزا ليعمل راعياً ، وكنت ارأس لجنة المعاينة ووجدنا أوراقه وشهاداته مستوفية وأوصينا بقبوله

ورفعنا التوصيات للمدير وشرحت له الظروف التي أجبرت الرجل ليكتب في خانة العمل راعي لأن تلك كانت العمل الوحيد المتاح وكان همه هو أن يدخل المملكة وبعدها يبحث عن عمل آخر يلائم مؤهلاته ، ورفض المدير طلب استخدامه وقال لي : (أيش أقول للوزارة ، أقول لهم عينت راعي غنم ؟) .. ولا أنسى منظراً رأيته عند دخولنا إلى بلدة صغيرة نائية في الصباح الباكر ورأينا أربعة رجال من أخوتنا المصريين جالسين في ظل حائط منزل وحولهم أطفالهم الصغار يلعبون ، وهؤلاء هم المحارم الذين أتوا مع زوجاتهم المدرسات وكانوا يتولون وظائف مهمة في وطنهم ويحصلون على إجازة بدون مرتب لمرافقة زوجاتهم المعارات ، ولكنهم هنا في هذه البلدة الصغيرة النائية التي ليس فيها عمل يكون عملهم هو رعاية الأطفال والعناية بشؤون المنزل . ، وكان لدينا أحد المحارم في المدينة عقيد شرطة كان حظه احسن وتعين مدرس تربية بدنية في إحدى المدارس المتوسطة الجديدة .

بدأت الدولة في إحلال السعوديين في الوظائف الحكومية والبدء (بسعودة) التعليم الابتدائي وترفيع مدرسين ليصيروا موجهين، والاحتفاظ بالمدرسين المتعاقدين في تدريس المواد التي يفتقرون الى متخصصين فيها مثل الإنجليزي والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغة العربية ، وفي هذا الصدد التحق لدينا مدرس لغة إنجليزية سعودي عائد من بعثة وألحقناه بثانوية نجران وامضي فيها سنة وكان من أبناء المنطقة ، ورقي ذلك المدرس موجها وحل محلي في إدارة تعليم نجران التعليمية ونقلت أنا الى منطقة الدوادمي التعليمية في كشف التنقلات آخر العام .

ولا يفوتني ان اذكر حدثين مرآ بي لما لهما من دلالة خاصة عندي .
أولهما ان أمير إمارة نجران كتب الي مدير التعليم لينتدب اثنين من موجهي اللغة الإنجليزية والعربية لأنه تعاقد مع مصور ناشر فرنسي ليؤلف كتابا بالصور عن نجران وقال ان عملنا سيكون مراجعة التعليقات والكتابات المصاحبة للصور وذكر انه سيمنح الموجهين مكافأة ، وشرع المصور الفنان في عمل الكتاب وتصوير الأماكن المتعلقة بنجران في التاريخ والجغرافيا والناس والعادات واستغرق العمل ما يقرب من أربعة اشهر وكنت وزميلي موجه العربية نراجع مسودات الكتاب التي كتبت بالعربية والإنجليزية ، وأملنا أنا وزميلي ان تكون مكافأة الأمير علي قدر الأمير ولكن طلبوا منا ان نقدم طلبا للأمير بواسطة مدير التعليم ، وكتبت الإمارة لادارة التعليم طالبة بيانا براتب كل منا ، ثم طلبوا بيانات أخرى، وصار لنا ملفا، ثم طلبوا منا مقابلة نائب مدير الإدارة المالية بالأمارة ، وقابلناه واخبرنا انهم سيعطونا اجر خمسة واربعين يوما حسب رواتبنا وطلب مننا كتابة طلب جديد بهذا المعني ، وفعلنا ، وذيله بإمضائه وعبارة لا مانع، ووجهنا بالذهاب الي الحسابات بعد ان أضاف الطلب الجديد للملف، وذهبنا الي الحسابات وهناك حسبوا ما يستحقه كل منا من مبلغ وطلبوا منا الذهاب لمساعد مدير الإدارة لاعتماد المبلغ ، وذهبنا وأشر بتوقيعه علي الطلب ووجهنا للرجوع الي مدير الإدارة المالية للتصديق ، وفعلنا ونلنا التصديق ، وطلب منا ان نذهب لوكيل الإمارة للتصديق النهائي ، وسألنا الرجل ان كانت الخطوة القادمة هي النهائية ، وابتسم الرجل وأجابنا بأنها ستكون النهاية بإذن الله ، وحملنا ملفنا وتوجهنا الي مكتب الوكيل بعد ان دخلنا وخرجنا ست

مكاتب ومقابلة مسؤولين عديدين وإضافة أوراق الى الطلب الأصلي حتى صار ملفا سمينًا! وجلسنا على مقعدين من المقاعد المرصوصة حتى يجئ دورنا لمقابلة الوكيل ، والقي الرجل نظرة في الملف وقلبه ثم شكرنا علي مجهودنا وطلب منا ان نذهب للخزينة بعد يومين لنصرف المكافأة ، وطلب منا ان نقابل الأمير ، وتكلم في الهاتف ثم استدعى أحد الموظفين لاصطحابنا الي مكتب الأمير وكان مكتبا كبيرا في غاية الأبهة والفخامة ، وقام الأمير ورحب بنا وشكرنا علي ما قمنا به من عمل ، وشكرنا الأمير علي كرمه ولطفه متمنين له طول العمر ودوام الصحة . ولما كان زميلي سيسافر بعد يومين في إجازته السنوية اوكلني لاصرف مكافأته وأحولها له ، الشيء الذي فعلته بعد يومين عندما صرفت المبلغ ، وتمت رحلة المكافأة بسلام ..

وخرج الكتاب في حلة قشيبة في صفحات من القطع الكبير وأحتوى على مجموعة رائعة من الصور وأختار المؤلف عنواناً للكتاب هو : (نجران _ بستان جزيرة العرب) ، وأهدى المؤلف نسختين من الكتاب لي ولزميلي .

وأوكل إلى المدير عضوية لجنة تنقلات المدرسين السنوية التي يرأسها رئيس الهيئة الفنية وتتكون من رئيس شؤون الموظفين وأثنين من الموجهين وكان معي زميل مصري موجه للغة العربية وزود المدير كل واحد من أعضاء اللجنة بورقة بالتعليمات والضوابط كي نتقيد بها في عملنا وأولها السرية التامة ، ولفت نظري من هذه الضوابط أن لا نضع في المدارس البعيدة أثنين أو أكثر من المدرسين السعوديين في مدرسة واحدة وذلك لأنهم يتغيبون ..

كما كلفت بعضوية لجان لاختيار المدرسين محلياً من المدرسين المحارم المرافقين لزوجاتهم ، وكذلك رئاسة لجنة اختيار مدرسي الإنجليزي وعضوية اختيار المدرسين السعوديين المرشحين للبعثات في الخارج كما كنت ارأس لجنة تصحيح وتقدير درجات اللغة الإنجليزية في امتحان الكفاءة المتوسطة ..

أما الحدث الثاني فقد طلب قاضي المحكمة من الإدارة أن تنتدبني لأترجم عن مجني عليه فلبيني لا يعرف العربية ويتكلم الإنجليزية ، والفليبيني يعمل فنياً مع مقاول فلسطيني كمصمم معماري ، والمتهم جندي في الحرس الوطني ، وقال الفليبيني أنه كان نائماً ليلاً في خيمته وتهجم عليه الجاني فقاومه وأخذ يصيح فتركه ولاذ بالفرار وطارده هو وزملاءه فأطلق عليه الجاني النار من مسدسه وأصابه في إبهام إصبعه وكسره ولكن استطاعوا أن يقبضوا عليه وينزعوا المسدس منه ، وفي الصباح أسلموه إلى الشرطة وقام المقاول بإرسال برقية للأمير عبد الله قائد الحرس الوطني بالحادث ، وجاء الرد برقياً بتقديم الجاني للمحكمة ، وجاء مع الجاني بعض أقاربه وقال ممثل الإدعاء أن المجني عليه قبل تسوية وتنازل عن حقه نظير أن يدفع له المتهم ثمانية آلاف ريال تعويضاً عن إبهامه المكسور ، وهنا سأل القاضي المجني عليه أن كان قد قبل هذه التسوية طواعية أم بالضغط من أي جهة ، وأجاب أنه قبل طوعاً بالتسوية دون إكراه ، وطلب القاضي من المتهم أن يدفع المبلغ في التو للمحكمة ودفعه وناولته المحكمة للمجني عليه ، وقال له القاضي أنك بذلك تنازلت عن حقك ولكن يبقي حق الدولة والذي لا يمكن التنازل عنه وستحاكمه

المحكمة وتقتص منه . هذه واحدة ، وانتدبت للترجمة مرة أخرى لفليبيني أراد الدخول في الدين الإسلامي ، وبعد أن شرح له القاضي الإسلام وعن التكاليف والواجبات سأله إن كان دخوله الإسلام بطوعه واختياره وعن اقتناع ، فأجاب بالإيجاب ، وبعد ذلك طلب منه أن ينطق بالشهادتين ، ثم هنأه وهنأه كل الحضور وأعطاه القاضي مبلغاً من المال قال له أنه هدية من بعض الأخوة احتفالاً به .

كنت قد أمضيت ثمان سنوات في هذه البلدة الجميلة وناسها الكرام الطيبين وإدارة التعليم الراقية بها ، وأذنت شمس وجودي بنجران بغروب على أن تشرق ثانية على أرض جديدة ووجوه جديدة وتجربة جديدة في مشوار عمري ..

في الدوادمي :

بدأت أسأل عن المكان الجديد الذي سأذهب إليه وعرفت أن المدينة تبعد عن الرياض العاصمة بثلاثمائة وخمسة وعشرين كيلومتراً وتقع في وسط منطقة نجد وللوصول إليها يتوجب الذهاب بالطائرة إلى الرياض ومنها بالسيارة أو البص إليها ، وتحصلنا على تذاكر سفر من الخرطوم إلى الرياض ، وذهبت إلى الرياض ومن هناك استأجرت عربة تاكسي لتنقلني إلى الدوادمي وإلى الرياض مرة أخرى وذلك لأقدم نفسي للعمل في مقري الجديد ولأدبر تأجير سكن لنا وفي الطريق مررنا بحاجز أمني واخبر الشرطي السائق بأنه ليس مصرح له بالعمل أو الخروج خارج الرياض وأستولي منه على رخصتي القيادة والعربة وصفد يديه بالأصفاد وأدخله في خيمة كان فيها عدد من

السائقين المصفدين وسياراتهم مصطفة على جانب الطريق وطلبت من الشرطي مقابلة الضابط وعرفته بنفسي وأنني آت من نجران لأقدم نفسي لجهة عملي في الدوادمي وسأرجع ثانية إلى نجران لأحضر عائلتي وعفشي ، وتفهم الضابط الموقف وأفرج عن السائق وأخبره ليوصلني ويعود ثانية لتكملة الإجراءات معه .. ووصلت الدوادمي وذهبت رأساً إلى إدارة التعليم وقابلت المدير والذي أستقبلني أحسن استقبال كما أثنى على إدارة تعليم نجران وعلى منطقة نجران التعليمية ، وعرفت منه أنه ليس لديهم موجه للإنكليزي بالإدارة لمدة سنتين واستأذنته ، في الرجوع إلى نجران لإحضار عائلتي وعفشي وسيارتي .

ترك المدير في نفسي انطباعاً طيباً فهو صنف من الناس ترتاح له النفس من الوهلة الأولى ومن مقابلته لك عكس الذين تنقبض نفسك منهم من أول لقاء ، وكان المدير رجلا بشوشا سمحا متواضعا ، وباب مكتبه مفتوح يدخل عليه أي شخص ولا يوجد عنده سكرتير أو مدير مكتب .

رجعت الي نجران واستأجرت شاحنة كبيرة شحنت فيها عفش منزلي والسيارة وركب ابني مع السائق للذهاب الي الدوادمي، وعدت الي الرياض للقاء زوجتي وابنتي العائدين من السودان، واستأجرت عربة تاكسي من المطار الي الدوادمي وعند وصولنا نزلنا في الفندق الوحيد بالبلدة وحالفني الحظ وهيأ لي شابا سودانيا شهما اخذ يذهب معي الي عديد من المساكن حتى وجدنا شقة مناسبة استأجرناها وكان ابني قد وصل بعد يومين من السفر بالشاحنة ، وقد كلفني الرحيل مبلغا ماليا ليس هينا .

كـان الانطبـاع الأول عـن الـدوادمي سـلبيا مقارنـة بنجـران فالبلـدة قاحلة كـالحـة وهـي اقـرب للقريـة الكـبيرة منهـا للمدينـة وهـي اقـرب للبادية منها للحضر في مساكنها وناسها وكانت السيارات كلها من طـراز (البكاسـي) والـتي يسـمونها هنـا (وانيـت) والمنطقـة صـحراوية تربتها رملية وتنعدم الخضرة فيها ، ولكن بدد وحشة المكان وجفافه ما لقيته من لطف ولين جانب وسجايا سمحة من المدير ومن بعد من بعض الزملاء السعوديين والسودانيين والمصريين وصديقي الفلسطيني موجه اللغة العربية ...

كانـت المنطقـة التعليميـة فقـيرة في السـيارات وليسـت كمنطقـة نجـران الـتي هيـأت الإدارة للمـوجهين كـثيرا مـن العربـات الجديـدة الجيدة، ولكن هنا كان يذهب كل اثنين أو ثلاثة في سيارة واحدة للاماكن البعيـدة خـارج الـدوادمي ، وكـان علينـا ان نـذهب بسـياراتنا الخاصة الي كل المدارس التي تقع في دائـرة قطرهـا ٦٣ كيلـو مـترا ، وعكفت علي العمل .. قبل سنتين كان بالمنطقة موجه مصري وانتهت إعارتـه ولم يحـل محلـه آخـر وفي السـنة التاليـة كـان يـأتي موجـه مـن منطقـة الريـاض التعليميـة ليقـوم بالتوجيـه ولكـن انحصـر عملـه في مدارس المدينة والمدارس القريبة منها ، وبدأت بدراسة التقارير السرية عن المدرسين التي كتبت عنهم آخر مرة وتكونت لدي فكرة مبدئية عـن كـل واحـد منهم تتأيـد أو تـدحض عنـد زيـارتي لـه واطلاعـي علـي عمله وأدائه ، وحدث بالفعل إنني بعد زيارتي للمدرسين وجدت تراخيا وإهمـالا في العمـل وكـان ذلـك نتيجـة متوقعـة لعـدم المتابعـة والمحاسـبة وعـدم وجـود موجـه بالمنطقـة ، وكنـت اعقـد جلسـة مـع كـل مـدرس

بحضور مدير المدرسة وأناقش معه الإيجابيات والسلبيات وأسجل ذلك كتابة في دفتر التوجيه الموجود في كل مدرسة وبعد ذلك املأ التقرير السري مع المدير والذي له عشرين درجة من مجموع عناصر درجات التقويم المائة ، وكانت الزيارات لكل مدرس تتم مرتين في السنة إحداها في الفترة الدراسية الأولى والثانية في الفترة الدراسية الثانية في آخر العام ويكتب عنه تقرير في كل مرة ، وهناك المقصرون الذين تتم زيارتهم اكثر من مرة لتقويمهم . وكنت أتواصل مع المدرسين بالنشرات وبعقد اجتماعات مع مدرسي مدارس المدينة . ووضحت في تقريري عن الفترة الأولى للوزارة تشخيصا كما يقول الأطباء للحالة التي وجدت عليها المدرسين وتدريس الإنجليزية ، وبينت التدبيرات التي أجريتها لاصلاح الحال ، ووصلني تقريظ من الإدارة العامة للغة الإنجليزية بالوزارة علي الخطوات التي قمت بها . ويجدر الذكر انه مطلوب من كل موجه ان يرسل الي الوزارة خطته في التوجيه وزياراته للمدارس باليوم والتاريخ وبعد ان تقرها الوزارة تصبح خطة معتمدة للتنفيذ ، كما ان علي كل موجه كتابة تقرير عن عمله وإنجازاته عقب كل فترة دراسية ، ويتلقي الموجه ردا من الوزارة يتضمن تعليقات أو ملاحظات علي التقرير .

كما ان مدير تعليم المنطقة يعد تقريرا عن كل موجه بالاشتراك مع رئيس الهيئة الفنية وعلي ضوء هذا التقرير يجدد العقد للموجه للسنة القادمة ويمنح العلاوة السنوية التي تحدد علي درجة التقدير التي نالها الموجه ، وهذا التقويم يصدق أيضا علي المدرسين .

كان بالإدارة أربعة موجهين للتربية الإسلامية وكلهم سعوديون ،

وكان هناك موجه مصري للرياضيات وصارا اثنين بعد ترفيع مدرس مصري ، وكان هناك موجهان للغة العربية أحدهما سوداني والآخر فلسطيني ، وموجه سوداني للعلوم وأضيف له مدرس سعودي بعد ترفيعه ، وكان هناك موجه سعودي للاجتماعيات وآخر للتربية الفنية وموجه سعودي للتربية الرياضية ، وشخصي السوداني لتوجيه اللغة الإنجليزية . وتوصف منطقة البدوادمي منطقة فئة (ب) أي منطقة تعليمية متوسطة .

اختصت منطقة الدوادمي بأسلوب متفرد وهو تكليف موجهي المواد بالتوجيه في المراحل الثلاث ومع ان أسس التوجيه واحدة فانه لابد من إلمام الموجه بمناهج وكتب كل مرحلة ، وفي المرحلة الابتدائية لا يوجد تخصص في المواد وعلي الموجه ان يتعامل مع مدرسي جميع المواد ، وقد تم تكليفي بتوجيه مدرسي أربع من المدارس الابتدائية النائية الشيء الذي كلفني الاطلاع علي كتب المرحلة الابتدائية ، وبرغم ضيقي بهذه المهمة الجديدة بقدر ما سعدت عندما وجدت اثنين من مدرسي الصف الأول في مدرستين من المدارس النائية علي درجة عالية من الكفاءة والامتياز والإخلاص في عملهم ، ووجدت التلاميذ الصغار يقرأون ويكتبون بطلاقة وسلاسة ووجدت وسائل إيضاح جذابة وسهلة في الشرح والإيضاح قام بعملها المعلمان ، ولقد أشدت بعملهما في دفتر التوجيه بالمدرستين ، واستحق كل منهما درجة ممتاز في تقريره وكان أحدهما فلسطيني والآخر مصري .

وعندما فرغت من زيارة جميع مدرسي الإنجليزي بالمنطقة وقارنت بين ما كتب عن البعض في التقارير السابقة وما لقيته عندما قمت

بزيارتهم وجدت ان التقارير السابقة تعوزها الدقة والصدق فكثير من المدرسين لا يستحقون ما نالوه من تقويم ومن الجلي ان المجاملة الزائدة لعبت دورها ليحصل بعض المدرسين علي علاوات مرتفعة ، ولن انسي ذلك المدرس السعودي الذي كان ضعيفا في مادته وتدريسه وشخصيته ولم يكتب التلاميذ في كراساتهم سوي صفحتين فقط خلال شهرين وحتى هذه لم يصححها ، فاضاف الي ضعفه إهمالا جسيما ، وللمفارقة ان آخر تقرير كتب عنه كان بدرجة جيد جدا ، وكتبت عنه تقريرا مبينا ضعفه وإهماله وتقصيره وأوصيت بتحويله الي وظيفة إدارية بدلا من التدريس لأن (ضحاياه) كانوا تلاميذ مدرسة كاملة ، وانه لا يصلح لتدريس اللغة الإنجليزية ولكن رئيس الهيئة الفنية كان له رأي آخر وقال لي ان نعطيه فرصة ، وعقد اجتماعا مع المدير وشخصي وموجه تربية إسلامية كان كالمستشار للمدير ، وأبنت لهم وجهة نظري وأصررت عليها وطالبتهم بان يستدعوا موجها من الوزارة ليحكم علي ذلك المدرس وأنني مستعد لتقبل النتيجة ، وقال رئيس الهيئة الفنية ان أتولى أمر المدرس لمدة أسبوع ادرس فيه حصص معاينة يحضرها معي واشرح له كيفية تحضير الدروس ، وبعد ذلك اجعله يدرس حصصا أحضرها معه وأوجهه ، وفي نهاية الأسبوع ان وجدت انه أحرز تحسنا ولو ثلاثين في المائة فانه في هذه الحالة يرجي منه ، ووافقه المدير والموجه الآخر علي هذا الرأي ، وعلمت السر وراء إصرار رئيس الهيئة الفنية علي عدم تحويله للإدارة وهو ان من يحول من وظيفة فنية الي وظيفة إدارية يضار ماليا لأن راتبه ينقص في هذه الحالة ، وظللت اذهب كل يوم الي المدرسة وادرس حصصا .يحضرها المدرس معي ، ومن طريف ما حدث أنني شرحت له إحدى طرق

تدريس الكلمات الجديدة وهي إحضار الأشياء المراد تدريسها مثلا كالقلم والمسطرة والبيضة والكتاب وإبراز الشيء أمام التلاميذ مع نطق الكلمة الدالة عليه مرارا والطلب من التلاميذ ترديدها . وطلبت منه ان يطبق في الغد نفس الطريقة ، وفوجئت عند قرع الجرس لبداية الحصة بذلك المدرس يحمل علي كتفه سلما كبيرا ويدخل به الفصل وذلك ليدرس الكلمة الإنجليزية Ladder (سلم) ! وعلمت فيما بعد ان ذلك المدرس يملك محلا في السوق للسمكرة وانه يحضر مدرسا خصوصيا ليدرس ابنه الإنجليزية ! وقد حاول ذلك المدرس السمكري استمالتي بعرضه سيارته الفخمة الجديدة الاستيشن من طراز GMC . لتكون تحت تصرفي وعرض خدماته أيضا ولكن بلا جدوي ..

كان مجتمعنا الصغير من الموجهين يعيش في تناغم ومودة ، وكان يقاسمني المكتب موجه التربية الرياضية وهو شاب لطيف ومهذب ، وكنت اذهب في أوقات فراغنا وعودتنا من المدارس الي مكتب التربية الإسلامية وفيهم شبان فضلاء أتجاذب معهم أطراف الحديث ، كما أنني اتخذت من موجه العربية الفلسطيني صديقا وهو رجل كريم ورزين ، وأثار عجبي موجه سعودي كان يحضر الي المكتب متأخرا ويدخله ويقفله من الداخل وينام علي كرسي مريح واضعا قدميه علي مقعد آخر ولقد خبرت ذلك بعد ان اقتسمنا المكتب سويا ، وكان يكتب تقريره السنوي نقلا عن تقريره للعام الفائت بحذافيره ، ويرجع إليه رد الوزارة مع التعليق بان التقرير ليس به جديد وانه كسابقه ويستدعيه المدير ويتحدث إليه ولكنه كان غير مبال ولا يكترث، وعلمت انه مليونير ورث عن والده مالا وعقارات كثيرة .. وكل

الموجهين بالإدارة كانوا مديري مدارس متوسطة واثنان منهم كانا مديري مدارس ثانوية .. أما المدير فقد كان رجلا بسيطا متواضعا وطاهر اليد واللسان وكان يتجول في الإدارة حافي القدمين إذا خرج من مكتبه ، وأرضية الإدارة مغطاة كلها بالموكيت وكان ينادي علي بأعلى صوته من أول الرواق حيث يوجد مكتبه عندما يراني وأنا في آخر الرواق :(يا هلال – تعال) ، وكنت اسميه بيني وبين نفسي (الراعي) .. واخبرني زميل المكتب السعودي انهم قبل مجيئي كانوا قد أطلقوا ألقابا علي البعض في الإدارة وكان معهم موجه مصري ساهم في إطلاق هذه الألقاب فقد سموا رئيس الهيئة الفنية ((أبو لهب)) وعلي موجه سعودي ((أبو جهل)) وعلي آخر ((أبو العريف)) تهكما وفعلا لقد كان لكل منهم نصيب كبير من لقبه ! وكان رئيس الهيئة الفنية مخاصما لمكتبه ان صح التعبير فانه لماما ما يجلس فيه ويقفله بالمفتاح ويضعه في جيبه ، وكنا قلما نجده وان لقيناه يكون جالسا في مكتب المدير ، وعندما يسوق سيارته يتلثم وكأنه يقود ناقة في الصحراء !

كانت هناك مدرسة نائية في قلب الصحراء الطريق إليها شاقة وعرة يتخللها الصخور والرمال وليس بموضع المدرسة غير بيت واحد مبني بالبلوك الأسمنت وهو منزل شيخ المنطقة من البدو وهو يؤجره لمدرسي المدرسة ، وكانت هذه المدرسة نخصصها ((للعصاة)) من المدرسين أي المهملين والمقصرين والمشاغبين . وكان الواحد من المدرسين المعنيين عند نقله الي هذه المدرسة ويقضي عاما هناك، يجيء الي الإدارة تائبا ناثبا ويتوسل لنقله من المدرسة وكنا عندما نذهب الي هناك يوصينا كل واحد منهم في أمر نقله ..

الناس هنا يموتون بحوادث السيارات ! والناس يقودون السيارات منذ صغرهم ومن المناظر المألوفة ان تري طفلا في العاشرة يقود سيارة ولا تري منه سوي رأسه ، ورغم مهارة الجميع في قيادة السيارات فان لهم غرام بالسرعة المخيفة ويقول بعضهم أريد ان اصفي طبلون السيارة وهذا معناه ان يسير بأقصى سرعة في السيارة وقد تكون ١٦٠ كيلومترا أو ٢٤٠ كيلومترا في الساعة ! ومن هنا تكثر حوادث السيارات وضحاياها ومعظمهم ان لم يكن كلهم من الشباب صغار السن .. وهناك عملية يفعلونها بالسيارة وهي السير بسرعة ثم يكبحون السيارة بالفرامل ويدورون بها فتحدث إطارات السيارة صريرا عاليا يسمونه (التفحيط) ، وربما يساعد علي الانطلاق بسرعات هائلة الطرق المسفلتة الواسعة الجيدة ، ومن حين لآخر تقوم إدارات المرور بحملات توعية عن أخطار السرعة والقيادة بطيش وتعرض أشلاء هياكل السيارات المحطمة ، ولكن لا حياة لمن تنادي ! وجدير بالذكر ان المرأة محظور عليها قيادة السيارات في المدن ولا تمنح رخصة قيادة ولكن النساء في البادية يقدن السيارات ولقد شاهدت الواحدة منهن وهي محجبة تسوق السيارة (الوانيت) أو (الشاص) وهي سيارة اكبر من الوانيت ، ورأيت إحداهن تنزل من سيارتها وهي حافية القدمين وهذا المنظر يتكرر مع رجال البدو ..

وقد فقدنا أربعة من المدرسين السودانيين العاملين بالدوادمي ذهبوا ضحايا لحوادث السيارات ، وذهب اثنان منهما ضحايا السرعة وواحد أراد ان يتفادي سيارة آتية من الاتجاه المعاكس وانقلبت سيارته والرابع كان واقفا في طرف الطريق وصدمته سيارة مسرعة وأودت بحياته ، عليهم الرحمة والغفران ..

كنت جالسا في المكتب بمفردي ودخل علي مدير التعليم واقفل الباب وراءه وحياني وجلس قبالتي ، وبدأ حديثه مثنيا علي وعلي عملي ثم اخبرني بأن الوزارة أحلت محلي موجه وطني من أهل الدوادمي وكان يعمل وكيلا لكلية التربية بمدينة الرس ، وقال ان الوزارة تخيرني بين إنهاء عقدي بناء علي رغبتي أو تحويلي مدرسا للإنجليزية بالمدرسة الثانوية بنفس راتبي الحالي ، وقبلت العرض الثاني واخبرني المدير ان اكتب طلبا للوزارة باني ارغب في العمل كمدرس ، وفعلت ذلك وارفق المدير معه خطاب توصية يثني فيه علي وعلي عملي ويطلب من الوزارة ان تستفيد من كفاءتي وخبرتي في التوجيه إذا تيسرت وظيفة موجه في أي مكان في المملكة .

وطلب مني المدير ان أظل في موقعي الي ان يأتي الموجه الجديد وان اعمل معه لمدة شهر حتى يلم بأعمال التوجيه ، وجاء عبد الله البيز الموجه الجديد ، وانفتح له قلبي من الوهلة الأولى ، ولعلي موعود بلقاء الأخيار ، وكان رجلا ، كما نصفه نحن السودانيين ، صباح خير، وهذا الوصف يدل علي السماحة والنبل ، وأمضينا شهرا معا نذهب الي المدارس ويحضر معي حصص المدرسين ثم نتناقش مع المدرسين عن حصصهم ، وأخيرا ما اكتبه في سجل زيارة الموجهين ، ثم أطلعته علي كتابة التقرير الفصلي والسنوي ، ووجدت الرجل حلو العشرة متواضعا كريما حلو الألفة وهو الذي قضي عدة سنوات في أمريكا يحضر لشهادة الماجستير في الوسائل التعليمية مع تخصصه في الإنجليزية من كلية الآداب بالسعودية .

كما انه قضي عدة سنوات في الإدارة بكلية المعلمين فهو له من

النضج في السن وفي التجربة والخبرة شأو كبير .. وشئ آخر لا اخجل من ذكره وهو أنني ما احتجت الي نقود وأنا في ضيق وإلا سارع في أريحية لإعانتي حتى انه في ذات مرة أقرضني كل مل تبقي له من رصيد في البنك ولم يكن شيئا كثيرا ، وتذكرت قوله تعالي ((ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)) ، وأخجلني الرجل بتواضعه عندما قال أنني افضل منه في عمل التوجيه وانه لم يأت ليأخذ مني وظيفتي ولكنه حن الي موطنه لأنه خدم اثنا عشر عاماً في مدينة الرس ، ويريد ان يبني له منزلا ويستقر في موطنه ..

مع بداية السنة الدراسية انتقلت من مبني الإدارة الي مبني مدرسة الدوادمي الثانوية المقابل له ويفصل بينهما شارع ، متنقلا من التوجيه الي التدريس والذي فارقته زمانا ليس بالقصير فقد أمضيت في التوجيه خمس سنوات في السودان وعشر أخرى في السعودية ، وتقدم بي العمر وعمل التدريس شاق بدنيا وذهنيا ، كما كنت أشفق من التجربة مع الطالب السعودي والذي كنت احمل عنه فكرة سلبية تتمثل في عدم جديته لتلقي العلم ورغبته في النجاح بأي وسيلة كانت وأقربها إليه الغش في الامتحانات أو تعمد بعض المدرسين نجاح طلبته زوراً حتى يضمن تجديد عقده في آخر العام ، وأما التلميذ أو الطالب السعودي فيعوزه الدافع incentive إلى التعلم ويعزي ذلك إلى حياته الميسرة بل المرفهة ومعظم التلاميذ والطلبة لديهم عرباتهم الخاصة وبعضها من أحدث الموديلات بينما سيارات المدرسين غير السعوديين قديمة أي (second hand) ويمتلكون المال ويجدون من يخدمهم من الأجراء وتعوّد الواحد منهم على أن يأمر ويطاع ، ولذلك يرى التعلم

شيئاً تكميلياً للوجاهة وليس ضرورة لاكتساب المعرفة أو لجلب الرزق بالوظيفة ، ولقد أثبتت لي الأيام من واقع التجربة عند قيامي بالتدريس وتعاملي مع الطلبة صحة هذا الاعتقاد ، فالطالب السعودي لا يعوزه الذكاء ولكنه أعتقل أو عقل عقله ولا يريد أن يشغله ، ويريد كل شيء ساهلاً ميسراً ويعمله له الآخرون .. وليست هذه قاعدة فهناك القلة من الجادين في طلب العلم تجدهم منبثين في كل صف كالزهرة بين الأشواك .. أوعزت إدارة التعليم لإدارة المدرسة أن أكلف بجدول حصص خفيف لأنهم ربما يستدعونني في أي وقت للمشورة مع الموجه الجديد ، ولذلك كنت أدرس حصة واحدة في اليوم لفصل به عشرة طلبة وكانوا يمثلون البقية من تجربة تعليمية سابقة وألغيت ، كان الموجه الجديد يأتي إلي في المدرسة ليتفاكر معي بعض الأمور المتعلقة بالعمل ، وكان من الممكن أن يستدعيني إلى الإدارة لهذا الغرض ولكنه التهذيب واحترام الزمالة السابقة ..

وسارت السنة على هذا المنوال ، وتخللتها لقاءات لمعلمي اللغة الإنكليزية كان الموجه ينيبني عنه لإدارتها عندما يكون غائباً في مأمورية ، أو نديرها معاً ..

تبدل الحال في العام الدراسي الثاني وأعطيت جدول حصص كامل وكنت أدرس أربع حصص في اليوم ، وكنت أشعر بالإرهاق في نهاية اليوم لأنني ومنذ أن أمسكت بالطباشيرة مدرساً كنت لا أمل من شرح الدرس إلى أن أتأكد من أن الكل قد أستوعب الدرس وفهمه ، وكنت لا أجلس وأظل واقفاً حتى نهاية الحصة من الكتابة على السبورة للإيضاح ومحوها والكتابة عليها أكثر من مرة ،

وكان هناك يوم في الأسبوع أدرس فيه خمس حصص وتدريس هذا العدد من الحصص بإخلاص يهد حيل المدرس الشاب فما بالك بمن دلف إلى الشيخوخة ! كنت أصف ذلك اليوم بيوم العذاب ففي نهاية اليوم الدراسي كنت أشعر بالتعب والإرهاق وتعكير الدم والمزاج لما بذلته من جهد ولما لاقيته من سخافات وتصرفات بعض الطلبة ، ولكن ما كان يثيرني ويغضبني حقاً أثناء شرحي للدرس هو تشاغل بعض التلاميذ وتحدثهم إلى بعضهم البعض وخاصة إذا أدرت ظهري للكتابة على السبورة ، وهذه عادة مرذولة لم أتعود عليها في مدارسنا في السودان .. والطلاب يميلون إلى العبث والهزل ويعمد بعضهم إلى الصفير أو إصدار أصوات مضحكة وعادة ما يقوم بهذا العمل الفاشلون من الطلبة ويتضامن معهم بقية الفصل ولا يبلغون عنهم أو يكشفونهم عندما يجري تحقيق ، وهناك فصول معروفة لدي المدرسين ولدي إدارة المدرسة يوجد بها هؤلاء العابثين ، ولقد وصل سوء السلوك بالبعض إلى الاجتراء بالقول على المدرسين وهذه الفئة اتخذت بشأنهم الإجراءات التأديبية وتتراوح من الضرب في طابور الصباح واستدعاء أولياء أمورهم وأخذ تعهدات عليهم بأن لا يتكرر ذلك السلوك المشين .

وقد لاحظت أن الطلبة لا يأتون هذه التصرفات القبيحة مع المدرسين السعوديين ولكن يقصرونها على المدرسين الأجانب كما يقولون ، وتفنن البعض في إساءة الأدب بإحضار كبسولات تحتوي على غاز عفن الرائحة يطلقونه داخل الفصل ، وأجرى المشرف التربوي والوكيل تحقيقاً شاملاً ولم يصلوا إلى الفاعل وجرى تهديدهم بعقاب جماعي إذا تكرر هذا الأمر ..

وجاءت اختبارات نصف العام ثم نهاية العام والاختبارات هنا تنظم بدقة ونظام من الإدارة ويضع كل مدرس امتحان مادته ويسلمه للمدير الذي لا يطلع عليه ويضعه المدرس في مظروف ويكتب عليه البيانات من الخارج المتضمنة تاريخ إجراء المادة ، ويشمع المظروف بالشمع الأحمر ويضعه المدير أمامه في الخزانة ولا يفتح المظروف إلا في يوم إجراء الامتحان قبل ساعة من الموعد ، وبعد فحص المظروف والتأكد من سلامته يوقع عليه المدرس والمدير ، ثم يفض المظروف ويبدأ المدير بنفسه في طباعة الاختبار بماكينة التصوير الضوئي على حسب عدد الممتحنين مع زيادة محسوبة ، ويجري كل ذلك ومكتب المدير موصد عليهما ، ويستلم المراقبون أوراق الأسئلة قبل عشر دقائق من موعد الاختبار ، كما أن إجلاس الطلبة يتم على مسافات متباعدة ويكون في كل لجنة عدد من الملاحظين من المدرسين يترأسهم مراقب من المدرسين السعوديين والجميع زملاء من مدرسي المدرسة ، ويمر مدير التعليم على جميع المدارس للإطلاع على سير الامتحان بينما يمر الموجهون يومياً على المدارس القريبة منها والنائية لمتابعة سير الامتحان . إذن مسؤولية الحفاظ على سرية الامتحان وعدم كشفه أو تسريبه تقع على عاتق المدرس واضع الأسئلة وحده لأن لا أحد خلافه يطلع على ورقة الأسئلة غيره وحتى طباعتها وتوزيعها على الممتحنين . ويرأس المدير لجنة النظام والمراقبة Control ، والتي تستلم أوراق الإجابة وأعدادها للتصحيح ثم رصدها واستخراج النتيجة والشهادات ، وهذه اللجنة أعضاؤها من المدرسين السعوديين ..

عندما كنت موجهاً في نجران أوكلت إلى ومعي المفتش القانوني

بالإدارة مراجعة إجابات ورقة الإنكليزي في مدرسة ثانوية من مدارس نجران فقد ضبطت مع طالب نسخة مصورة من الأجوبة النموذجية مكتوبة بخط اليد وأظهر التحقيق اعتراف الطالب بشراء الأجوبة من مدرس الإنكليزي بالمدرسة وأنه باعها لكثيرين منهم ، وذهبنا إلى المدرسة وأخذ المفتش في التحقيق معه بينما طلبت منه دفتر تحضيره ووجدت أن الخط في ورقة الإجابة مطابق تماماً لخطه ولم يكن الخط يحتاج إلى خبير في الخطوط لأن الخط كان واضحاً كالشمس ،وبمواجهته انهار وأعترف وهو يبكي ، وكان يبيع ورقة الأسئلة بمائة ريال فقط ، وأضاف غباء إلى خيانته فكان يمكن أن يكتب الأجوبة بالآلة الكاتبة كي لا ينكشف ولكنه كتبها بخط يده ولم يدر أنه كتب معها دليل إدانته ..

الشيء المؤرق والذي وجدته فيما يشبه الظاهرة هو الغش في الاختبارات والمؤسف أنه ينظر إليه كشيء عادي من الطلاب وينظرون إليه كنوع من المساعدة أو مد يد العون ومما أكد لي هذا الظن أنه كان لدينا اجتماع للموجهين الجدد في نجران حضره مسؤول كبير من الوزارة وقال في الاجتماع أنه كان لهم في الجامعة زميل عابث لم يكن يقرأ أو يذاكر ويعتمد عليهم في الامتحانات ليعينوه ، ومما قاله ((انحنا ما نترك خوينا)) .. ولذلك نجد مديري مدارس ومدرسين يغضون الطرف عن الغش في الامتحانات بل ان بعض المديرين يوصون المدرسين بالتساهل في التصحيح ، والانكي من ذلك ان بعض الطلبة يتوهم ان من حقه ان يغش !

ويبدأ الغش ابتداء من أداء الواجبات اليومية فعادة يؤدي قلة من

الطلبة المهتمين الواجبات ويقوم بقية الطلبة بالنقل من كراساتهم قبيل الطابور الصباحي ، وللغش في الاختبارات الشهرية والفصلية عدة أساليب ، منها تصوير صفحات من الكتاب بعد تصغير الصفحة الي حجم عدة سنتيمترات وهذه تسمي في السودان (بخرة) ويسمونها في مصر (برشام) ، والوسيلة الثانية التكلم بأصوات منخفضة لا يسمعها الشخص العادي ، والوسيلة الثالثة هي الإشارات المتفق عليها ، وهناك الكتابة علي طرف الجلباب من الداخل ، ومنها الكتابة علي باطن الكف ، وكنت مهما حرصت في المراقبة والملاحظة اكتشف بعد ذلك إنهم كانوا يغشون وذلك بعد ان أصحح الأوراق واجد معظم الإجابات متشابهة بل متطابقة حتى في الأخطاء ! وسألت طالبا منهم بعد ان أعطيته الأمان عن كيفية غشهم رغم الملاحظة الشديدة ، واخبرني انهم يتفاهمون من خلال إشارات بالعيون وحواجب العيون خاصة في الأسئلة التي تتطلب الإجابة بلا أو نعم أو بوضع علامة علي الإجابة الصحيحة ! ومن اعجب ما خبرته من أنواع الغش في اختبار آخر العام لمتحنين من كبار السن الذين يدرسون في الفصول المسائية وكلهم من الموظفين ورجال الشرطة ، فقد رأيت أحدهم يرفع جلبابه ويعري فخذيه وينظر إليهما ، ولما تكرر ذلك منه ارتبت في الأمر، وباغته وهو منهمك في التحديق في فخذه ، ووجدته انه عمل من فخذه سبورة عليها كتابات عديدة ، واستدعيت المراقب ، وحررنا محضرا بالواقعة وكانت لائحة الامتحان تنص علي إرفاق أوراق أو أداة الغش مع المحضر ، وثار سؤال مضحك ومحير عن كيفية إرفاق فخذ الرجل مع المحضر ؟! وبالطبع خرجنا من هذا المأزق بالنص علي ان (البخرة) كانت مكتوبة علي فخذ الغشاش ووقع علي ذلك ، وأظن ان تلك

الواقعة مثلت سابقة في الغش ، وذكرتني تلك الواقعة في حينها بحكاية من المأثور الشعبي السوداني عن امرأة تدعي البصيرة أم حمد وهي حكيمة قبيلة من محدودي الذكاء والفهم وكانوا يهرعون إليها للمشورة إذا حزبهم أمر من الأمور أو انغلق علي إفهامهم ، وذات مرة ذهبوا إليها واخبروها ان ثورا ادخل رأسه في جرة ولم يستطيعوا ان يخرجوها فماذا يفعلون ؟

و أشارت عليهم ان يفصلوا رأس الثور عن جسده ثم يكسروا الجرة ويخرجوا الرأس منها ، وقلت لو كانت البصيرة أم حمد حية بيننا لأشارت علينا ببتر فخذ الرجل وإرفاقها مع المحضر !

كانت هناك ممارسة مشينة تقرب ان تكون من الظاهرة وهي ان يعمد الطلبة الراسبون في الامتحان أو في مواد معينة الي تكسير زجاج سيارة المدرس أو المدرسين ، ولقد عانيت شخصيا من هذه الممارسة مرة عندما كنت موجها وثلاث مرات عندما اشتغلت بالتدريس ، فعندما كنت موجها ذهبت الي مدرسة في ضواحي الدوادمي لمتابعة اختبار نهاية العام ، ولحظت في إحدى اللجان طالبا يحاول الغش مع جاره ، وأنذرته بأنني سأطرده والغي اختباره ان نكرر منه ذلك، وظللت واقفا الي ان انتهي وسلم ورقة إجابته للملاحظ ، وفي نهاية الامتحان غادرت المدرسة وقبل ان استقل سيارتي لاحظت ان المساحات الأمامية مكسورة ، ورجعت الي مدير المدرسة وأخبرته بالأمر وأبنت له شكي في الطالب الذي هددته إذا حاول الغش وأعرب لي المدير عن اسفه لهذا السلوك وقال انه سيتولى الأمر ويعاقب الطالب ويدفعه ثمن المساحات ، وقد كان . وفي المرة الثانية وأنا مدرس بالثانوية كان

بالصف الثاني طالب كبير في السن في العشرين من عمره وكان غبيا ومشاكسا وكان من الطبيعي ان يرسب في الإنجليزي ، وبعد ظهور النتيجة جاء الي في المنزل وطلب مني ان أريه ورقة إجابته وكيف رسب ، فأجبته ان يذهب الي الكنترول في المدرسة ان أراد ذلك وان لا يخاطبني ، وذهب وهو يتوعدني ، وفي صباح اليوم التالي وأنا أتأهب للذهاب الي المدرسة وجدت زجاج سيارتي الأمامي محطما وبجانب السيارة حجر كبير كان من الجلي استعماله في تكسير الزجاج، وذهبت الي الشرطة وفتحت بلاغا واتهمت فيه ذلك الطالب ، وذهبت الشرطة الي داره للقبض عليه ووجدوه قد هرب الي مزرعة لهم خارج الدوادمي ، والقي القبض عليه وبالتحقيق معه أنكر في بادئ الأمر وامضي في الحراسة ثلاثة أيام وفي النهاية اعترف وأحيل الي القاضي الشرعي ، وجاءني أخوه وهو مدرس بالمرحلة الابتدائية واعتذر بشدة عن فعلة أخيه وابدي استعداده لتحمل الخسارة لما حدث في السيارة وترجاني ان اصفح عنه حتى لا يحكم عليه بالسجن ويفصل من الدراسة ويضيع مستقبله ، واستجبت له ، وعند نظر القضية أخبرت القاضي عن تنازلي عن التقاضي ، وسألني القاضي عن سبب تنازلي وإذا كنت قد تعرضت لضغط من أي جهة ، وأبنت له أنني كمربي اعتبر كل طلبتي كأبنائي وان اخطأ أحدهم في حقي فهناك دائما مجال للسماح والصفح ، وأنني لا ارغب في تدمير مستقبل هذا الطالب لأنه إذا صدر حكم بالسجن في حقه لأي مدة كانت فانه سيفصل من الدراسة ولن يقبل ثانية في أي مدرسة ، وقرع القاضي الطالب واخبره ان الحق العام لن يسقط بتنازلي وسيحيله الي الأمير لتأديبه ، وتم تحويل القضية الي أمير الدوادمي والذي وبخ الطالب وشتمه ثم أمر

بجلده ثلاثين جلدة . وبعد الإفراج عنه زارني هو وأخوه في منزلي واعتذر وقبل رأسي وطلب مني ان أعفو عنه .

أما في المرتين الأخريين فقد كسر الفاعل زجاج النافذتين الجانبية والزجاج الخلفي للسيارة ولم تتوصل الشرطة الي الفاعل ..

كان مجتمع السودانيين في الدوادمي يتكون من المدرسين والأطباء والعاملين كبائعين في المحلات وبعض الموظفين العاملين في البنوك ومهندس وفنيي التلفونات وقليل منهم يعملون في النقل والترحيل، وكان يغلب عليهم انتمائهم الي الأخوان المسلمين وجماعة أنصار السنة المحمدية والجماعة الأخيرة تحظى بمكانة خاصة ندي السلطات السعودية وربما لقرب مذهبهم من المذهب الوهابي السائد في المملكة ، وبشكل عام يغلب علي الجميع التدين المنتمين منهم وغير المنتمين الي هذه الجماعات . وهناك ميزة يتفرد بها السودانيون دون الشعوب العربية الأخرى وهي تضامنهم وتوادهم والعلاقة الحميمة التي تربط بينهم وخاصة في الملمات رغم اختلاف قبائلهم وسحناتهم ومعتقداتهم السياسية والطائفية ، فان كل هذه الخلافات تذوب في سودانيتهم ، ويظهر هذا الوجه السوداني عندما يلم حادث أو مكروه أو وفاة أحد السودانيين فالجميع يهرعون الي التشييع ودفن الميت إذا مات ، ويسرعون الي المستشفي لعيادته ، أو الجلوس في بيت الفراش السوداني لتلقي العزاء.وكان هناك أمر آخر مثار تعجب من الجنسيات الأخرى وهو تعامل السودانيين بينهم علي قدم المساواة بدون تعال أو تميز أو زهو أحد بوظيفته أو مكانته والسوداني لا يقبل الإهانة أو (الحقارة) من كائن من كان ، وهذا انعكس علي معاملة السعوديين للسودانيين خلاف الجنسيات الأخرى .

و أورد هنا مثالاً واحداً لادلل علي هذه العلاقة المتينة والوثيقة ، فقد توفي صديق لنا مدرس في حادث بسيارته وكان معه زوجته وابنه وابنته الذين أصيبوا وكانت إصابة الزوجة بالغة ونزفت كثيرا وكانت في حاجة الي نقل دم ، وامتلأت المستشفي بالسودانيين الذين أسرعوا للتبرع بالدم حتى ان بنك الدم امتلأ بدم المتبرعين مما استكفي منه لإنقاذ الزوجة وفاض وظل رصيدا لمن يحتاجه ، وكان منظر السودانيين مثار تساؤل واستغراب من السعوديين والجنسيات الأخرى ، وسألني زميل مصري قائلا : ((هو المصاب يقرب لكو)) يعني هل المصاب أحد أقربائكم ، ولما أجبته بالنفي كان مندهشا ! وكانت الاخوة السودانية اكثر ما تتجلى في العيدين فتجمع الاشتراكات من الجميع ومن المتزوجين والعزاب ويختار مزرعة خارج الدوادمي وينصب فيها صيوانان أحدهما للرجال والآخر للنساء والأطفال وتذبح الخرفان ويقوم بالطهو الرجال ولقد رأيت الدكتور الطبيب حسن يقطع اللحم والمهندس يحمر اللحم ، ويقضي الجميع اليوم في سرور وحبور وسعادة والأطفال يجرون ويلعبون في مرح وعادة ما تكون هذه الرحلة في اليوم الثاني أو الثالث للعيد ، وكانت العائلات تتزاور في نهاية الأسبوع في الأيام العادية ..

ثارت في نفسي عدة تساؤلات وربما وجدت لبعضها تعليلا أو تفسيرا وربما أعياني بعضها الآخر علي الفهم ومنها ، لماذا تسود بيننا الألفة والود خارج السودان ؟ ولماذا نبرز كفايتنا وامتيازنا في العمل ونحن في الخارج ؟ هل ما يجمعنا اكثر مما يفرقنا ، وهل هذه الفرقة حقيقية أم مصطنعة ؟ وهل إذا بذلنا من مجهود وعمل متقن في وطننا يكون

حالنا كهذا الحال البائس ؟ ألم نكن في منظومة الأمم القوية الغنية في العالم ونحن لا تنقصنا الموارد الضخمة من أراض ومعادن وبترول في باطن الأرض ، وأنعام تسد عين الشمس ؟!! أين تكمن العلة وأين يقع الخلل ؟

وأجيب على كل هذه التساؤلات بأسئلة أخرى ، فهل للغربة دخل في تقارب الناس من بعضهم البعض علي غرار بيت الشعر القائل ، ان المصائب تجمعن المصابينا ؟ أم هل الحنين الي الوطن يولد حنينا الي أبناء الوطن الموجودين في مكان واحد ؟ وهل تغييبنا للثواب والعقاب في العمل يتحكم في أدائنا وما فيه من تسيب وإهمال ؟

حضرت حرب الخليج عندما غزا جيش العراق الكويت واحتلها في عام ١٩٩٠ وضربت صواريخ صدام الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .

وقد بدأت السلطات في توعية الناس في حالة الهجوم بأسلحة كيميائية تحسبا لهذا النوع من الاعتداء وخاصة ان جيش العراق قد فعلها بضرب مدينة حلبجة الكردية شمال العراق بالسلاح الكيميائي فاباد جميع سكان البلدة من رجال ونساء وأطفال وقد شاهدنا علي شاشة التلفزيون السعودي أكداس الجثث ومناظر أمهات يضعن أطفالهن في احضناهن والكل قد فارق الحياة ، واذكر ان التعليمات التي كانت تبث عبر الراديو والتلفزيون تبين لكل بيت ان يخصص حجرة وان تحكم سد المنافذ والشقوق في الباب والنوافذ بأشرطة لاصقة ، وان تخزن في الحجرة كمية من الطعام والماء وان يكون لديها عددا من حجارة البطارية للإضاءة في حالة انقطاع الكهرباء،

وان تمكث الأسرة كلها في هذه الغرفة وتتابع الموقف وتعليمات الدفاع المدني في الراديو والتلفزيون ، حتى إذا صفا الجو وزال الحظر يخرجون من الحجرة بناء علي تعليمات الدفاع المدني ، وكذلك يكون أول إجراء عند حدوث غارة جوية هو إطفاء الأنوار ، وكنا ونحن نشاهد التلفزيون تكتسي الشاشة بلون احمر ويبث صوت صفارة إنذار ويظهر علي الشاشة عبارة (خطر - غارة) ، ويستغرق ذلك الأمر فترة ثم تظهر علي الشاشة

عبارة (زال الخطر) . وحدث أمر طريف ففي أول إعلان عن غارة علي الرياض في التلفزيون خرجت عربات الدفاع المدني في الدوادمي وهم يصرخون خلال مكبرات الصوت منبهين السكان الي إطفاء الأنوار واتخاذ الاحتياطات اللازمة من اللجوء الي الغرف المحكمة الغلق والي التزود بالماء . وعندما حدثت غارة في مرة ثانية لم تخرج سيارات الدفاع المدني ولم نسمع تحذيراتهم وقد علمنا لاحقا انهم أفهموهم انهم ليسوا المعنيين بالغارة ولكنها الرياض ولا داعي لإثارة ذعر الناس ..

وكان من نتائج الحرب ان غادر كثير من العمال الهنود والباكستانيين الي بلدانهم وهؤلاء هم الذين يسيرون العمل في الأفران والأسواق والمرافق العامة ، وقد حدث لي أمر طريف فقد ذهبت لاحلق شعري عند الحلاق الذي أتعامل معه ولم أجده ووجدت حلاق آخر مكانه وسألته عنه فأجابني بأنه غادر الي الهند وما قاله : (حرب في _هو ما في) . وكان من تداعيات نقص العمالة ان طلبت الحكومة من المواطنين وخاصة الطلبة التطوع لتسيير المرافق العامة في حالة مغادرة

العمالة الأجنبية والي ان ينجلي الموقف .. وجمع مدير المدرسة الثانوية الطلبة وعددهم ستمائة طالبا وتحدث إليهم عن التآزر والتكاتف وخدمة الوطن في الأزمات وطلب منهم التطوع ومن يريد التطوع عليه تسجيل اسمه لدي المشرف الطلابي لاستدعائهم إذا دعت الحاجة إليهم .. وكانت حصيلة التطوع ثلاثة طلاب فقط من الستمائة طالب !

اذكر أنني ذهبت الي الرياض في تلك الأثناء فهالني ان وجدت المدينة أشبه بالثكنة العسكرية ، فقد كانت رئاسة جيوش القوات المتحالفة لتحرير الكويت في الرياض ، وكان الجنود الأمريكان وسياراتهم تملأ المدينة وخاصة الأسواق ، وكان هناك منظر نشاز علي المحيط السعودي وهو مرأى المجندات الأمريكيات وهن يتجولن في الأسواق وبعضهن يقدن السيارات وان كن يغطين شعرهن بقبعات ويلبسن بنطلونات طويلة ، وكن مثارا للفرجة والدهشة ، لأن النساء يحظر عليهن قيادة السيارات دعك من السفور ، وكان ان حاول بعض السيدات السعوديات تقليدهن وقدن سياراتهن في شارع رئيسي في الرياض فحاصرتهن الشرطة وأوقفتهن واستدعوا أولياء أمورهن ولم تتكرر المحاولة مرة أخرى ، وكما ذكرت في موضع آخر من هذا الكتاب ان نساء البدو يقدن السيارات بدون خشية من السلطات أو استغراب من الكافة ..

وقد نزح كثير من سكان الرياض الي المدن والجهات الآمنة مع ذويهم وأقربائهم وذلك بعد ان صارت صواريخ سكود العراقية تنهال علي الرياض ، ولكنها لم تسبب دمارا أو خسائرا في الأرواح والممتلكات وذلك لأن العاصمة أحيطت بصواريخ باتريوت الأمريكية

المضادة للصواريخ والتي تفجر صواريخ سكود العراقية في الجو ، وشاهدت جانبا من مدرسة سقطت عليه قطع من صاروخ متفجر وهدم حجرة دراسية وكانت المدرسة خالية من التلاميذ لأن الصواريخ كانت تطلق ليلا ، وعلمت ان كل صاروخ سكود كان يطلق عليه صاروخان باتريوت لتدميره في الجو ، وثمن صاروخ باتريوت الواحد مليون دولار كما قيل لي.

كانت الساعة تشير الي الرابعة فجرا وصحوت من النوم علي هدير أصوات الطائرات وفتحت النافذة وفي غبش الفجر رأيت أمواجا من الطائرات متجهة شمالا ، وحدست ان حرب عاصفة الصحراء لتحرير الكويت قد بدأت وان طليعتها هذه الأسراب من الطائرات والتي قدرت أنها أقلعت من قاعدة حفر الباطن العسكرية القريبة من الرياض والتي ستغير علي مواقع الجيش العراقي ممهدة بذلك الطريق للآليات والمشاة للتقدم علي الأرض وصدق ظني فقد أعلن التلفزيون وأجهزة الأعلام الأخرى بدء حملة تحرير الكويت واجري التلفزيون عددًا من المقابلات مع الطيارين السعوديين حال عودتهم من الغارة وهبوط طائراتهم بعد ان شاركوا في الضربة الجوية ، ونقل لنا التلفزيون صورا من العراق بدت فيها السماء مشتعلة بنيران المضادات الأرضية العراقية والأرض مشتعلة كذلك بانفجارات قنابل وصواريخ الطائرات .

لجأ بعض الكويتيين الي السعودية عند أقربائهم فهنا بعض القبائل واحدة في الكويت والسعودية ، وجاء بعضهم الي الدوادمي عند بني أعمامهم ، والتحق أبناءهم بالمدارس هنا ، وكان نحو العشرة منهم

بمدرسة الدوادمي الثانوية وكان بعضهم سيئ الخلق ولا يحترمون مدرسيهم ولكن اخضعوا للتقيد بالنظام والسلوك الحسن . وكان من نصيب الدوادمي أعدادا من الأسرى العراقيين وجاء أسرهم بعد تحرير مدينة الخفجي الحدودية السعودية والتي احتلوها لبعض الوقت، ووضع الأسرى في منزل من ثلاث طوابق مقفل النوافذ ليلا ونهارا وعليه حراسة طيلة الأربع والعشرين ساعة ، ولقد حدثت فيه جريمة قتل عندما قام أحد الأسرى بقتل زميل له .

ومنحت وزارة التربية والتعليم المدرسين الأجانب إجازة ليذهبوا الي أوطانهم ويطمئنوا أهلهم وذويهم علي سلامتهم ، ومما علق بذهني عند وصولنا لمطار الرياض لركوب الطائرة منظر صفوف من الطائرات الحربية الأمريكية من كل نوع وحجم وشكل وهي رابضة علي ارض المطار وكلها مطلية باللون الأسود وبدت كغربان سوداء هائلة الأحجام حاملة في جوفها الدمار والخراب ، وكان حيز كبير من مطار الرياض قد خصص للطيران الحربي ، وعلي غير العادة كان ذلك اليوم في الرياض ممطرا والسماء تغطيها الغيوم السوداء ، وحلقت بنا الطائرة وبعد عشر دقائق من تحليقها وسط السحب والأمطار سمعنا فرقعة ودويا كبيرا خارج الطائرة ، وران صمت لهنيهة أعقبه أصوات ملتاعة تتساءل عن تلك الفرقعة ، وتبادر في خلد الكثيرين انه انفجار صاروخ من التي كان يطلقها العراقيون علي الرياض ، وجاءنا صوت الكابتن عبر المكرفون مطمئنا بان الصوت الذي سمعناه كان صوت رعد قوي وان لا خوف منه علي الطائرة ، وعندها فقط عاد الهدوء والأمن الي النفوس الجزعة ، وارتفعت الطائرة فوق السحب

والغيوم وتركت الرعود تحتها وكانت الغيوم تبدو عبر النافذة كقطن منفوش ولكنه اسود اللون !

كل سوداني بل كل مسلم تهفو نفسه وتعلق أمله بحج بيت الله الحرام وزيارة نبينا عليه الصلاة والسلام والصلاة في مسجده ولا احسب ان هناك شعب مسلم يضارع السودانيين في حبهم للنبي وتوقيرهم له وهناك آلاف القصائد في مدح النبي واصبح المديح والمداحون جزءا أصيلا من الثقافة الدينية السودانية ولا يخلو ذكر من الصلاة علي النبي وامتداحه ، والسودانيون يحلفون بالنبي مثل قول النساء : (خصمتك بالنبي لو ما فعلت كذا وكذا) ويقول الرجال (عليك النبي لو ما فعلت كيت وكيت) أو قول النساء (النبي فوقك لو ما عملت كذا) ، وعندما كنا في إدارة تعليم نجران قال زميلي مبارك لرئيس الهيئة الفنية (انحنا بنحب الني اكثر منكم) ، والذي يؤدي فريضة الحج يستقبل استقبال الفاتحين بالأهازيج والمداحين والزغاريد وتذبح الذبائح ويطلي باب المنزل بالجير الأبيض ويرسم عليه الهلال وأشكال فنية باللون الأزرق ويكتب عليه (يا داخل هذه الدار صلي علي النبي المختار) ، ويتقاطر الزائرون والمهنئون من أهل الحي والأهل ، وينال الرجل لقب (حاج) والذي سيلتصق به مدي الحياة .. وقبل ذلك عند ذهابه لاداء الفريضة يودعونه باحتفال بهيج فيه المداحون وزغاريد النساء وبشارات الرجال وصخب وفرحة الأطفال ، وربما ذهبت هذه الزفة معه الي المطار ..

في العام الثاني لي في السعودية ذهبت لاداء فريضة الحج وكما يقول أهلنا في السودان (ناداني المنادي) ، وأخذتني الطائرة الي جدة

ومنها بالسيارة الي مكة وقصدت أحد المطوفين واصطحبني الي شقته والتي قسمها الي قسمين ، قسم منه يسكنه مع زوجته والقسم الثاني عبارة عن صالة كبيرة بها أسرة عليها مراتب ومخدات وأيضا براد ماء ، ويفصل بين القسمين فاصل من الخشب ، وكان بالشقة عائلة من الحجاج الليبيين تتكون من أربعة رجال وثلاث نساء في الجانب البعيد من الصالة ووجدت جالسا علي سرير قرب الباب رجلا في حوالي الستين من عمره مرتديا قميصا اخضرا وسروالا ابيضا ، وكانت لهجته العربية عصية علي الفهم وعرفت منه انه من ريف الجزائر وان أبناءه أوصلوه الي العاصمة ووضعوه في الطائرة وأوصوه بأن يتفق مع مطوف عند وصوله ليؤدي الحج وكان خالي الذهن عن أي معلومة تتصل بالحج وفي العصر احضر المطوف بعض البصات لتحملنا الي مني ولاحظت ان كل الحجاج كانوا من الليبيين عدا الحاج الجزائري وحاج إريتري وأنا ، وكان تعامل الحجاج يتصف بالجلافة والتدافع وضاع مني صاحبي الجزائري وعند عودتي لاداء طواف الإفاضة وذهبت الي الشقة لاستحم وأغير ثياب الإحرام وجدت الحاج الجزائري راقدا علي ظهره في السرير بقميصه الأخضر وسرواله الأبيض ، واخبرني انه في مني دفع به من اعلي الجسر ووقع علي الأرض ، ولما استرد قوته قفل راجعا الي الشقة ولم يكمل بقية المناسك وأهمها الوقوف بعرفة والذي لا يتم الحج إلا به .. وفي الليلة التي أمضيتها في مكة لاغادرها في صباح اليوم التالي الي جدة نما الي سمعي شجار بين المطوف وزوجته كان مسموعا بوضوح خلال الجدار الخشبي ، وتبادلا الشتائم التي يعف القلم من كتابتها وكان

يتم ذلك بأعلى صوتيهما ، وأسفت ان ذلك الرجل كان يردد أدعية كثيرة ونحن نرددها بعده في وقفة

عرفات ! ولم اكن أظن ان أهل مكة قادرين علي الإتيان بهذا القبيح من السباب الذي تجاوز أي حد للأدب ، وحقيقة ان الناس خارج جزيرة العرب يعتقدون ان الأراضي المقدسة وأهلها من الأخيار الطيبين الذين تأدبوا بأدب الإسلام وهم في ارض مهبط الوحي وبيت الله الحرام وموطن الرسول الكريم ، ولكن عندما تلاقيهم مثل هذه الصورة القبيحة الشائهة يصابون بصدمة كبيرة تزلزل كل مفاهيمهم القديمة ! ولكننا ربما نكون قد نحمل الناس فوق طاقتهم للتوقع من أخلاق مثالية أو عدم الخطأ فهم أولا وآخرا بشر من البشر خطاءين ..

وخرجت من الحج بعدة ملاحظات من واقع التجربة ، وأولها ان بعض المطوفين يتخذون الطوافة تجارة ولا يقدمون توعية دينية للحجاج عن اداء مناسك الحج وفي حالة المطوف الذي التحقنا به لم نره سوي في يوم عرفة وكان يترك كل شئ لاثنين من صبيانه لم يكونا علي دراية بمناسك الحج أو عندهم قدر من المسئولية أما الصدمة الكبرى فتأتي من سلوك الحجاج فيتوقع المرء ان يكون الحاج في قمة التهذيب والسماحة والذوق والرحمة ولكن هنا تدافع وتلاسن أحيانا ومدافرة والقوي يأكل الضعيف وكأننا في غابة من الوحوش ويبلغ السوء المدى عند دوس البعض بالأقدام حتى يلاقوا حتفهم ، وبدلا من ان ينشغل المرء بالذكر والتحليق في روحانية وشفافية ينشغل بسلامة بدنه من أذى الآخرين خاصة في الطواف أو رمي الجمرات ، وتولد لدي يقين بان الإسلام يأتيه الصغار من المسلمين وتذكرت قول رسولنا الكريم

ان المسلمين سيكونون كثيرين ولكنها كثرة كغثاء السيل. وصدق رسول الله عليه السلام فحيثما التفت اليوم في دول الإسلام والمسلمين تجد الامم تتداعي عليهم كما تتداعي الأكلة علي القصعة !
ويحضرني هنا ما خبرته من سلوك طلبة الثانوية لاحقا فقد كانوا يتهربون من اداء الصلاة فقد كنا نؤدي صلاة الظهر جماعة في مسجد المدرسة وكان جميع المدرسين والمدير والوكيل يسدون منافذ المدرسة ويطاردون المتهربين من الصلاة مطاردة الغنم القاصية من القطيع ، وكنا خلال الصلاة نسمع أصوات المتحدثين من الطلاب في الصفوف الخلفية ، واكثر من ذلك ربما يجئ الواحد الي الصلاة بدون وضوء ، وخبرت هذا السلوك المعيب في صلاة الجمعة من بعض الأولاد الذين يجلسون في المسجد في الصف الأخير للمصلين ، يحدث هذا مع ان التربية الدينية مكثفة في المدارس وكل فرع من الدين يعتبر مادة بحالها وله كتاب أي هناك كتاب لكل من (التوحيد والتفسير والفقه والحديث الي جانب القرآن) .. ولذلك تكون خيبة الأمل عظيمة عند المسلم القادم من خارج السعودية !

و أتيحت لي فرصة الحج مرة أخرى بعد سنوات ووهبت تلك الحجة لوالدي ، رحمه الله ، والذي أدركه الأجل قبل اداء الفريضة وفي تلك المرة كانت معي زوجتي وابنتي الطفلة ذات الأحد عشر ربيعا ، وسافرنا من الدوادمي الي مكة بسيارتي وكان رفيق الرحلة وهادينا زميل مدرس فاضل وكان يسير بسيارته أمامنا ، والتحقنا هناك بمعسكر للسودانيين واستأجروا بيتا من عدة طوابق في مني وافردوا جزءا منه للرجال وآخرا للنساء ويقوم بالخدمة فيه متطوعون من

الحجاج ومعظمهم من المدرسين وأساتذة الجامعات والموظفين والأطباء وكان المعسكر في غاية الترتيب والنظام فهناك وجبات الطعام الثلاثة مع الشاي ، وهناك عناية طبية مع توفير العلاج والدواء ، وهناك توفير البصات المريحة للتنقل الي عرفات ومني ، وكان مرشد المعسكر الديني أستاذ سوداني في جامعة المدينة المنورة الإسلامية ، وكان يومنا يبدأ بصلاة الفجر ويليها تنوير من المرشد بعمل الحج في اليوم ويلي ذلك محاضرة في الدين ثم الإفطار وبعد ذلك تكون هناك مذاكرة للقران حتى موعد صلاة الظهر وبعدها فترة راحة ويستأنف البرنامج بعد صلاة العصر بمحاضرة من أحد أساتذة الجامعات وليس بالضرورة ان تكون دينية ، وبعد صلاة المغرب والعشاء جماعة ينتهي برنامج اليوم ويذكرنا المرشد بعمل اليوم الثاني وهناك سبورة يكتب عليها البرنامج اليومي واسم الطبيب المناوب ، وهناك برنامج مشابه موازٍ للنساء تقوم به إحدى الأساتذة من النساء . وقد لاحظت ان معظم حجاج المعسكر من الأخوان المسلمين أو أعضاء الجبهة القومية الإسلامية وكان هناك بعض طلبة الجامعات بالسودان المنتسبين للجماعة ، ولاحظت أيضا انهم كانوا يسرون بعضهم البعض في مجموعات صغيرة ، وكانت بعض المحاضرات والمناقشات لا تخلو من السياسة ، كما ان رموز الجبهة في السودان كانوا يزورون المعسكر ورفع الدعاء في عرفة قاض وإمام من قادة الجبهة ، واختلي بي أحدهم واخذ يتودد الي ويسألني عديدا من الأسئلة قائلا انه يود ان تظل الصلة بيننا قائمة ، ولعل ذلك الشخص أوكلت له مهمة تجنيدي .. وعلمت فيما بعد ان ذلك المعسكر هو مؤتمر للإخوان أو قادتهم من السعودية والسودان يجتمعون فيه سنويا في موسم الحج للتدارس ورسم الخطط

، وكان الشخص الذي أوصى بي وتحصل مني الاشتراك في الدوادمي مدرس ملتحي سوداني من الإخوان مع انهم لم يكونوا يكشفون عن هويتهم الاخوانية وكان رفيقي ومرشدي الفاضل واحدا منهم ولكنه طراز فريد عنهم في تدينه وخلقه ..

وبعد طواف الوداع في الكعبة والذي فعلناه في منتصف الليل أخذنا سيارة تاكسي حملتنا خارج مكة حيث تركنا سيارتينا في ساحة كبيرة وقدناهما عائدين ، وكان رفيقي يسير خلفي ولاحظ ان سيري مضطرب ونبهني بآلة التنبيه والنور ، ووقفت علي جانب الطريق وقال لي ان نقضي بقية الليلة في الطائف عند الميقات لنأخذ قسطا من الراحة ونواصل الرحلة في الصباح ولم نكن نبعد عن مدينة الطائف سوي ربع ساعة أو اقل من ذلك ، وكانت نصيحة غالية فقد كنت اشعر بالتعب والنعاس ، ولولا تصرفه ذاك لحدث ما لا تحمد عقباه !

كما أتاح لي وجودي في السعودية اداء العمرة أربع مرات وزيارة رسول الله والصلاة في مسجده والتشرف بالسلام عليه وفي هذه المرات كنت استمتع متعة روحية لا حد لها ولا وصف لها لأنها فوق الحد وفوق الوصف ، فلم يكن هناك زحام رهيب ولم تكن هناك ضجة وتدافع مما يصرف المرء عن الاستغراق في العبادة وعن الإحساس بالقرب من الله ، وفي كل مرة يطغي علي هذا الإحساس الروحاني الشفيف عند الدخول الي المدينة المنورة وتستقبلنا بنسمات هوائها وكأنها آتية من الجنة ، ويغمرني شعور طاغ بالفرحة من القلب وتطرب له النفس وكأنها تحلق في فضاءات نورانية لا نهائية ، ولا يغادرني هذا الشعور كلما صليت في الروضة الشريفة أو وقفت

خاشعا القي السلام علي النبي عليه افضل الصلاة والسلام ، ومن عجب ان هذه الأحاسيس تقل في مكة عنها في المدينة ولا ادري كنه ذلك ، وفي الحديث الشريف (ان الإيمان يأرز (حيثما ذهب يرجع الي) الي المدينة كما تأرز الحية الي جحرها) ، وأهل المدينة يختلفون عن بقية أهل الجزيرة فتلاقي فيهم رقة وسماحة وأمانة وشهامة ولا عجب فهم أحفاد الخزرج والأوس الذين صدقوا الرسول وأووه ونصروه ومن مدينتهم انتشر نور الإسلام في الأرض وعم الدنيا ..

نهاية المطاف :

لا تطاوعني نفسي علي ختام هذه الذكريات بحلوها ومرها ولو أنني بلوت من الحلو منها ما يفوق ما لاقيت من مر لا يكاد يذكر ، فلأذكر شيئا عن العلاقة التي سادت بين المدرسين في المدرسة الثانوية في الدوادمي ، فقد ضمت هيئة التدريس أغلبية من المدرسين المصريين وكان هؤلاء علي قدر عال من الكفاية وحسن الخلق وان كان واحد رديء قد تسرب بينهم فانه سرعان ما يكتشف ويلفظ في أول حركة تنقلات ، وذكروني بأساتذتي المصريين القدماء الذين تتلمذت علي عليهم عندما كنت في المرحلة الثانوية في السودان وكانوا كلهم رجالا فوق الأربعين من العمر وذوي تجارب وخبرة في التعليم ، ولعل وجود تلك المجموعة الطيبة في مكان واحد يرجع الي انهم مختارين بعناية ليقوموا بالتدريس في الثانوية ، ويليهم في العدد مجموعة من المدرسين السودانيين وهؤلاء مشهود لهم بالكفاءة والإخلاص في عملهم أينما كانوا ، وهناك قلة من المدرسين السعوديين وهؤلاء نخبة مختارة بعناية ولا يقلون عن زملائهم السودانيين والمصريين ، ويكفي

دليلا ان كل الموجهين يختارون من مدرسي ثانوية الدوادمي .. وكانت العلاقة بين الجميع علاقة احترام وود ، وكان ينظم في نهاية كل فترة دراسية رحلة لمدرسي المدرسة الي خارج الدوادمي ويدعي لها نفر من الإدارة ونقضي اليوم في اللعب بالكرة الطائرة واللعب والأحاديث الشيقة ، ويقوم بالضيافة والخدمة زملاؤنا المدرسون السعوديين من تقديم الشاي والقهوة والأكل ، وكانت أوقات سعيدة يتحلل فيها الجميع من قيود ومنغصات الحياة .. ولا يفوتني ان اذكر الوليمة التي أولمها لنا مدير التعليم احتفاء بالموجهين الجدد والمنقولين الي المنطقة وكنت من بينهم ، وكان المكان إحدى المزارع خارج الدوادمي ، ولم استطع حضور الوليمة لأن الزميل المكلف ليدلني علي مكان اللقاء التبس عليه الموعد وذهب بدوني بعد انتظاري بعض الوقت ، مما عرضه للوم المدير ، أما أنا فقد اعتذرت للمدير في اليوم التالي وشكرته علي دعوته ..

و أخيرا حان وقت الرحيل وأدبرت سنين العمل والكفاح في سبيل الرزق والضرب في الأرض سعيا في مناكبها ، ورأيت فيها ما رأيت وسمعت فيها ما سمعت ، ما سرني وما ساءني ، وما أسعدني وما أشقاني ، وما أضحكني وما أبكاني ، وبرغم هذا وذاك ظل نهر الحياة جاريا طاميا يتدفق بالحيوية الي ان يأذن خالقنا بأن يغور وينضب ..

وهكذا تسربت سنين العمر مولية كما يتسرب الماء من خلال الأصابع وتلاحقت بالعشرات ، والنفس لاهية ساهية ، وجاءت الصحوة وقد اشتعل الرأس شيبا ، ورق الجسم ووهن العظم ، وبانت

الحقيقة بأن الآتي من العمر اقل مما أدبر منه ، وهكذا حال الدنيا ..

أقام لي السودانيون بالدوادمي وليمة وداع وغمروني بمشاعرهم الفياضة التي ارتجلها البعض منهم واهدوني هدايا للذكري ، ورددت عليهم متأثرا واذكر ان مما قلته ان تظل روح الاخوة دائما تؤلف بيننا رغم تباين مشاربنا السياسية وقرأت سورة العصر في نهاية كلمتي القصيرة .

وهكذا غربت شمس المشي في مناكب الأرض ابتغاء الرزق والمعارف ووضعت عصا التسيار لأركن الي ظل الدعة والراحة ان كان هناك شيئا منهما في بحر الحياة المتلاطم ...

الشركة العالمية للطباعة والنشر

إدارة المبيعات ٠٠٢٠١٠١٢١٩٣٤٩٤ تلفاكس: ٠٠٢٠٢٦٩٨٩٥١٧

البريد الإلكتروني: elshekh@daralaloom.com

هلال زاهر سرور الساداتي

- من مواليد حى الموردة (فريق ريد) بمدينة ام درمان فى السودان نشر اول قصتين له فى اواخر الخمسينات من القرن الماضى بمجلة صوت المرأة التى كان يصدرها الإتحاد النسائي السودانى وبصحيفة القافلة التى كانت تصدرها الأستاذة حاجة كاشف .
- كتب مقالات بصحيفتى الايام والرأى العام السودانيتين فى الستينات من القرن الماضى
- اشتغل بالعمل الوطنى فى عهد الإستعمار الأنجليزى للسودان وكان رئيسا لإتحاد الطلبة بمدرسة الاحفاد الثانوية وعضو اللجنة المركزية لمؤتمر الطلبه وفصل من الدراسة لهذا السبب
- كان عضواً باللجنة المركزية لإتحاد الشباب السودانى ورئيسا لإتحاد الشباب السودانى بام درمان في عام 1975 م
- كتب بصحف الايام والرأى الآخـــر والصحافة والخرطوم وحضارة السودان
- قاص وكاتب وينشر كتاباته حالياً فى صحف سود نايل وسودانيز اون لاين وسودان فدا الالكترونية.
- مولف كتاب ايام التونج - ذكريات فى جنوب السودا
- متزوج وله ثلاث بنــــــات وولد ومقيم حالياً بالقاه

الشركة العالمية للطباعة والنشر - الخرطوم